
كتابي
١٠ قروش
حلمي مراد
قطة..!
وحة فوتوغرافية للمصور «جان»

كتابي

كتاب شهرى لتلخيص الكتب العالمية
يصدر أول كل شهر
صاحبه ورئيس تحريره : حلمى مراد

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الاغريق

مدير التحرير : محمد بدر الدين خليل

الكتاب الثالث والثمانون (السنة السابعة) : فبراير ١٩٥٩
الاشتراكات ومجموعة الاعداد السابقة : اقرأ التفصيلات بالداخل
الادارة : عمارة الجندول – ١٤ شارع ٢٦ يوليو – بالقاهرة
تليفون : ٥٩٥٥٦

محتويات الكتاب

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر حتى الآن ثلاثة وثمانون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد ، فى أول كل شهر .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الامينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها أربعة وأربعون كتاب ، يضاف اليها كتاب جديد فى منتصف كل شهر . وتطلب قائمة بأسمائها من الادارة .

الاشتراكات

◆ تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :

ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

◆ الاشتراكات عن سنة (١٢ عددا) من أى من المجموعتين :

فى مصر والسودان ١٢٠ قرشا . وفى العراق وسوريا ولبنان والأردن والمملكة السعودية : مايوازى ١٤٠ قرشا . وفى الكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وتركيا ودول أوربا والامريكتين : ١٦٠ قرشا ، خالصة اجر البريد المسجل

ولمن شاء أن ترسل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، ان يدفع فرق الرسوم .

◆ ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات فى مصر باذن بريد عادى .

وللمشتركين فى البلاد الاخرى أن يرسلوا القيمة بشيك على أحد بنوك القاهرة ، أو تحويلات مصرفية ، أو كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما ، على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بأن سعرها فى مصر ٣٧ مليما .

ومن المكن لمن فى السودان أن يرسل القيمة بحوالة بريدية



من كل بلد قصة !
الدنمرك - السويد - النرويج
المانيا - سويسرا
بلچيكا - هولندا
تركيا
اسبانيا
نافذة كتابى تطل على العالم
رأيت وسمعت لك
فى أوربا

كتابى يرتفع الى مستوى جديد !

عزيزى القارىء ...

كان من أهم أهداف رحلتى الى اوربا فى الخريف الماضى ، أن أزور اكبر عدد من دور النشر والطباعة ومصانع الورق فى كافة البلاد الاوربية المتفوقة فى هذه الميادين .. فزرت هذه الدور فى كل من ألمانيا والدنمرك والسويد والنرويج وسويسرا وبلجيكا ، وخرجت من زيارتي لها بمحصول وافر من الدراسات ، والانطباعات ، والخبرة بالكثير من دقائق الامور التى تعيننى على الارتفاع ب (كتابى) و (مطبوعات كتابى) الى أعلى مستوى تستطيع أن تصل اليه امكانياتى ، سواء من حيث المظهر أو الجوهر .. من حيث اتقان الطباعة واتقان الادارة واتقان التحرير فى وقت معا .. **استعدادا للوثبة الجديدة التى يتهيأ لها (كتابى) - ومطبوعاته - ابتداء من العدد القادم باذن الله .. العدد الذى يستهل به كتابى العام الثامن من كفاحه الادبى فى سبيل نشر ثقافة عالمية الافق ، رفيعة الاسلوب ، عفة القلم والبيان ، ((نظيفة)) نقية فى الظاهر والباطن .. لاتمد يدها الى شرق ولا غرب ، ولا تتلقى اعانات من أحد** .. وهكذا استطاع كتابى - بفضل ايمانه برسالته واعتماده عليك وحدك أيها القارىء - أن يحقق ((الحياد الايجابى وعدم الانحياز)) فى ميدان الادب ، ويسمو على كل تعصب ، أو تحزب ، أو انحراف .. ملتزما العهد الذى قطعه لك منذ عدده الاول ، أن يكون مشعلا للثقافة الحقة ، الخالصة من شوائب الاغراض ، المنزهة عن الهوى .. لا يستهدف غير تعميم الوعى الثقافى وتيسير القراءة والاطلاع لقراء العربية جمعيا ، فى شتى فروع المعرفة : من أدب ، وفن ، وعلم ، وتقدم بشرى ، كى يتابعوا عن طريقه ركب الفكر

العالمى ، وينهلوا من الفيضانات الذهنية التى يريقها أصحاب المواهب من الكتاب والمؤلفين على صفحات الكتب ، زادا حلالا وملكا مشاعا وضياء هاديا للبشر جميعا ، دون تفرقة ولا تمييز .. فالثقافة لا وطن لها ، والمعرفة تراث للانسانية بأسرها ، فى كل زمان ومكان .

بهذه الروح ، والفكرة ، والعزيمة ، والايمان ، أصدرت كتابى منذ سبعة أعوام .. وبهذه الحوافز جميعها يتأهب كتابى اليوم لوثبة كبرى أرجو أن تجىء محققة لآمالك ، وحسن ظنك فيه ، معوضة لك عن صبرك على بعض أوجه النقص التى قد تكون لمستها فيه فى الماضى .. **وهى أوجه النقص التى لمستها أنا ، وألمسها دائما فى كل عدد ، مكبرة مجسمة ، بحكم أن الصورة التى أحلم بأن يكون عليها (كتابى) ، تفوق دائما ما أجدنى قادرا على تحقيقه !** .. ولو أوتيت « خاتم سليمان » مثلا ، لقدمت لك ـ فى العدد الواحد ـ « آلاف » الكتب الممتعة التى رأيتها فى مكتبات أوربا خلال جولتى الاخيرة ! (والواقع أن النهضة الفكرية التى أنتجت مثل هذا الانتاج الضخم الذى أذهلنى ، لهى شىء جبار حقا !)

على انى وان عجزت عن احضار « كل » ما أردت احضاره من تلك الكتب ، فانى قنعت بعدد كبير من أحسنها وأروعها ، كان كافيا لان يحفزنى على الاقدام على هذه الوثبة الجديدة التى أعدها لك ابتداء من العدد القادم من كتابى باذن الله .

وحسبى هذا الآن ..

والى اللقاء على صفحات (كتابى) القادم ..

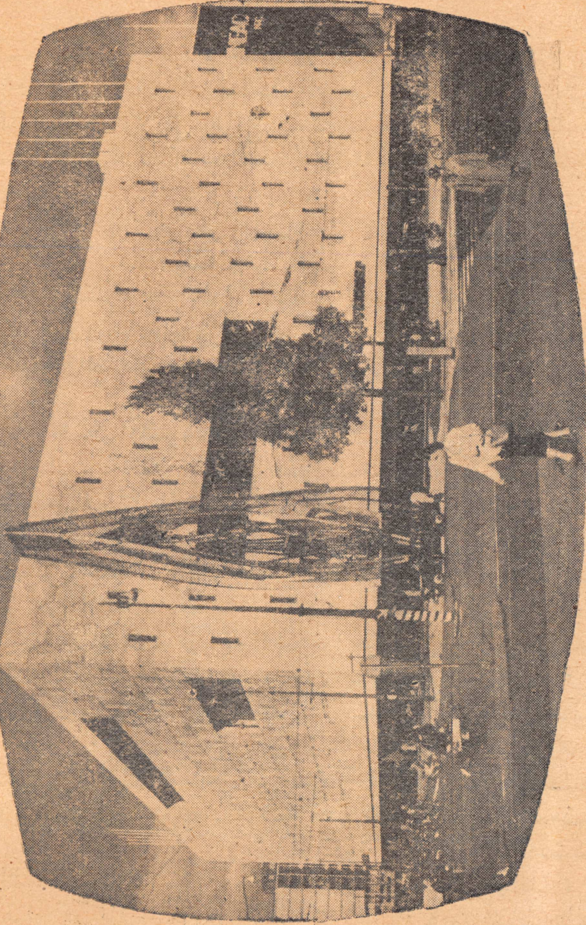
والله ولى التوفيق

فى العددين الماضيين ، كتبت لك طرفا من مشاهداتى فى (ستوكهولم)، و (مدريد) .. واليوم نواصل جولتنا فى مدن هولندا والدنمرك وتركيا .. فأقدم لك ((من كل بلد قصة)) !

أحدث نموذج ل ((مدينة الغد)) !

◆ **ففى** (روتردام) – ثانى موانىء العالم – سار بى (اللنش) أكثر من ساعة فى مياه الميناء ، بين « مئات » السفن الذاهبه والقادمة ، وبين الأحواض الجافة لبناء السفن الجديدة ، واصلاح السفن التى أصيبت بعطب .. ولن أستطيع أن أصف لك ضخامة هذا الميناء الذى تتناثر فيه السفن التجارية وسفن الركاب القادمة والذاهبة الى مختلف موانىء العالم . يكفى أن تعلم أن عدد السفن عابرة المحيطات التى دخلت هذا الميناء فى عام ١٩٥٧ بلغ ٢٢ ألف سفينة . أما السفن التى تنقل البضائع من والى هذا الميناء عبر نهر (الراين) الى داخل أوربا فقد بلغ عددها فى العام الماضى مائتى ألف سفينة !

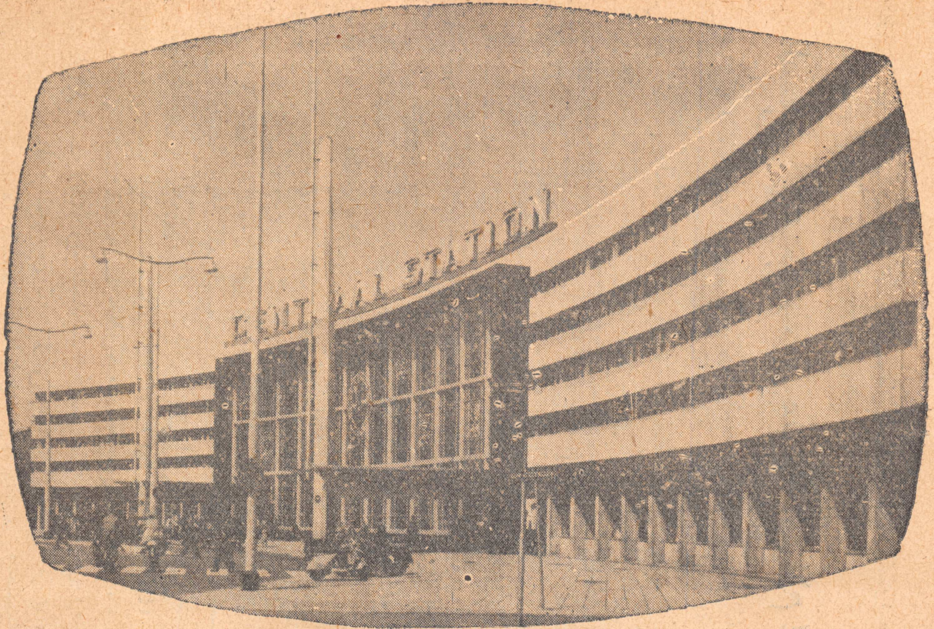
والأحياء الجديدة فى (روتردام) تعتبر نموذجا لما سوف تكون عليه مدن المستقبل ، فقد شيدت هذه الأحياء بأكملها طبقا لأحدث تصميمات فن العمارة ، حتى ليجىء الطلاب من مختلف جامعات العالم لمشاهدتها ! .. ومن هذه الناحية تعتبر روتردام أحدث مدن العالم . وقد شيدت هذه الاحياء فى مكان مدينة (روتردام) القديمة التى دكتها قنابل الطائرات الألمانية فى شهر مايو عام ١٩٤٠ ، فدمرت فيها ٢٤٩٧٨ مسكنا ، و ٢٣٩٣ محلا تجاريا ، و ١٤٨٣ مكتبا ، و ١٢١٢ مصنعا ، و ٦٧٥ مخزنا ، و ٢٦ فندقا ، و ١٢ كنيسة ، و ١٢ دارا للسينما ! .. **ولم يبق من قلب المدينة سوى دار البريد ودار البلدية والبورصة ، وبضعة أبنية تعد على أصابع اليدين ! .. وقد أزيل من أنقاض المبانى المهدمة خلال السنوات التالية ما لا يقل عن خمسة ملايين متر مكعب ! .. وفى خريف عام ١٩٤٤**



نموذج لأحد الأبنية العصرية التى تملأ الأحياء الجديدة من مدينة (روتردام)

أصيب ميناء (روتردام) هو الآخر بعدد من الغارات الجوية التى ألحقت به أضرارا فادحة ٠٠ فلما انتهت الحرب ، تركزت حركة التعمير أولا فى اصلاح الميناء – الذى تتوقف عليه حياة هولندا كلها – ثم امتد التعمير الى المدينة ذاتها ٠٠ حتى أصبحت اليوم تختال وتزهو على مدن العالم بمبانيها ذات الهندسة المبتكرة ٠ ومن أجملها حى المتاجر الجديدة ، المسمى (ويشبهونه بالشارع المشهور فى نيويورك المعروف باسم « الشارع الخامس » ، فيطلقون على هذا اسم « شارع أوربا الخامس » !) ٠٠ والواقع ان روعة التصميم والاضاءة والعرض فى متاجر هذا الحى شىء لا مثيل له فيما رأيت !

ومن أضخم المشروعات الهندسية التى تم تنفيذها فى (روتردام) ، النفق الهائل الذى شيد تحت نهر الراين ، ليربط بين ضفتى الميناء ٠ وقد أقيم عند طرفيه مدخلان ضخمان ، يدخل منهما الراغبون فى العبور من ضفة الى أخرى ، فيهبطون بالسلالم الكهربائية نحو ثلاثين مترا ٠ وقد خصص جانب من السلالم للمشاة ، وجانب آخر لراكبى الدراجات ، الذين ترى المئات منهم قد اصطفوا ممسكين بدراجاتهم على درجات السلم ، فتهبط بهم وبجيرانهم المشاة الراجلين حتى قاع النفق ، وهناك يفترق الفريقان ، فيدخل كل فريق منهم فى نفق خاص ٠٠ وهناك نفق ثالث للسيارات ، ذو مدخل مستقل ٠ وطول كل نفق من الثلاثة « كيلو متر » كامل ٠ **وهو « شارع » فسيح ، عرضه نحو عشرة أمتار ، مضاء بالكهرباء اضاءة قوية ، ومكيف الهواء ، وجدرانه مكسوة ((بالقيشانى)) الابيض** ٠٠ فاذا انتهى العابر الى نهايته ، صعد على سلم كهربائى آخر الى سطح الأرض ٠ ومن المناظر الطريفة أن ترى عابرى النفق من أصحاب الدراجات وقد ركبوا دراجاتهم



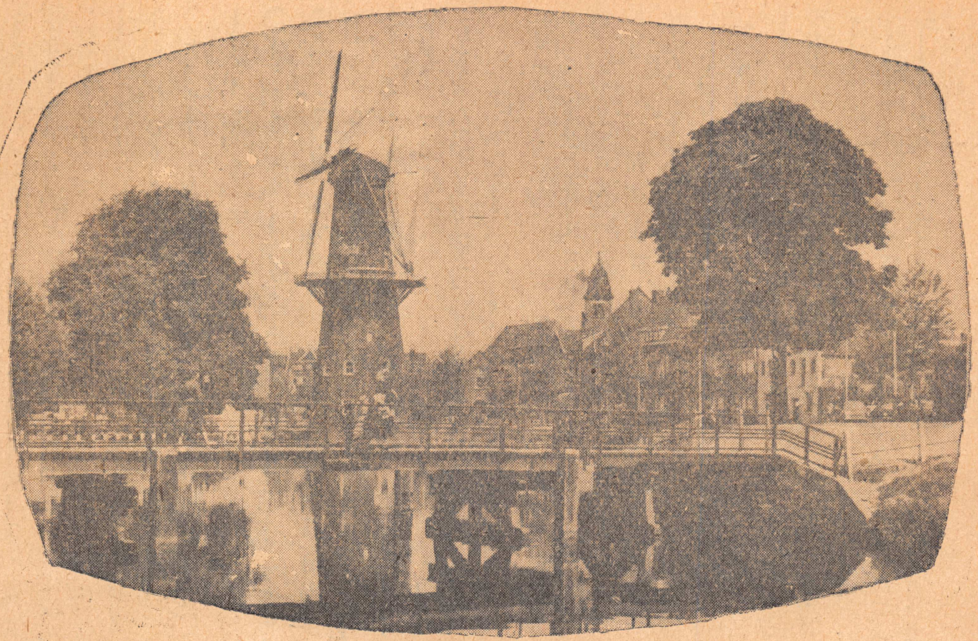
محطة (روتردام) الجديدة ، وهى آية من آيات فن المعمار الحديث

داخل النفق نفسه ـ بين سلم الهبوط وسلم الصعود ـ وانطلقوا بها أفواجا وزرافات ..

السجن الرهيب .. فى مدينة السلام !

• وفى (لاهاى) ، مقر حكومة هولندا والمدينة ذات الشهرة الكبرى فى المؤتمرات الدولية منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، لن أحدثك فى هذه المرة عن « قصر السلام » مقر محكمة العدل الدولية، وعن البذخ الهائل الذى يتجلى فى قاعات القصر وابهائه .. ولن أصف لك المدينة النموذجية الصغيرة MINIATURE TOWN التى ترى فيها كل معالم المدن ـ بمبانيها وشوارعها ومصانعها والسفن التى تسير فى قنواتها .. الخ . ـ مصغرة بنسبة ١ الى ٢٥ ، بحيث تبدو أشبه بلعب الأطفال . وقد أنشئت كلها وسط حديقة واسعة تحتاج كى تطوف بها الى أكثر من نصف ساعة ، وترى فيها جميع مرافق المدينة ومواصلاتها تتحرك بالكهرباء بدقة تحاكى ما يحدث فى المدن الحقيقية على نطاق مكبر ! .. الخ

كلا ، لن يتسع حديثى ـ فى هذا الفصل ـ لشىء من ذلك ، وانما سأقصر الكلام اليوم على مكان قد لا يهتم بزيارته أكثر زوار (لاهاى) ، ولكنه فى نظرى أهم من « قصر السلام » ومن متاحف المدينة ودار البرلمان وقصر « بيننهوف » وشاطىء « شيفيننجن » العالمى .. والمكان الذى أعنيه هو : « سجن » لاهاى الرهيب الذى يسمونه (GEVANGENPOORT) الذى كانت الدولة تستخدمه ـ خلال خمسة قرون، منذ عام ١٣٠٠ الى عام ١٨٢٨ ـ لاعتقال و« تعذيب » خصومها السياسيين، وسواهم من القراصنة والمجرمين ! .. وفى هذا السجن من زنزانات وأدوات التعذيب ما يقشعر له البدن ، وما ينم عن وحشية يبرأ منها أى شعور انسانى . من ذلك مثلا انهم كانوا يوقفون



طاحونة الهواء .. رمز (هولندا) التقليدى !

السجين حافيا ــ مقيدا ــ فوق قاعدة من الرخام البارد ، بعد أن يحلقوا شعر رأسه تماما ، ثم يفتحون فوق جمجمته الحليقة صنبور ماء بارد ، تتساقط منه قطرات متتابعة منتظمة ، ترن رنينها الرتيب فوق رأسه دون انقطاع،فلا تنقضى أربع وعشرون ساعة حتى يصاب السجين بالجنون .. وفى نهاية اليوم الثالث أو الرابع يلفظ آخر أنفاسه !

ومن وسائل التعذيب التى كانوا يستخدمونها فى هــذا السجن انهم كانوا يضعون السجين فى زنزانة ملاصقة للمطبخ ، حتى تملأ أنفه روائح الأطعمة المختلفة الشهية التى تنتقل اليه من كوة خاصة فى الجدار . ويتركونه جائعا يتلمظ ولعــابه يسيل اشتهاء للطعام الذى يشم رائحته ولا يستطيع أن يصل اليه !

.. وكانوا يضعون السجين فى زنزانة ذات جــدران من الخشب ، ويتيحون له أن يقتنص أدوات يستعين بها على ثقب الجدار ، التماسا للفرار .. فينفق فى هذا المسعى أســابيع وأسابيع ، يداعبه خلالها الأمل فى النجاة ، بدرجة تتزايد كل يوم .. **حتى اذا أفلح فى النهاية فى ثقب الجدار الخشبى ، فوجىء بالصدمة الأليمة التى تسحقه سحقا ، اذ تصطدم يداه وعيناه بجدار آخر سميك من الحجر الصلد ، يبلغ عرضه ــ أى سمكه ــ نحو متر !**

ومن آلات التعذيب المروعة التى رأيتها فى هذا السجن ، آلة لمد أطراف الجسم من الجهتين المتقابلتين فى وقت واحد ، حتى يتمزق الجسم ! .. وآلة لتمزيق ومد شعر النساء السجينات .. وآلة لكسر الأذرع والساقين .. وآلــة لحــرق أقدام الســاحرات .. وآلة لوشم الذراعين بالنــار .. وآلة لجلد المسجون .. وآلات وسيوف متنوعة لتنفيذ الاعدام .. و «دكة»



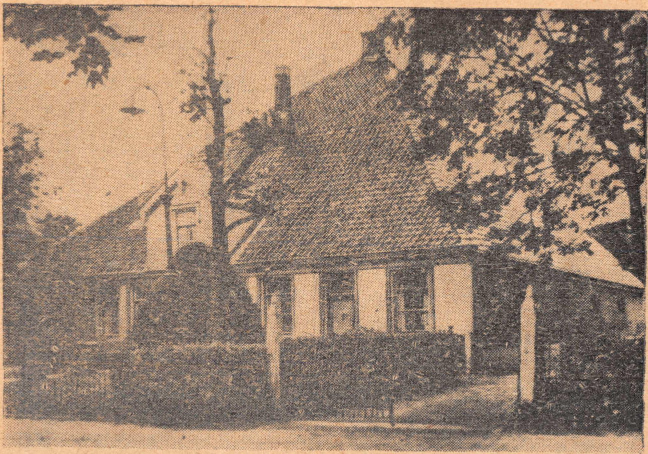
عائلة هولندية بملابسها القومية ، التى ما يزال القوم يحرصون
علي ارتدائها فى قريتي (ماركن) و(فولندام) ، بضواحي أمستردام

خشبية يفصل عليها رأس المحكوم عليه عن جسده .. الخ .. الخ . وكانوا يضعون أحيانا خمسة عشر سجينا فى زنزانة واحدة ! .. وفى احدى الزنزانات تمثال وعدة رسوم ولوحات كتبت تحتها قصة أشهر سجين اقترنت مأساته بتاريخ هذا السجن ، وهو **النبيل « جوهان فون ويت » ، الذى اتهم بالتآمر على العرش ، فسجن وعذب ثم أعدم .. وبعد اعدامه ظهر انه كان بريئا** !.. وعلى أحد جدران الزنزانة رسم حفره السجين المذكور بمطواته على الحجر . وهو رسم دقيق يمثل القصر الذى كان يملكه ويعيش فيه قبل أن يتهم ظلما ويلقى به فى ظلمات ذلك السجن !

٣ مليون بقرة .. مدللة !

. **وما دمنا** بصدد هولندا ، فتعال معى ننتقل من مدنها الى ريفها . الى قرية من ضواحى « أمستردام » ، كى نزور أحد مراكز صناعة الجبن الهولندى المشهور «الفلمنك» ، وصناعات الألبان ومشتقاتها هى من أعمدة الاقتصاد الهولندى كما تعلم . ومن أطرف الاحصاءات التى وقفت عليها فى هذا الصدد أن عدد الابقار فى هولندا يبلغ نحو ثلاثة ملايين بقرة ! .. فاذا علمت أن عدد سكان هولندا لا يزيد عن ١١ مليون نسمة ، أمكنك أن تتصور أهمية البقرة فى هولندا !

وقد حاولت أن أعرف سر شهرة هولندا بتربية الابقار وصناعات الألبان ومنتجاتها ، فقال لى الدليل الذى رافقنى في هذه الرحلة ، ضاحكا : « ان المسألة كما ترى عملية حسابية بسيطة : فالأرض فى هولندا منخفضة ، ترويها المياه بسهولة وكثرة ، وهذا يعنى انبات الحشائش الخضراء الغزيرة بوفرة . واذا أنت أطعمت البقر حشيشا جيدا ، أعطاك بدوره لبنا جيدا . واللبن الجيد ، ينتج زبدا جيدا ، وجبنا جيدا .. ومن هنا



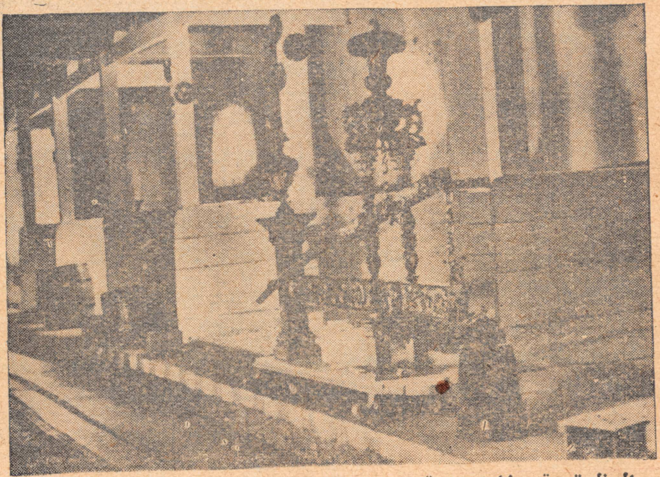
« الفيللا » الأنيقة التى تقطنها الأبقار وصاحب المزرعة معا ، في ريف هولندا

جاءت ثروة هولندا الزراعية والحيوانية ! »

وانطلقت بنا السيارة تطوى الريف الهولندى المنبسط الأخضر ، حتى بلغنا احدى المزارع التى تربى فيها الابقار ويصنع الجبن .. ودخلنا « فيللا » صغيرة أنيقة ، تحيط بها حديقة جميلة ، وتتألف الدار من طابقين : طابق علوى لاقامة أصحاب المزرعة ، وطابق أسفل لاقامة أصحاب الدلال والتيه : الأبقار ! .. **وأنت حين ترى« فخامة » الابقار الهولندية ، وبدانتها ، و « عافيتها » التى تدر دسما ولبنا ، لا تملك نفسك من أن تلتمس لها العذر اذا أشاحت بعيونها الكبيرة عنك ولوت أعناقها ، دلالا !..** وكيف لا تتيه خيلاء وهى تعيش فى نعيم مقيم ؟.. فى أشهر الصيف ترعى الحشائش الوفيرة الريانة وتبيت في الحقول ، مستمتعة بالشمس والهواء وندى الفجر

.. وفى أشهر الشتاء تأوى الى مقاصيرها الجميلة الأنيقة فى داخل الدار ، حيث يحمل اليها الطعام وهى فى مكانها ، دون عناء .

ونست آبالغ حين أصف مقاصير الأبقار فى داخل الـدار بالجمال والأناقة . وكيف لا وهى مزينة النوافذ بستائر من « الدانتللا » ؟ .. والواقع أنها على درجة من النظافة تسترعى الانتباه حقا . ويفصل بين كل مقصورة ومقصورة حـاجز من الخشب ، مدهون بالزيت الابيض ، ليسـهل غسله بالماء والصابون . وأمام كل بقرة مكان مخصص للطعام ، وخلفهـا مكان مخصص للفضلات . وتوضع الأبقار عادة ووجوهها نحو النافذة ، وظهرها نحو داخل الدار ، (ربما لكى لا يشغلها عن



الحظيرة وقد خلت من قاطنيها أثناء الصيف ـ حيث تقضى الأبقار الموسم فى الحقول ـ وترى آلة لكبس الجبن ، من الطراز القديم



الأبقار فى حظيرتها الشتوية النظيفة البراقة ، وقد علقت ذيولها الى السقف ، كى لا تتسخ بالفضلات

مهمتها الخالدة شاغل !) • وتربط ذيولها بخيط يعلق فى سقف الحظيرة ، (كى لا يتلوث الذيل بروث البقرة) •• ويسهر أصحاب المزرعة على نظافة الحظيرة بصورة تدعو الى الاعجاب حقا •

فاذا فرغت الأبقار من مهمتها ، فدرت اللبن ، تلقفه القوم فوضعوه فى أوانى ضخمة ، يغلى فيها • ثم يتعهدونه بالمستحضرات اللازمة فيفصلون منه الزبد ويصنعون من الباقى جبنا ، فى قوالب خاصة ، ثم يغلفونه بتلك الطبقة الحمراء من الشمع ، ويتركونه فى أماكن معدة له عدة أشهر ليجف ويبلغ درجة النضج الكافية التى تكفل له طعما خاصا ، وصلابة خاصة • وبعد ذلك تغلف كل « كورة » من الجبن بالورق

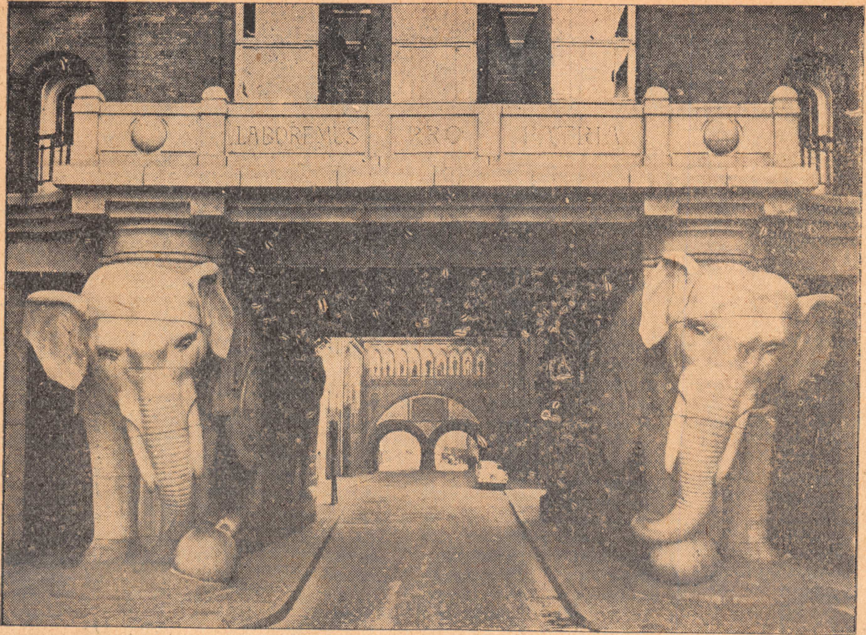
السيلوفان الشفاف ، وتلصق عليها بطاقة مطبوعة عليها اسم المزرعة التى صنعتها ، قبل أن تنقل الى الجهة المشرفة على مراقبة الانتاج ، كى تفحصها وتستيقن من مطابقتها للشروط المحتومة ٠٠ وعندئذ فقط تصبح صالحة للتوزيع ، الى الاسواق التى تنتظرها فى شتى أقطار العالم !

« البيرة » فى خدمة العلم والفن !

◆ **وحديث** الطعـام يقود الى حـديث الشراب ، ويذكرنى بزيارتى لمصانع البيرة المشهورة (كارلسبرج) فى عاصـمة الدنمرك ٠ وقد تقول : وما أهمية مصنع للبيرة حتى يزاره ويكتب عنه ؟! ولكنك لو علمت أن الملكة اليزابيث ملكة انجلتـرا قد حرصت على زيارة هذا المصنع فى العام الماضى - رغم التزمت التقليدى المتوارث فى الأسرة المالكة الانجليـزية - لأدركت « مكانة » هذا المصنع فى نظر الشـعب الدنمركى ، وكيف يعتبرونه صرحا « قوميا » يفاخرون به !

ويزيد من دهشتك ان تعلم أن مجلس ادارة المصنع يتألف من خمسة من أكبر أسـاتذة جامعـة (كوبنهاجن) ٠٠ وقبل أن نزور هذا المصنع الضخم ، الذى يشغل مساحة ٦٢ فدانا ، وينتج كل « يوم » نحو مليون ومائتى ألف زجاجة من البيرة ، تعال نسمع قصة المصـنع « وأهـدافه » ٠٠ من بدايتها :

فى عام ١٨٤٧ أنشأ الكابتن « جيكوبسين » أول مصـنع للبيرة فى الدنمرك ، واطلق عليه اسم (كارلسبرج) ، نسبة الى ولده « كارل » ٠ وكانت أهداف المؤسسة كما حـددها هى « تقديم العون المادى للمعاهد والمعامل التى تساهم فى تقـدم العلوم الأساسية » ٠٠ ولم تلبث المؤسسة أن حققت الخطوة الأولى من رسالتها حين أنشأت « معامل كارلسـبرج » ، ثم



البوابة الخارجية لمصانع (كارلسبرج) ، مرتكزة على فيلين ضخمين ، يرمزان للقوة والحكمة ، وهما منحوتان من الجرانيت . وفوق البوابة كتبت العبارة التى توضح أهداف المؤسسة : « فلنعمل من أجل وطننا » .. فان صافى دخلها بأكمله يخصص للانفاق على العلوم والفنون !

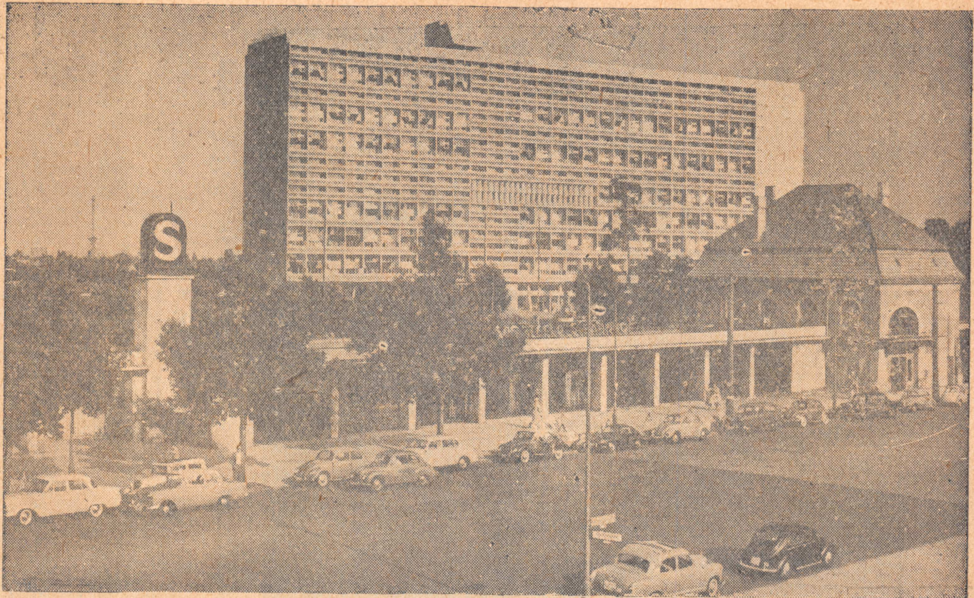
« متحف التاريخ الطبيعي » الذى يحتل اليوم جناحا كبيرا من قصر (فريدركسبرج) فى احدى ضواحى كوبنهاجن ٠

وحين توفى مؤسس المصنع وآلت المؤسسة الى ابنه «كارل» ، الذى كان يعشق الفن،ترسم الابن خطوات أبيه ، فأنشأ متحف كارلسبرج للفنون GLYPTOTHEK الذى يعتبر اليوم من أشهر معالم كوبنهاجن ، والذى يحوى مجموعة نادرة من تماثيل «رودان» وكبار المثالين العالميين ، ومجموعه أخرى من اللوحات الزيتيه الخالده ، لأشهر الرسامين منذ عصر النهضة حتى يومنا الحاضر ٠٠ كما يضم المتحف جناحا خاصا للآثار المصرية يتألف من خمس قاعات ، وبه عدد من المومياوات الفرعونية المحنطة ٠٠ الخ ٠

بل ان تمثال « الحورية الصغيرة » LITTLE MERMAID الذى يربض فوق صخرة فى ميناء (كوبنهاجن)،والذى صار رمزا للمدينة ، كما ترمز الأهرام وأبو الهول لمصر ، انما هو احدى مآثر « كارل جيكوبسين » صاحب مصانع البيرة المذكورة ،فقد أهداه الى عاصمة وطنه فى عام ١٩١٣ ٠

وحين حصل عالم دنمركى من علماء الذرة على جائزة نوبل فى العلوم ـ منذ أعوام ـ أهداه المصنع « فيللا » فاخرة ذات حدائق غناء ، كى يقيم فيها مدى حياته ٠

وقبل أن يتوفى « كارل » منذ أعوام قليلة ، أوصى بأن تكتفى ذريته بالثروة التى خلفها لها ، ويخصص الايراد الضخم الذى يدره المصنع ، بأكمله ، للانفاق على مؤسسات العلوم والفنون فى الدنمرك ٠٠ وهكذا لم تعد الأسرة تقبض أى نصيب من الايراد « المخيف » الذى يدره توزيع أربعمائة مليون زجاجة بيرة كل عام ، بل ينفق الايراد كله لخدمة العلم والفن ٠ كما أقام المصنع فوق أعلى بقعة منه « مسلة » شاهقة تضاء ليلا فتبدو متوهجة كجمرة من نار ، وذلك بغرض هداية الطائرات



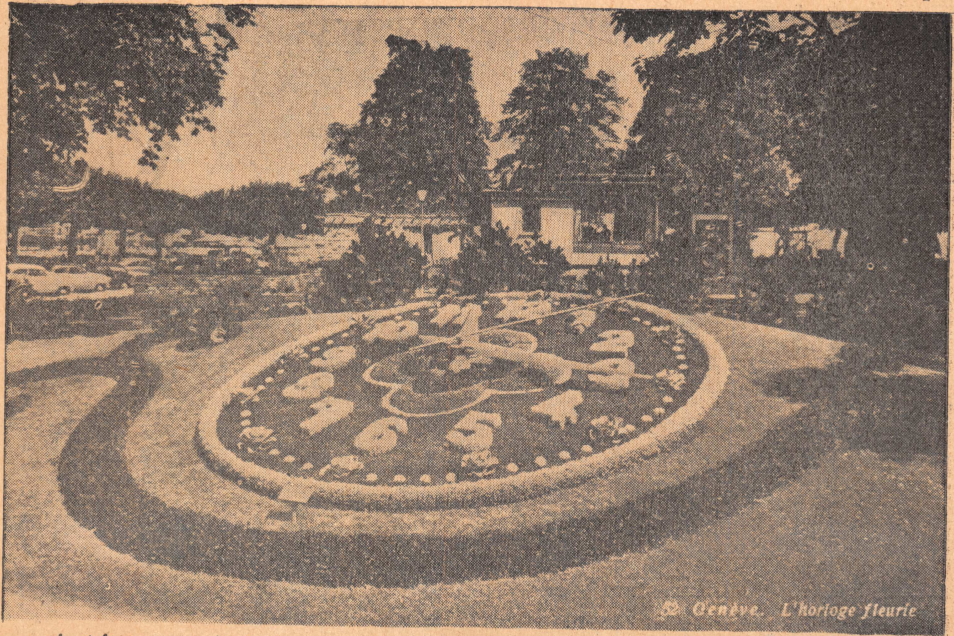
رغم انقضاء ١٣ سنة على انتهاء الحرب ، فما تزال برلين مليئة بالانقاض فى كثير من أحيائها . أما الاحياء التى أعيد تشييد مبانيها ، فهى تفخر اليوم بمثل هذه العمارة السكنية الضخمة التى تتألف من نحو ألف شقة ، وبها مكتب بريد وتليفون ، وعيادة طبية خاصة بسكانها !



محطة (زيوريخ) الأنيقة ، تتألق تحت الشمس الساطعة والمطر ، في وقت واحد !

والسفن وارشادها الى سبيلها اذا ما حل الظلام .

والى جانب البيرة ، ينتج المصنع أنواعا مختلفة من عصير الفواكه ، كالتفاح والبرتقال والليمون و « الجريب فروت » .. وتسير جميع العمليات فى المصنع بطريقة آلية ، حتى تعبئة



ساعة جنيف المشهورة التى « زرعت » أرقامها بالحشائش والأزهار فى احدى المتنزهات ، وقد وضعت الآلة التى تحركها فى الغرفة التى تبدو فى الخلف

الزجاجات فى صناديق ونقل الصناديق الى « أسانسيرات » خاصة تنقلها بدورها الى عربات السكك الحديدية الخاصة بالمصنع والتى تملأ بالصناديق فى حظيرة خاصة من حظائر المصنع ـ هى فى الواقع محطة سكة حديد خاصة !ـ ثم تخرج من الحظيرة على قضبان توصلها مباشرة الى محطة السكة الحديدية « العامة » ، حيث تلحق ـ كما هى ـ بالقطارات المتجهة الى مختلف البلاد !

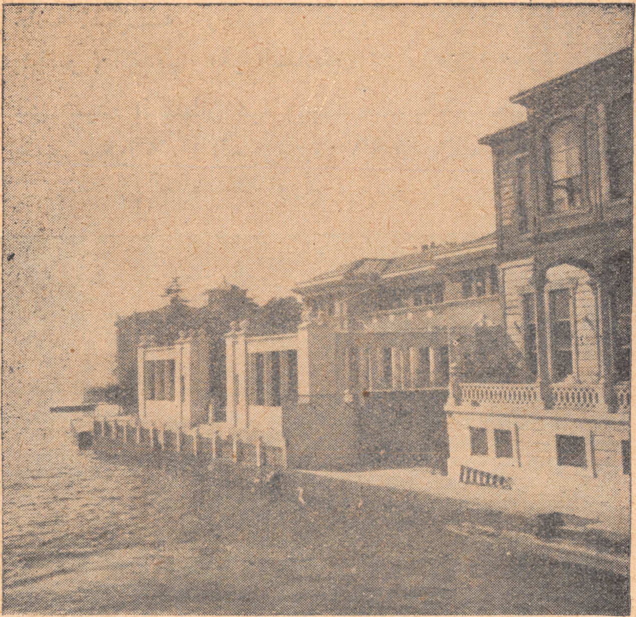
ولما كانت صناعة البيرة تتطلب تخزين الخميرة السائلة لبضعة شهور قبل أن تصبح صالحة للدخول فى مرحلتها التالية، فقد أنشىء فى المصنع ١٠٦٠ خزانا ضخما (كخزانات المياه التى تزود المدن بالماء) تتسع لتخزين كمية تكفى لملء مائة مليون زجاجة ! .. وجميع هذه الخزانات موضوعة فى باطن الأرض ، ومكيفة البرودة بدرجة خاصة تتطلبها العملية .

ومن ألطف المجاملات التى أبداها القوم نحوى حين زرت المصنع ، اننى لم أكد أنتهى من جولتى فيه ، **حتى فوجئت برؤية علم الجمهورية العربية المتحدة ـ (العلم الجديد ،وليس العلم المصرى القديم) ـ مرفوعا الى جانب العلم الدنمركى ،أمام باب الخروج** .. رغم أننى لم أخطر المصنع بزيارتى مقدما ، وانما توجهت اليه وأبديت رغبتى فى رؤيته ، أى أن التفكير فى هذه المجاملة اللطيفة وتنفيذها لم يتطلب أكثر من ساعة واحدة هى التى استغرقتها جولتى فى أنحاء المصنع !

المدينة التى غيرت مجرى التاريخ !

• **والآن** ، ما رأيك فى جولة على ضفاف البوسفور ؟

لم أكد أصل الى (اسطنبول) ، حتى وجدت نفسى حائرا بين نحو عشرة برامج أود أن أنفذها فى هذه المدينة ذات التاريخ



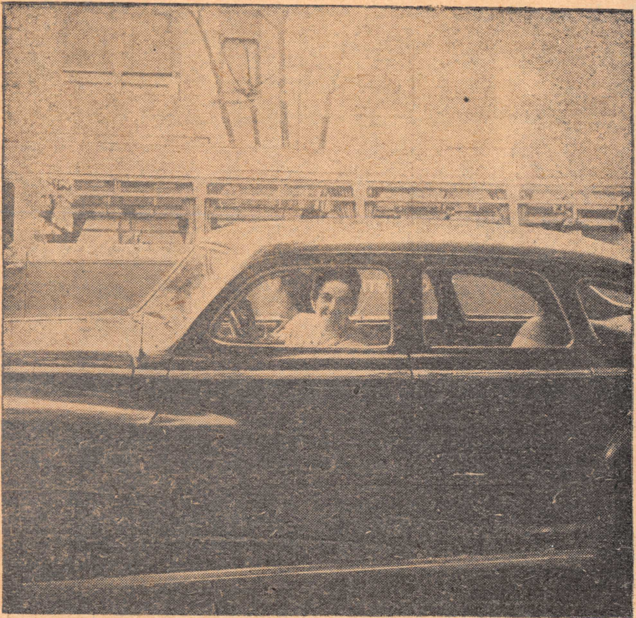
قصر الامبراطورة السابقة « فوزية » ، على ضفاف البوسفور

الحافل بالأحداث .. ذلك بالاضافة الى رغبتى فى مقابلة الأديبة التركية القديرة « مبرورة سامى » التى كنت قد قرأت لها ـ قبل سفرى من مصر ـ قصتها الطويلة الرائعة : « تحت ظلال الليلا » فأردت انتهاز فرصة زيارتى لاسطنبول لمقابلتها والتفاهم معها على نشرها فى (مطبوعات كتابى) ـ وقد تم نشرها فيها بالفعل منذ أسابيع .

٠٠ أما من معالم المدينة ذاتها ، فكان فى برنامجى أن أزور كل ما له أهميـــة تاريخية أو أدبيـة ٠٠ أى أن أزور : قصر (سراجليو) القديم ، مقر السلاطين ٠٠ وقصر (ضولمة بغجه) – الذى شيده السلطان عبد المجيد منذ نحو مائة عام ، ومات فى احدى حجراته ، (الحجرة رقم ٧١) ، زعيم تركيا الحديثة الغازى مصطفى كمال « أتاتورك » ، فى ١٠ نوفمبر ســنة



من المناظر التقليدية فى اسطنبول مثل هـذا الشـارع المنحدر ٠٠ وهناك شوارع أشد منه انحدارا بكثير !



المرأة التركية العصرية تقود سيارتها فى أحد شوارع اسطنبول

١٩٣٨ .. ثم كان أمامى أن أزور (الجامع الازرق) - المسجد الوحيد فى العالم ذا المنائر الست ! - ثم مسجد أيا صوفيا ، (أو كنيسة القديسة صوفيا قبل الفتح الاسلامى) .. ومسلة « تيودوسيوس » ، وعامود قسطنطين ، ومساجد السلاطين : سليمان ، وأحمد ، وسليم ، وبايزيد .. ثم شواطىء البوسفور ، والقرن الذهبى ، **ومقهى « بيير لوتى » - حيث اعتاد الأديب الفرنسى الكبير أن يجلس ليكتب ويستلهم الوحى**

.. وفى ذلك المقهى كتب قصصه الخالدة ذات الجو التركى الساحر . (ومن العجيب أن المقهى المذكور يقع فوق قمة تل تكسو سفحه المقابر بحيث لا يرى الصاعد اليه عن يمينه ويساره طوال الطريق الى القمة سوى مئات متراصة من شواهد القبور ، وهو جو لا يلهم فى نظرى وحيا ، ولا يحزنون !)

ثم كانت هناك رحلة الى البحر الأسود ، والى قلعة (روميلى حصار) ، وبحر مرمرة ، وجزائر الامراء (الشبيهة بجزيرة كابرى) ، وبوابة أدرنة ، والأسواق الشرقية (البازار) ، .. وجولة فى آسيا الصغرى ، فى (سكوتارى) وتل « تشامليوجا » .. ثم زيارة لقنطرة « جالاتا » وقصر « يلدز » المشهور .. الخ .

وهكذا ترى أن اسطنبول غنية بالبرامج السياحية ، بحيث تحتاج الى زيارة طويلة بمفردها . ولكن ، فلأحاول الانتفاع باقامتى القصيرة فيها كى أرى أكثر ما يمكن رؤيته فيها ..

والى العدد القادم كى أروى لك قصة من (اسطنبول) .. ثم نتابع جولتنا هذه فى البلاد الأخرى ، فأقدم لك « من كل بلد ، قصة » .

كتابى يقفز قفزته الضخمة

فيستهل عامه الثامن بعدد ممتاز فاخر يتفوق على جميع أعداده السابقة

زيادة فى الصفحات ـ أبواب جديدة

أقلام جديدة ـ طباعة جديدة ..

ويخطو خطوة جديدة فى خدمة الثقافة ، فيفسح صدره وصفحاته للباب الذى يتطلع اليه القارىء العربى منذ زمن طويل :

النقد الادبى

للكتب العربية الحديثة ، القصصية وغير القصصية ، وفيه يتابع كبار النقاد ـ بالتحليل والنقد النزيه ـ احدث ثمرات المطابع من الانتاج الادبى فى جميع البلاد العربية ..

أدب السينما والمسرح

.. كما يفسح « كتابى » صفحاته لكاتب كبير ينقد لك الانتاج السينمائى والمسرحى والفنى ، العربى والاجنبى ، بصراحة ونزاهة مجردة من جميع الاعتبارات والاهواء !

ميزان أمين يرفعه « كتابى » فى العالم العربى للانتاج الادبى والفنى .. ليساهم به فى خدمة الثقافة ، على وانجلترا .

وعلاوة على هذه الابواب يقدم لك كتابى :

اقرا معى

((مجلة)) جديدة يضيفها الى صفحاته ، يقدم لك فيها مقتطفات سريعة من أمتع المواد الثقافية التى تنشرها صحف العالم ومجلاته وكتبه ، أولا بأول .

وأبواب أخرى جديدة

يفاجئك بها العدد القادم من كتابى ، فى مستهل العام الثامن من كفاحه الادبى .

بالاضافة الى ((جميع)) أبواب كتابى المألوفة التى تعشقها

عدد ممتاز فاخر – ٣٢ صفحة اضافية

الثمن ١٢ قرشا

هناك عشرات من المجلات الشهرية تقدم الروايات العالمية مختصرة ، بتصرف ..

ولكن ليس فى العالم العربى غير سلسلة واحدة تقدم للقارىء الترجمة الكاملة الامينة لشوامخ الكتب العالمية .. وهذه السلسلة هى :

((مطبوعات كتابى))

ترقب عددها القادم ، الذى يتضمن القصة الجبارة :

القلعـــة



خاتمة القصة!
قصة سورية بقلم:
محمد النجار

عرفنى اليه أحد الأصدقاء ، فى ليلة ساهرة بفندق أمية ، بأنه شاب بوهيمى، يتمتع بقسط وافر من الدماثة والظرف . ولما لاحت فرصة ثانية ، همس بأذنى كلمات أدركت منها أن حياة ذلك الشاب ذات معين لا ينضب ، سواء فى ميدان الفنون والادب ، أو فى سوق الغزل والعبث ..

وكأن الصديق فطن الى مناورتى حين رآنى أحوم حوله لالتقاط أطرف المعلومات عن حياته الخاصة ، فالتوى يرسلها فى الهواء ضحكات صاخبة مغموسة بالتندر . وهتف بشىء من التهكم : « الصيد لذيذ حقا فى هذه البقعة ، ولكن هيهات .. فحولها سور من الفولاذ ! » .. **أراد أن يرمز الى أنه ليس كغيره ممن تنكشف أسرارهم بيسر وسهولة ، فليس فى وسع أى كان أن يظفر منه الا بالفضلات التى يجود بها بين حين وآخر .**

وقد حاولت أن أعجم عوده ، فانطلقت أخطب وده واعاشره ، واذا به ليس باللقمة الهينة الابتلاع ، فهو شديد الحذر، بعيد الغور .. وقد عاتبته ـ فيما بعد ـ على تحفظه هذا ، فتراقصت على شفتيه ابتسامة هادئة ، وقال : « لا يسوؤنى أن أتراءى للناس هكذا ، فمن الخير ألا يطلق المرء لسانه الا فى الساعة التى يأمن فيها الانزلاق ، وتحت شروط قاسية . ألم يقل الحكماء أن البلاء موكل بالمنطق ؟ وبالتالى فالحياة كلها فى مذهبى سلسلة أحابيل . لقد تمكنت ـ وأنا الذى لا أجدنى اكثر من انسان ساذج ـ من أن أستنبط أحكاما غاية فى الخطورة ، من ألفاظ تافهة وحركات بسيطة لم يدخل فى حساب فاعلها أن أفيد منها شيئا ، فما بالك فيمن أوتى الكثير من الحذق والفراسة ؟ ..

« أراني شططت عما أنا فى سبيله من أسباب تحفظى

واحتراسى ، وفاتنى أن أذكر لك طرفا عما لسلوك المرء من أثر فى تقرير مصائره . واذن فدعنى أذكر لك هذا الحادث الطريف الذى تتمثل فيه السياسة الرشيدة والاسلوب الرشيق المهذب:

كان ذلك فى عام ١٩٣٥ ، حين كان المعرض يعج بالزوار من مختلف الاقطار والامصار ، وشوارع (القاهرة) تزخر وتموج بألوان من الوجوه والازياء . ولست اذكر كيف قادتنى قدماى ، فوقفت على رصيف المحطة ، فى (العتبة الخضراء) ، أنتظر القطار رقم (١٣) . والظاهر أن القطار أبطأ . وصادف — أثناء ذلك — ان وقف الى جانبى رجل نحيل الجسم ، منفوش الشعر ، أنيق الثياب ، يتأبط حزمة ملفوفة باتقان . فاستدرت نحوه وسـألته بأدب ونعومة ، وباللهجة المصرية : « بقى يا حضرة ، ازاى القطر تلطعشر ما جاش ؟ ! » ..

« يا لغضب الله المنهمر ! .. أربد وجهه ، وقطب جبينه ، وزعق بحدة : « ماعرفش ! » . وليته اكتفى بهذا ، بل راح يرمقنى بنظرات بغيضة ، من تحت لفوق ومن فوق الى تحت . والحق لقد انكمشت نفسى ، ورحت أتساءل : ما عسانى أذنبت ، وما عسى قد انطوى عليه سؤالى من حرج .. وبينا أنا فى هذا الجو الثقيل ، اذا به يهتف ويلوح بتقريع وشدة : « أهو القطر جاى .. لازم نوبة تانية لما تسأل حاجة قول : من فضلك » ! .. وكان الدرس قاسيا شديد الوطأة على نفسى . ومع هذا تجملت بالصبر وسلكت سـبيل الروية والتمست لطيف العبارات وظريف الاعتذارات . وتقدمت منه ناشـدا رفقه بغريب لم يألف العادات الرفيعة المهذبة « دى » الا بالقدر الذى تمليه عليه فطرته الساذجة البسيطة ..

« ولذ له هذا الاسلوب الدمث فما أسرع ما انحلت العقدة .. **ورافقنى الى المكان الذى أقصده ، وأبى الا أن يكون اكرم منى ، فدفع أجر القطار . بل أقبل فى اليوم التالى بسيارته يدعونى الى قصره الفخم فى الجيزة . واذا به من كبـار الاعيـان ..**

وقد اقسم ليجعلن نفقاتي كلها على حسابه ما دمت في القاهرة ..

« بربك قل لى ، ماذا كنت أربح لو لبيت نداء الغرور والحماقة ، وأوسعت مكانا للشر والشجار ! .. لنردد معا قول القائل : لا يبلغ الاحمق من غيره بقدر ما يبلغ من نفسه ! »

وهكذا بعد بى الشاب البوهيمى عن بغيتى ، ولم يذكر لى أسباب تحفظه .

* * *

وتتساقط الايام كأوراق الخريف ، واذا بى فى ربيع عام ١٩٤١ ألمح ذلك الشاب البوهيمى فى عرض أحد شوارع (دمشق) الكبيرة ، وقد ذوى جماله وانهارت قسامته وذاب نشاطه فى هموم الدنيا .. وتطارحنا الذكريات الماضية ، وتصافحنا بجذل ، وتأبطت ذراعه ومشينا حيث استلقينا على أحد المقاعد الخشبية المستطيلة المبثوثة على طول رصيف الشارع . وسألنى بلهفة عن العمل الذى أمارسه ، فقلت بشيء من المرح : « أضرب فى الارض لاستخرج مادة زعموا أنها قصص ! » . فضحك وقال مازحا : « بل قل يا عفريت انك تصطنع الصحافة !.. انها مهنة خصبة وخطرة بوقت واحد ، لكنها فاتنة حين يجود الالهام .. وعربونا لمودتى سأتخلى عن تحفظى اليوم ، وأمدك بقصة من صميم الواقع :

« **اسمع ! .. كنت منذ عشر سنوات عزبا ، أقفز على الاغصان ، وأغرد على الافنان ، وأنعم بصحة جيدة وحياة هنيئة** . وكان همى الوحيد وقتئذ ينحصر فى التفتيش عن دار صغيرة تكون فى معزل عن عيون الفضوليين ..

« وفتح الله على بدار فى منعطف ضيق ، لا نوافذ تطل عليها ، اللهم الا المقابل لبابى ، والثالث فى الصدر . فنقلت الاثاث ، ونظمت شأنى ، وتوقعت الطمأنينة التامة فى هذا العش المتواضع ، وانى سوف أذوق أطيب الثمار واقطف اجمل الورود ، دون ان تلاحقني او تمسني الالسن الخبيثة ..



« وانطوى اليوم الاول .. فالخامس .. فالتاسع ، والامور تبدو كأنها تسير سيرا شائقا مطردا . **لكنني – في اليوم العاشر – شعرت بالريح تهب من اتجاه غير منتظر ، ولحظت الموقف يميل نحو التعقيد ، والفساد يوشك أن يدب الى ترتيباتي كلها** .. وقلقت لهذه الازمة ، ولكن ماحيلتي وصاحب الدار قد تناول الاجر عن سنة كاملة ، وليس في مقدوري تدارك المال للرحيل مرة أخرى . وانك لتحب أن تفهم مبعث هذا الهم الطارىء ، الذي جعلني أتطير وأحسب له ألف حساب .. **ذلك ان الباب القائم في صدر المنعطف ، أخذ ينفرج – يوما بعد يوم – عن عينين ترقبان حركاتي وسكناتي .** وزاد الطين بلة تلك الصغيرة التي شرعت تمرح حول دكة خشبية أقيمت خارج الدار . وبدأت أسمع صوتا نسائيا ينادي من خلف الباب: « وداد ، وداد .. مكانك لاتبرحيه !» . وفي مرة ثانية ، سمعتها تتوعد الصغيرة بأن تشكوها الى «عمو» !

.. وعلم الله أنني أدركت الغرض من كلمة « عمو » و « خالو » التي لم تفرغ في هذا الاطار عبثا واعتباطا .. ولكن ، ما الحيلة وخططي المرسومة تقضي باجتناب أية صلة مريبة مع الجيران ؟ .. ولعل انشاء علاقات غير بريئة كان آخر سهم أفكر في رميه . وأعترف بأن هذا التصرف من جانبي ليس مرده العفة والحرمة لقدسية الجوار ! .. كلا ، وانما هو الحرص على اتقاء المشاكل والفضائح . **فاذا أنت بادلت جارتك لونا جريئا من**

المغازلة والمعابثة ، فكأنك تخليت بمحض ارادتك عن حريتك ، وارتضيت الاسر والاغلال !

« من هنا كان الهم ، ومن هنا نشأت الازمة . ومع ذلك فقد حاولت أن أجرب بوسائلى المحدودة تحويل فكر جارتى بالحسنى الى الاحسان . وصرت حين أهم بدخول المنعطف أسعل وأهتف أحيانا : « يا الله ! » . واغض البصر لاعرب عن احترامى لآداب الجوار .

* * *

« ولا أنكر أن النفس حدثتنى ـ أكثر من مرة ـ ان اختلس النظر الى جارتى من نافذة مهجورة عالية ، تطل على صحن دارها . فكنت أقمع هذه الفكرة .. ولكنى ـ فى ذلك النهار ـ طفت على موجة عاتية من الفضول . وما أهون ما يخترع الانسان لنفسه المبررات ! .. فقد قلت فى نفسى أنى أكون صورة عن ملامحها ومنزلها ، لا أكثر .. فأى أذى يتأتى من ذلك ؟ .. ولما تطلعت من النافذة ، كانت مضطجعة تداعب الصغيرة فى الايوان . ولما نهضت تختال ، لم أتمالك أن قلت : « سبحان الخلاق العظيم ! » .. سبيكة وضيئة ، عينان شهلاوان ، جسم ملفوف ، موجة من الذهب تتكسر على رأسها .. لا تزيد عن العشرين . ويا حيف ! .. لو لم تكن قامتها أميل الى القصر ، لأزرت بملكات الجمال !

« **يا لوعتى ! .. الحق أنها استهوتنى ، فتمنيت لو أن لى معها شأنا . ولكن سحقا لتلك الخطط المرسومة التى تقف أبدا فى طريق نزعاتى العارمة ! ..** نعم تغلبت تلك الخطط على نفسى فى كل مرة ، ولم تبح قط الاستمتاع بدقائق لتعدى متاعب لا سبيل لتحديدها .. اذن اشتهيتها من جانب ، وخشيتها من جانب ، وخشيت المشاكل من جوانب . وبعد موازنة رجحت كفة التزام جانب اللطف والادب . لكنك سترى

أن الظروف أكرهتنى على التماس السبيل الآخر !

« ذلك أنها سألتنى فيما بعد ، ومن وراء فرجة الباب ، وحين كنت أجتاز الممر ، بنغمة عذبة حلوة : « هل أذن العصر ياجارنا ؟ » . فقلت : « نعم » . وهبطت عتبة المنزل وتواريت .. ثم بعد يومين ، التمست نفس المركز والوضع ، وذكرت أن سيدتين قرعتا بابى . وشرعت تسترسل فى ذكر تكوينهما وملابسهما وانهما انصرفتا متبرمتين .. **يا للداهية الدهماء ! .. اغتظت لهذا الوصف ، واغتظت من هذه الرقابة الدقيقة . غير أنى تماسكت وقلت : « شكراً لك يا سيدتى ، فهما على الارجح بنتا خالتى ! » . فردت بلهجة المتحدى العارف : « لا اظن ، لا أظن » ! ..**

« حركات ، سؤال ، لفت نظر .. كلها محاولات فهمت معناها على الضبط . لكنى ما زلت حريصا على التقيد بالخطط الموضوعة ..

« وعلى أثر هذه الحركات والمناورات ، أفقت ذات صباح على قرع شديد ، فهرعت نحو الباب ، واذا بى أمام رجل معتدل القامة ، نظيف الثياب ، خفيف اللحية ، فى نحو العقد الخامس من العمر .. كنت قد أبصرته فى أمسية يعالج الباب الذى فى صدر المنعطف بمفتاح ، ثم يدخل ، فقدرت أنه سيد المنزل . وعلى هذا استقبلته ببشاشة ، ودعوته أن يشرف منزلى ، لكنه وقف برهـة يدقق بتكوينى ، وعيناه تشعان ببريق خاطف . وأخيرا قال بلهجة عنيفة : « افهم يا جارنا أن هذه حارة شريفة ! » . قلت : « لعلك غلطان يا سيدى ، فتفضل لنتفاهم ! » . فأردف قائلا : « كلا ، أنا لا أغلط . والذين يرون الداخلات والخارجات لايغلطون . وحسبك الآن هذا الانذار ! » .. وانسحب دون أن يأذن بكلمة دفاع !

* * *

« يا له من صباح اسـود ! .. تعكر نهارى كله ، وغدوت

لا ارى حولى الا اشباحا من الجن والابالسة تتضاحك وتتغامز على !.. وغمرنى الليل أخيرا بجوكله افتراضات وتخمينات . وكانت غفوة استيقظت منها على فكرة ارتاح لهـا بالى : ذلك أننى تزودت من السوق ـ فى اليوم التالى ـ بسلة من الورق حشوتها بأنواع الفاكهة والسكاكر (الحلوى) . **ولما وصلت الى المنعطف، رأيت الصغيرة تلعب كعادتها ، وأمها تناغيها مرة ، وترعد مرة . ورحت أداعب الصغيرة وأقبلها ، ثم وضعت السلة على مقربة منها ، ورجعت خطوتين حيث لفنى المنزل بوشاحه الساكن الهادىء ..**

« وصرت بين يوم وآخر أختلف الى الصغيرة بمثل هذه المداعبات البريئة والهـدايا اللطيفة . وهذا كله على مرأى ومسمع من الام . ويلوح أن نفسها طابت ، فراق لها هـذا الاسلوب المحبب . لكنها لم تشأ اصطناع الخفة ، ولم تجد من الحكمة أن تطمعنى برفقها وليونتها رأسا ، لئلا تثير الشبهات . لذلك خرجت من صمتها بالحوار التالى :

ـ أرجوك يا جارنا ألا تكلف نفسك !

ـ انى مولع بالصغيرة يا سيدتى ، وما اجدنى قادرا على طاعتك ، لا سيما وقد تغلغل حبها فى صميم مشاعرى ، ولا حيلة فى دفع هذا كله !

ـ أرجوك مرة أخرى أن تقطع هداياك على الاقل ، لانهـا تزداد تعلقا بك !

« فتكلفت الكآبة والاسى ، وقلت بنغمة حزينة : « رحماك اللهم ، ما كنت أتصور القسوة فى بعض الناس تبلغ هذا الحد . أفيسرك يا سيدتى حرمانى من هذه المتعة الطاهرة ، وأنا الذى تظاهرت عليه الاشجان ، وسدت بوجهه الابواب ؟ .. عزيز على أن أخضع لهذه الرغبة يا سيدتى ! » .. فقالت بعذوبة وقد تهدج صوتها : « يا مسكين ! .. ولكن ، ما يمنعك من ان تصـبح أبا ، فتغدق على طفلك ما يحلو لك من حدب

وحنان ؟ »

ـ أعذري يا سيدتي جريحا لم تلتئم جراحه بعد !

ـ يا حرام ، يبدو انك معذب في حياتك !

ـ .. واني لخليق بالرأفة والشفقة !

ـ لقد قطعت قلبي .. ولكن ، ما معنى تردد طائفة من النساء الى منزلك ؟



ـ آه ، لو كنت تدرين .. وبالتالي ، هل خلق الانسان من الحائط ؟

ـ ان أمرك لغريب !

ـ .. واذا وقفت على التفصيلات تجلى لك ما هو أغرب ! .. وكم أوثر لو تهيأ لي أن أودعك اشجاني واسراري ، وابوح لك بما خفي من احوالي ، لولا خوفي من ان نباغت ونحن في غمرة الحديث ونجواه ، فنغدو موضع الاتهام .. **واني لاحس احساسا قويا بطيبة قلبك ، ولماعة ذكائك ، وانك جديرة بالثقة ، أمينة على الاسرار . وفي ظني انك تبادلينني نفس الروح ، وتنظرين الي ـ منذ اليوم ـ كأخ يرضى لرضاك ، ويغضب لغضبك ..**

ـ .. وأعز من اخ ان شاء الله !

« قلت بصوت خافت : « اذن ، سأنتظرك الآن في المنزل ، لابوح لك بقضية هامة سرية ، تهمني نصائحك وملاحظاتك حولها . وسأدع الباب مفتوحا ! » .. قالت : « لكن .. » .

وغمغمت بكلمات تلاشت مع الهواء ، ورجعت برشاقة قبل أى اعتذار أو مماطلة ..

« **وحياة عيونك العسلية ، ما دار من الزمن ساعة واحدة ، واذا بها تدفع الباب ، وتدخل وهى فى غاية من الاناقة ، وقد عبقت منها رائحة زكية ..** واستقبلتها باحتشام زائد ، ولم أحاول أن أحسر عن وجهها ذلك النقاب الشفاف الذى كان يزيد فى جمالها .. وفيما كنت أعرب لها عن شكرى لهذه الثقة ، تلفتت حولها ــ كمن أفاق من حلم ــ وقالت بجزع مشوب بالخجل : « ويحى ! ماذا فعلت بنفسى ، وكيف أبحت الانفراد بك ؟ .. يا ويلتى ، ماذا ستقول عنى ؟ ! .. مهما يكن فانى مصغية لما ترغب فى أن تفضى به الى ، شريطة أن توجز ، فالوقت ضيق ! » .. ولما رحت أعلق واحتج على هذه المقدمة القاسية ، انطلقت تنتحب وتزعم انى خدعتها . فتكهربت لكلمة الخداع ، ولوحت لها بأن فى وسعها أن تعود من حيث أتت ، وانى أخطأت الحساب . فقالت وقد أثر فيها موقفى الحازم : « يا لك من عنيد ! .. أتريد أن أذهب ولا تستشيرنى ؟ ! »

« وكانت جلسة ، ومناجاة ، وساعة من أهنأ الساعات ! ..

* * *

« **ومر** يوم ، فآخر .. وفى صباح اليوم الثالث ، سمعت قرعا لطيفا على الباب . واذا صاحبنا أبو الصغيرة يحيينى باشراق ، ويصافحنى بمودة وحرارة ، ويقول : « **ألا لعنة الله على كل مخبر سوء ! .. لقد حاولوا تشويه سمعتك ، وتلويث اخلاقك . لكن الحق أبلج ، وقد اتضح أنك من أنبل الناس واكرمهم جوارا .** فالله الله يا بنى ، فالجوهر جوهر فى كل آن ومكان .. اسمع يا ولدى ، أنت ابننا ، وبيتك بيتنا ، وأهلك أهلنا ! .. أمانة برقبتك : الذى تشتهيه من مأكل ومشرب

عليك أن تطلبه ونحن على استعداد لكل خدمة .. حتى ثيابك الوسخة ، عليك أن ترسلها فترتد اليك مطهرة مكوية . لقد أسأت اليك يا بنى فيمامضى ، لكنى علمت أخيرا عن حشمتك وكمالك كل شىء . **وان شابا مثلك يغض بصره حين يدخل ، وحين يخرج ، وينبه بالسعال وباسم الله ، لخليق بحبنـــا واكرامنا ! »** .. وغاب ثوانى معدودة ، ثم عاد وفى يمناه « جاط قطايف » (أى صفحة أو صينية قطايف) ، وفى يسراه « زبدية قطر » (أى اناء به سائل من معقود السكر) . وبصوت رفيق رقيق ، قال : « لا تؤاخذنا يا بنى على تقصيرنا ! » .. وعندما ودعتنى زوجته - عقب زيارتها الثانية - قالت بدلال : **« لا تذهب الى المطعم غدا .. وأبو وداد كفيل بالطعام ! »**

« الآن وقد انتهت القصة التى وعدتك بها ، فما رأيك فى هذه الخاتمة ، التى غيرت وضعى فى المنعطف ، وجعلت من الرقيبة .. عشيقة ؟

ثم تنهد محدثى البوهيمى ، فى حسرة ، وغمغم : « .. ولكن شباب العصفور الطليق قد ولى الآن ، وراح .. ولم يبق فى الجعبة غير الوحدة ، والوحشة .. والذكريات ! »

حوافز الحياة



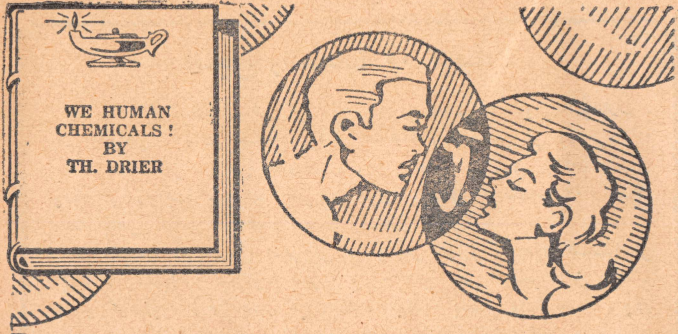
النفس والجنس .. والمجتمع ..

عزيزى القارىء ..

فى هذا الباب قدمت لك فى الأعداد الماضية ، الكتب الآتية على التوالى :

◆ كيف تصارح أولادك وبناتك بالحقائق الجنسية ◆ طريق السعادة الزوجية ◆ مركب النقص ◆ حواء الجديدة ◆ كيف تقهر الخجل ◆ كيف تقهر القلق وتستمتع بالحياة ◆ فنون الحياة : فن الحب ، فن الزواج ، فن الحياة العائلية ، فن الصداقة ، فن العمل ، فن الزعامة ، فن التفكير ، فن الاستمتاع بالشيخوخة ◆ غزو السعادة ◆ التحليل النفسى ◆ الجنس الآخر ◆ عش حياة ايجابية ◆ أبواب الحب المغلقة ◆ فن الحب (لاوفيد) ◆ الانتصار على الخوف ◆ عش بحكمة تعش سليما ◆ كيف تتجنب متاعب الاعصاب المرهقة ◆ كيف تفسر احلامك ◆ كن متفائلا ◆ تاريخ الغزل ◆ كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة ◆ أتح لعقلك حياة جديدة ◆ دنيا الحب والسعادة ◆ حب وجنس وخيانة ◆ السلوك الجنسى عند الرجل ◆ السلوك الجنسى عند المرأة ◆ فى بلاد العراة ◆ أضواء على الجنس ◆ على أعتاب شباب الكهولة .

واليوم .. نقدم لك كتابا جديدا تقرأه فى الصفحات التالية

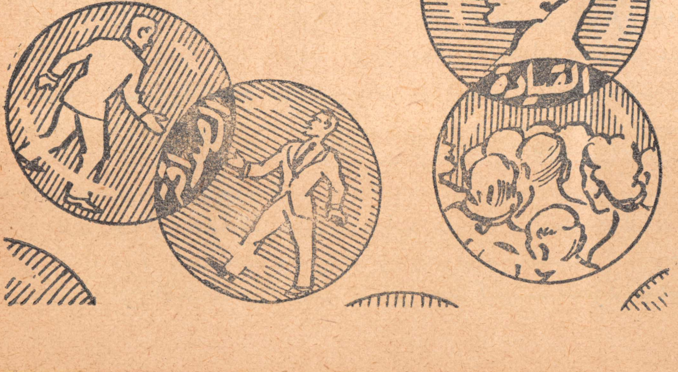


النجاح فى الحياة .. كيمياء !

بحث اجتماعى نفسى طريف

للكاتب الأمريكى : توماس دراير





النجاح والسعادة .. كيمياء !

قد يتشابه شخصان فى كل شىء .. فى الصفات ، وفى المؤهلات ، وفى الفرص ، ولكن النجاح يوالى أحدهما ، ويعرض عن الآخر !.. وقد تتشابه امرأتان فى الجمال ، وفى المواهب ، ولكن احداهما توفق فى زواجها ، بينما تمنى الأخرى بالفشل . فلماذا ؟.. لماذا يسعد بعض الناس فى هذه الحياة ويشقى آخرون ؟

ان الكاتب الاجتماعى الامريكى « توماس دراير » يعزو هذا الى وجود ما يسميه « كيمياوية بشرية » .. حتى نحن البشر – فى رأيه – عناصر كيمياوية ، قد ينجم عن اختلاط بعضها ببعض مادة نافعة ، وقد يتأتى عن الاختلاط انفجار .. وفى الحالة الأولى يكون النجاح والسعادة ، وفى الثانية الفشل والشقاء !

فتعال نقرأ معا هذا العرض الطريف الذى نلخصه لك عن كتاب : « نحن البشر عناصر كيمياوية » ، لذلك الكاتب .. ان العنوان يوحى بأنه كتاب علمى ، ولكنه – فى الواقع – بعيد عن علم الكيمياء ، فهو مرشد اجتماعى ونفسى يهديك الى سبل التوفيق فى الحياة .

• **لماذا** يؤتى بعض الناس مقدرة على احراز النجاح فى الاعمال والمهن ، بينما يخفق سواهم ممن أوتوا عين الميزات والصفات فلا يقدرون على احراز هذا النجاح ؟ .. ولماذا يوفق بعض الناس فى حياتهم كآباء أو أزواج ، بينما يعجز آخرون – يماثلونهم فى كل شىء – عن الوصول الى هذه السعادة العائلية ؟ .. ولماذا نرى بعض النساء قادرات على احراز الهناء والنجاح – كزوجات أو أمهات أو مدرسات أو عاملات فى ميادين المجتمع – ونرى غيرهن ممن لا ينقصهن الذكاء والفطنة والثقافة العقلية عاجزات عن الاستمتاع بهذه السعادة وهذا النجاح ؟

لقد حيرنى هذا السؤال سنوات عديدة ، كما حيرك أنت الآخر – ولا شك – وحير غيرى وغيرك من الناس . وقد انتهيت الى الاعتقاد بأن الامر – الى حد كبير – مجرد **كيمياء**

بشرية !.. أجل، انالسر فى ذلكيرجع الى أن الانسان عنصر « كيمياوى » ، وأن « بعض » الرجال والنساء خليط كيمياوى « طبيعى » ، فى حين ان سواهم خليط « غير طبيعى » ! ..
فالذين يعرفون كيف يستخدمون عناصرهم الكيمياويه البشرية ، يتفوقون على غيرهم ويعرفون كيف يرتفعون بشخصياتهم ويحرزون السعادة والمجد .. أما الذين لا يجيدون استخدام هذه الكيمياوية البشرية ، فيصعب عليهم أن يتقدموا غيرهم من الناس ، وأن يساهموا فى أحراز النجاح والسعادة !

ولا شك فى أن الانسان الذى أخفق فى ارتقاء سلم الحياة يستطيع بالتمرس فى معرفة الكيمياوية الانسانية أن يتغلب على هذا النقص ، فيكتسب قوة وارادة ليبدأ من جديد فى تكوين مستقبله السعيد .. كما أن الناجح يستطيع بالتمرس أن يضاعف من تفوقه !

الحياة تتطلب براعة فى مزج الشخصيات

• **وقواعد** معرفة هذه الكيمياوية البشرية سهلة هينة ، ليس فيها تعقيد ولا غموض : ان علم الكيمياء الحديث يقول أن الكيمياوى يعرف ستة وتسعين عنصرا كيمياويا ، يستطيع من يؤتى براعة فى تركيبها وخلطها خلطا جيدا ، أن ينتج الاطعمة والاشربة ، والادوية ، والعطور، والانسجة ، والسموم ، والمتفجرات ، وكافة المواد اللازمة للانسان . **فان الكيمياوى يملك أن يجعل معمله مركزا لانتاج طاقة هائلة من ابتكاره وصنع يده ، ولكن .. بشرط واحد : هو أن يكون قد أوتى البراعة فى خلط هذه العناصر بدقة واحكام ..** ذلك لانه اذا خلط أنواعا معينة من العناصر ، بكميات غير محدودة ، وبطريقة غير مدروسة ، قد ينتج مادة متفجرة تنسفه هو ومعمله وتمزقهما شر ممزق !

وهكذا الحال مع الناس ! .. فكل انسان منا بمثابة كيمياوي ، غير أن بعضنا أوتي حذقا فى خلط العناصر خلطا

مفيدا ، فى حين أن بعضا آخر يروح ضحية الانفجار ! .. ذلك لانك حين تمزج كيمياوية بعض الناس بكيمياوية بعض آخر ، تنشأ عن ذلك احدى نتيجتين : اما مركب كيمياوى « غير طبيعى » يحدث عنه انفجار ، أو مركب كيمياوى « طبيعى » ذو نفع وفائدة .. ومن ثم نجد النفور يدب بين شخصيتين معينتين اذا اختلطتا ، ولكنه لا يدب اذا اختلط كل منهما بشخص غير صاحبه !

ونستطيع أن نستنتج من كل هذا أن الانسان اذا تعلم كيف يخلط الشخصيات التى يختارها خلطاً محكما ، فانه يستطيع ان يتجنب الانفجار ، وأن ينتج علاقات ذات قيمة وفائدة . ومعنى هذا أن كل واحد منا يستطيع أن يتعلم كيف يكون كيمياويا بارعا من الناحية الانسانية ، عندما يستعمل أدراكه فى معرفة العناصر الكيمياوية التى يتركب منها كل انسان من هؤلاء الذين يختلط بهم أو يعيش بينهم ! .. ففى وسع كل منا أن يتعرف على طبيعة الناس الذين درس أخلاقهم وشخصياتهم بحكم اختلاطه بهم ، ومن ثم يعين العناصر الكيمياوية التى يتركبون منها ، ثم يبتكر طريقة بارعة يخلط بها هذه العناصر ليحقق ما يريد !

ولا شك فى أن مراقبة تصرف كل انسان بعين مفكرة ، تساعد على تعيين تركيبه الكيمياوى .. لا سيما اذا كانت هذه المراقبة فى حالات الغضب والفرح وغيرها من الانفعالات العاطفية التى تكشف الانسان على حقيقته .. فلو انك أمعنت التأمل فى تصرفات الآخرين أثناء انفعالاتهم ، لرأيت أن كل انسان يؤلف مركبا كيمياويا يختلف عن المركب الذى يتألف منه انسان آخر .. **وكل واحد منا يمارس هذه الدراسة الكيمياوية فى كل ساعة وفى كل وقت ، اذ أن كل حالة من الحالات التى يصادفها تؤلف مادة صالحة لهذه الدراسة ..** فسواء كنت من المشتغلين بالسياسة ، او الاعمال الادارية ،

او الصحافة ، أو كنت تعمل فى أحد المرافق العامة – أو فى أى منصب يجعلك على اتصال بالجماهير – ففى وسعك أن تتجنب حالات الغضب والتذمر اذا عرفت كيف تتصرف مع الناس على ضوء التحليل الكيمياوى الانسانى . اذ أن هذا التحليل يساعدك على التحكم فى سلوكك نحوهم .

وهذا هو سر النجاح فى كيفية خلط العناصر الكيمياوية الانسانية للوصول الى نتيجة طبيعية مفيدة ، لا يكتنفها التعقيد ، ولا تؤدى الى انفجار !

كيمياوية التعامل مع الناس

• **بعد** عام أو عامين من اكتشافى هذه الحقيقة ، سألت أحد الاطباء الذين يشتغلون بالعلوم النفسية ، عن معنى كلمة **«الشخصية»** .. وكم دهشت حين قال لى : **« ان الشخصية – بقدر ما أستطيع أن أفسرها – عبارة عن مركب «كيمياوى» ، فى شكل انسان »** !.. وقد كان هذا الجواب مصدقا للفكرة التى توصلت اليها ، فكثيرا ما كان يضايقنى أننى كنت أحب بعض الناس وأكره بعضا آخر ، وان بعض الناس كانوا يحبوننى ، فى حين أن هناك أناسا لم يكونوا ميالين الى صداقتى !.. وبعد أن بدأت فى دراسة « الكيمياوية البشرية » ، أدركت أن **الحب والكراهية نتيجتان لتفاعل كيمياوية الناس الذين أختلط بهم ، واننى اذا عرفت كيف أفرق بين هؤلاء الناس – كمركبات كيمياوية – وأعين أنواعهم ، استطعت أن اجدد العلاقات والصلات الشخصية بينى وبينهم بحيث تغدو مريحة لهم ولى !**

لماذا نحاول مثلا أن نبحث عن السعادة فى اختلاطنا بأشخاص يحدثون فى نفوسنا رد فعل كيمياوى غير مرغوب فيه ؟ .. من الحماقة أن نضيع وقتنا مع أشخاص لا نسعد معهم ، فى حين أن هناك كثيرين يؤدى اختلاطنا بهم الى مركبات كيمياوية متجانسة .. ذلك لان اختلاط المرء بأشخاص

يتناسقون معه فى التركيب الكيمياوى ، خليق بأن يؤدى الى صداقة وانسجام .. أما الذين تختلف عنهم فى تركيبك الكيمياوى ، فجدير بك أن تنصرف عنهم ، أو أن تدرس تركيبهم لتستبين المدى الذى تستطيع أن تذهب اليه فى اختلاطك بهم ، اذا لم يكن من هذا الاختلاط بد ! .. ومن الحكمة أن يكون الاختلاط — فى هذه الحال — على درجات ، وفى نطاق معين ، لتستطيع التحكم والسيطرة على ما قد ينشأ عنه من انفعالات !

ولو تعمقنا فى تأمل هذه الحقائق، لادركنا أن كل امرىء منا بائع ، يمارس البيع فى كل يوم من أيام حياته .. وهو قد لا يبيع سلعا ولاخدمات، ولكنه يبيع ذاته ويبيع أفكاره وتجاربه . **لذلك فنحن — سواء أردنا أو لم نرد — نستعمل البيع للوصول الى غاياتنا فى أعمالنا ، وفى حياتنا الاجتماعية ، وفى علاقتنا الشخصية ، بل وفى منازلنا أيضا !** .. ونحن نسمع الكثير عن أساليب البيع والشراء وطرق اغراء الناس واقناعهم بالتعامل معك كى تبيعهم ما تريد ، وكى يشتروا منك ماتبيع . والواقع أن هناك أشخاصا يكون الواحد منهم بائعا بالفطرة ، اذ أنهم خلقوا من تركيب كيمياوى يستطيع أن يؤثر على الآخرين ، فينتج رد الفعل الكيمياوى سريعا وبصورة طبيعية .. والبائع الماهر هو بائع آراء ، اذ أنه — فى بادىء الامر — لا يتكلم عن بضاعته ، وانما يتناول مشكلة عامة ، ليستدرج الشخص الآخر الى أن يشاركه الاهتمام بموضوع واحد . حتى اذا بلغ هذا الحد ، سعى رويدا الى الوصول الى غايته فى ترويج بضاعته . وهو يفعل ذلك بمهارة ودقة فى مزج موضوع المشكلة العامة التى أثارها ، بموضوع السلعة التى يبيعها ، مستخدما فى ذلك مقدرته الشخصية وبلاغته وقوة منطقه .. وهذه هى الطريقة التى يستخدمها البائع فى متجره ، والكاهن فى كنيسته ، والمرشح فى اجتماع ناخبيه ، كما

يستخدمها الموظف الذى يحتم عمله الاتصال بالناس .. **ومعنى هذا أن هناك أناسا خلقوا يتمتعون بالميزات التى تساعدهم على احداث «التفاعل» اللازم فى عقول الآخرين .** ولكن هذا لايعنى أن الآخرين لايستطيعون أن يكتسبوا هذه الميزات ، بل ان فى وسعهم ذلك . والسر فى ذلك هو أن يثق المرء بنفسه ، اذ أن الثقة بالنفس هى أساس النجاح .. وهى تعتمد على أن يكتشف المرء نفسه ويكتشف نفسيه الآخرين !

الزعامة وكيمياوية الانسان

• **ولا شك** فى أن العظماء المبرزين فى ميادين السياسة والاعمال ، هم من الكيمياويين الماهرين فى تحليل التركيب الانسانى . اذ أن فى وسع كل واحد منهم أن يحلل كيمياوية الاخرين ، وأن يمزج العناصر الكيمياوية المتوفرة لديهم ، ويستخدم كيمياويته الشخصية للوصول الى مراقى النجاح .. **فنجد رجل الاعمال أو السياسى المبرز يجمع حوله عددا كبيرا من الاعوان الذين تختلف كيمياويتهم الانسانيه بعضها عن بعض ، لينشىء منهم جهازا قويا يقوم بجلائل الاعمال ..** ولو أننا راجعنا تاريخ بلادنا (أمريكا) ، لوجدنا مثالا واضحا .. فان الرئيس « ابراهام لنكولن » كان من أقدر الناس على التعرف على الكيمياوية الانسانية ، اذ نجح فى مزج طبائع بشرية مختلفة، صاغ منها وحدة وطنية ذت امكانيات هائلة.

والواقع ان الذين يرقون الى مناصب الزعامة ليسوا كيمياويين بشريين فحسب، وليسوا ماهرين فى خلط العناصر الكيمياوية البشرية فقط ، **بل انهم أوتوا — كذلك — المقدرة على احداث تفاعل كيمياوى مفيد بين الآخرين — سواء كانوا أفرادا أو جماعات — دون أن يغيروا من انفسهم .** والذى يتأمل سير الزعماء والقادة ، يجد أن سر زعامتهم يتمثل فى أنهم لم يكونوا يطالبون سواهم بالكمال ، ولم يكونوا يطلبون

من الآخرين أن يفكروا ويشعروا ويتحدثوا بعين طريقتهم فى التفكير والشعور والحديث ، ولم يكونوا يشترطون فيهم اعتناق عين المبادىء السياسية والاجتماعية التى يعتنقونها هم ، وانما كانوا يهتمون بكفاءة الاشخاص الذين يجمعونهم حولهم ، من ناحية الثقافة والخبرة والمقدرة على العمل ، وما لديهم من ميزات شخصية .. وعندى أن هذه المقدرة – مقدرة احداث تفاعل كيمياوى مفيد بين الآخرين – هى أهم ميزات القائد الناجح والزعيم الموفق .

كيمياوية الانسان والسعادة الزوجية

• **وللكيمياء** البشرية دور كبير فيما يسود الحياة الزوجية لبعض الناس من هناء وانسجام ، وما يخيم على بيوت أناس آخرين من شقاق وخصام .. واليك أمثلة على ذلك :

عرفت يوما شابا كان كثير التنقل بين الفتيات ، الى أن التقى يوما بفتاة ، فلم تنقض أسابيع قلائل ، حتى تزوج منها .. فما السر فى هذا ؟ .. لقد سألته فكان جوابه : « الحق أنها ليست أجمل ممن عرفتهن من قبل ، **ولكنى شعرت – عندما ظهرت فى حياتى – بأننى أشبه بالبحار الذى طاف المحيطات الهائجة ، ثم وصل فى النهاية الى بر السلامة والامان .** ذلك لان فيها شيئا خلق فى نفسى شعورا بالطمأنينة ، والثقة بالنفس ، والاستقرار ، والهدوء » .. ولقد كانت هذه الفتاة بطيئة الخطوات ، هادئة ، لا تمتاز بشىء أخاذ .. الا أنها تعلمت كيف تكسب صداقة الآخرين .. فى حين أن الشاب كان سريع التفكير والعمل ، يحب الناس . وكان أكثر منها خبرة بالحياة وميلا الى المغامرة ، ولكنه – فى الوقت ذاته – كان يميل فى أعماقه الى الاستقرار والدعة . وقد انقضى على زواجهما خمس وثلاثون سنة تقريبا ، ولا يزالان يعيشان معا على السراء والضراء ، ويشتركان فى احراز التقدم والنجاح ..



فهما يؤلفان ، بكل بساطة ، عناصر كيمياوية منسجمة ، وهذا شرط أساسى فى الزواج .

فان المرأة التى تتزوج رجلا وهى تعتقد أن فى وسعها اصلاحه قد تفاجأ بالخيبة ، كما أن الرجل الذى يتوهم أنه قادر على تغيير المرأة التى يتزوجها قد يكون مخطئا ، اذ لا بد - أولا - من أن تكون عناصرهما الكيمياوية متناسقة . ومن الامور المسلم بها أن الزواج ، حتى فى أحسن حالاته ، ينطوى على كثير من المصاعب ، فانه لامر معقد أن يستطيع اثنان من الناس - يختلفان فى أمور كثيرة - أن يعيشا معا يوما بعد الآخر ، وليلة بعد الاخرى - عبر السنين - دون ملل أو تذمر . ولكنا اذا نظرنا اليهما على ضوء التحليل الكيمياوى لشخصيتهما ، وجدنا أنهما يؤلفان معا تركيبا كيمياويا منسجما ! .. فقد تكون المراة ميالة الى الموسيقى والشعر والروايات الخيالية ، مفتونة بالمرح والحياة الصاخبة ، بينما يكون زوجها منصرفا الى عمله ، يسعى دائبا الى الشهرة والمجد . فهو يعاف الحفلات ، ويكره أن يقرأ شعرا . ومع ذلك فقد نجده معتزا بزوجته ، فخورا بها ، وان لم تكن حياتهما المنزلية مثالية ولا عاطفية ! .. مثل هذين الزوجين متناقضان فى التركيب الكيمياوى ، فاذا التقيت بهما فثق أنهما لايبقيان على الحياة الزوجية الا لان وجود أولادهما أوجد جوا منسجما عاشا فيه عيشة هادئة .. بحيث اذا خلا البيت من الاولاد - بعد كبرهم واستقلالهم - تغير الوضع فى البيت ، وعاد التفاعل الكيماوى بينهما الى طبيعته ، فأحدث

الانفجار .. والطلاق !

وكثيرا ما يحدث أن تذهب زوجة جميلة وسعيدة مع زوجها الى حفلة عائلية عامة، فتلمح زوجها يقف ـ مصادفة ـ مع امرأة أخرى ، واذ ذاك تثور غيرتها وأنانيتها ، فلا تستطيع ان تضبط اعصابها ، وتصر على الطلاق ! .. وقد يحدث ـ بعد شهر واحد ـ أن تسمع هذه الزوجة أن زوجها السابق قتل فى حادث أليم ، فتحزن عليه حزنا بالغا ، وتقول فى نفسها : « كم كنت مجنونة ! .. أستطيع أن ارى الآن غلطتى وتسرعى ، فكم من رجال تقربوا الى نساء ، منذ آلاف السنين، دون أن يجر ذلك الى خراب البيوت وتحطيم الزوجية ! »

ولا شك فى أن الغيرة والانانية من أشد سموم السعادة الزوجية فتكا ، وليس بوسع أية قوة كيمياوية أن تصمد فى وجهيهما ، وهذا هو السبب فى وجوب التزام الحكمة والتريث فى علاقتنا الزوجية .. وكم من أشخاص يقومون بأعمال مخالفة لطبيعتهم الكيمياوية ، بسبب رغبتهم فى الدفاع عن أنانيتهم . ولكن أغلبهم يندمون على مايترتب على ذلك من رد فعل ! .. والواقع أن معظمنا يعجز عن ان يتصور ما يصدر عن المرء من تصرفات فى ثورته دفاعا عن الكرامة الشخصية ، أو ـ بالاحرى ـ عن الانانية ! ولكن أثر هذه التصرفات يبدو أظهر مايبدو فى الحياة الزوجية . فما الزواج سوى عملية خلط مادتين كيمياويتين ، وقد يؤدى هذا المزج الى تركيب نافع ، كما قد يؤدى الى انفجار .. وقد يحدث التفاعل منذ البداية ، وقد يتأخر ظهور اثره مدة من الزمن ، لان هذا النوع من العمليات الكيمياوية معقد جدا ، ويحتاج الى زمن كى تتحلل المادتان الى عناصرهما ويتم التفاعل !

سحر الدموع .. وعواقب الكبت

• **روى** لى طبيب نفسى قصة رجل أصيب بالعمى فجأة، ففحصه كبار الاطباء ليعرفوا السر فى فقدان بصره ، لكنهم

أخفقوا . وأخيرا ، ذهب الرجل الى طبيب نفسى خبير بالكيمياوية البشرية ، فراح الطبيب النفسى يغرى الرجل بالانطلاق فى الكلام عن حياته الشخصية . وسأله الطبيب فجأة عن علاقته بزوجته ، فانفجر الاعمى قائلا : « أنا لاأطيق النظر اليها ! » .. وما أن انصرف الرجل ، حتى بادر الطبيب باستدعاء الزوجة ، وصارحها بأقوال زوجها ، فأصغت الى الحديث بهدوء ورباطة جأش ، واعترفت بأن حياتهما لم تكن سعيدة ، ولو أنها كانت تبدو منسجمة الى درجة كافية ، بدليل أنه لم يقع بينها وبين زوجها أى انفجار ، بل انهاكانت تحاول دائما أن تتجنب الخصام معه !

وكانت الزوجة تحب زوجها هذا الى درجة أنها وافقت فى نهاية الحديث على التضحية بنفسها والطلاق منه . وفى اليوم التالى اجتمع الطبيب بالزوج الاعمى وأخبره بما فعل ، وقال له : « انك لن ترى زوجتك بعد الآن ، فقد قررت أن تغيب عن حياتك الى الابد ! » .. **ولم تنقض سوى أشهر قلائل ، حتى استرد الرجل بصره !** .. وكانت هذه معجزة من معجزات كيمياوية الانسان .

فى مثل هذا الحادث لم يحدث انفجار بعد المزج الكيمياوى — الذى تم بالزواج — ولكن التفاعل الكيمياوى بين الزوجين جاء على شكل تسمم أصاب أحدهما ، بالرغم من أن الآخر لم يكن سببا مباشرا فى هذا التسمم .. ومعنى هذا أن الزوجين اللذين من هذا القبيل قد لايستطيعان أن يسعدا بزواجهما ، ولكنه لايعنى أن النتيجة واحدة فى جميع الحالات ، اذ ربما يصاب الزوج أو الزوجة بشىء أقل أثرا على حياته من العمى ، فيتحمله دون أن يلجأ الى الطلاق . كما أن الطبيعة الكيمياوية لاحد هذين الزوجين قد تمنع حدوث الانفجار الناجم عن اختلاف طبيعتيهما ، ولو خفف الرجل الاعمى آلامه بالاعراب لزوجته عن مقته لها ، لما فقد بصره ..

كما كان من المحتمل أن تؤدى صراحته الى حث الزوجة على معالجة بعض عيوبها ، بحيث لاينتهى الامر بالطلاق .. بل ربما كانت هذه الصراحة سببا فى أن ينفس الرجل عما فى نفسه ويتعود العيش مع زوجته ويتغلب على شعوره ، وهذا أمر يحدث فى حالات كثيرة ، فكم من زوجين يعتقد كل منهما أن من واجبه أن يخفى عن زوجه بعض الامور ، خشية ان يؤلمه .. **وهو لايدرى أن هذا الكتمان نوع من الكبت قد يؤدى الى فقدان السعادة . فان المصارحة تزيل الكبت الذى قد يؤدى فى بعض الحالات الى الانفجار !**

ولقد كانت الطبيعة كريمة وحكيمة فى مقدرتها على تركيب الانسان ، اذ زودته بالدموع . فعندما يشعر المرء بالضغط على تركيبه الكيمياوى ، ويحس بالانقباض والمرارة ، يعمد الى غسل هذا الشعور بالدموع ! .. اما استنكار البكاء ، ومحاولة كبت الانفعالات بالتجلد المصطنع ، فليس من الحكمة فى شىء . ذلك لان الدموع تغسل الادران التى تعلق بالتركيب الكيمياوى للمرء ، والتى تنشأ من الاحتراق الناجم عن الكبت. ولا يعنى هذا أننا مطالبون بأن نشرح لمن حولنا — فى كل أطوار حياتنا — كل صغيرة وكبيرة مما نحس به ، والا أثقلنا عليهم ، أو آلمناهم ، او بعثنا السأم الى نفوسهم . وانما يجب أن نحكم العقل فى تصرفاتنا — فى مثل هذه الحالات — وأن نلجأ الى الصراحة المترفقة عند الضرورة !

سر الجاذبية الشخصية

• **قد** يشفق المرء أحيانا على زوجين يعرفهما ، ويخال ان زواجهما لم يقم على شىء من التكافؤ بينهما . والواقع أن حكمنا على هذه الحالات الزوجية يكون خاطئا فى كثير من الاحيان ، اذ اننا لانملك الحكم على الجاذبية الكيمياوية التى تربط بين أى زوجين ، مهما تكن معرفتنا الشخصية بهما

وثيقة .. فلقد يقدر لرجل هادىء ، خجول ، يميل الى الانطواء، أن يتزوج من امرأة جذابة ، جريئة، محبة للاختلاط، فنخال أن حياتهما الزوجية لن تدوم .. واذا الواقع يكذب حدسنا هذا . ذلك لان المرأة التى يضيق رجل معين بصوتها مثلا ، قد تجد رجلا آخر يعجب بهذا الصوت ! ومعنى هذا أن التفاعل الكيمياوى بينها وبين الرجل الاول ليس طبيعيا. وهناك حالات تكون عكس ذلك تماما .. فقد تجد رجلا تزوج منذ سنوات طويلة ، وبدا سعيدا بزوجته لانها أم أولاده وربة منزله ، ثم اذا بك تسمع فجأة أنه هرب الى امرأة أخرى ! .. **ومعنى هذا ان التفاعل الكيمياوى بين الرجل وبين المرأة الجديدة كان أشد قوة من التفاعل الاول بينه وبين زوجته !** .. ونحن قد نستنكر تصرف هذا الرجل ، فى حين انه كان صريحا مع نفسه ، فلم يصبر الى أن يداهمه العمى ، كما حدث لذلك الرجل الذى كان يمقت زوجته .

وللسيدة « دوريس دوجلاس » - وهى صحفية معروفة - تحليل طريف للعلاقة بين الرجل والمرأة .. فهى تقول ان المرأة قد تجد فى حياتها رجلين ، أحدهما ذو مكانة مبرزة ومنصب رفيع ، والآخر يشغل مركزا مغمورا .. فاذا بها - بدافع الطمع والزهو - تختار الاول زوجا ، ولكنها لاتلبث - بعد الزواج - ان تنصرف الى شئون البيت والمطبخ ، دون الظهور فى المجتمع كما يتيح لها مركز زوجها . فبماذا تعلل هذه الظاهرة ؟ .. وهنا تنبرى الكاتبة للتعليل قائلة : « قد كانت هذه المرأة تحب صاحب المركز المغمور ، ولكنها فكرت كثيرا فيما ستكون عليه حياتها معه ، فرأت الطمأنينة فى الزواج من الرجل الآخر . ثم راحت تتصرف فى حياتها كما لو كانت قد تزوجت الاول ! .. **والاغرب من هذا أن من المحتمل انها ماكانت لتفعل ذلك لو أنها تزوجته فعلا ، اذ ربما كانت تثور فى نفسها اذ ذاك نزوات تدفعها الى الترفع عن**

تدبير البيت وجو المطبخ » !

والواقع أن العلاقة بين الزوجين تعتمد على طبيعة التفاعل الكيمياوى بينهما أكثر مما تعتمد على الانسجام الكيمياوى.. فان التفاعل يؤدى — فى الزواج — الى حالة أكثر اتساقا ونفعا من الانسجام الكيمياوى !

الكيمياوية البشرية والحياة العائلية

• **وتتألف** كل أسرة من مركب كيمياوى يختلف باختلاف افرادها . وهذا المركب يشمل الزوجين والاولاد .. وكما تختلف كيمياوية كل من الزوجين عن الآخر ، نجد أن كيمياوية الاولاد تتباين ، على الرغم من وجود بعض التشابه الموروث فى طباعهم !

ويحتاج البيت الى انسجام واسع النطاق ، حتى يستطيع الوالدان تربية الاولاد وبناء مستقبلهم حسب ميولهم وطبائعهم واستعدادهم . فقد يكون أحد أولادك طفلا عنيدا ، صلب العود ، متين البنيان ، يستطيع فى المستقبل أن يدير مصنعا فيه آلات ضخمة .. بينما يكون الثانى طفلا رقيقا ، يميل الى الشعر أو الفن .. وقد يكون الثالث صبورا ، دؤوبا ، يصلح لان يكون مدرسا .. وقد تجد بينهم من يرغب فى أن يكون قسيسا .. كما قد تكون بينهم فتاة هادئة ، وأخرى شريرة .. الخ .. **ونخلص من هذا الى أن كل واحد من هؤلاء الاولاد يحتاج الى رعاية خاصة تعتمد على ادراك طبيعته الكيمياوية**

وقدقدمت لنا السيدة « نورماشول » — الباحثة الاجتماعية — بعض الارشادات العملية فى هذا الشأن بقولها : « اذا قدر لاسرة أن يكون لها ولدان يكره كل منهما الآخر كراهية قوية ، لا تجدى النصيحة ولا الارشاد فى ازالتها ، فمن الخير التفريق بينهما ، بحيث ينام كل منهما بعيدا عن الآخر ، ويتعلم فى

مدرسة أخرى غير التى يتعلم فيها أخوه ، ويلعب فى جو آخر، وبذلك يتجنبان الشجار .. على شريطة أن يكونا سواء فى المعاملة ، وأن يغدق الابوان عليهما الحب بالعدل ! »

ويجب أن لا نحاول التدخل قدر المستطاع فى حياة أولادنا ، وأن نترك لهم الفرصة فى أن يعيشوا كما يشاءون حسب طبيعتهم ، وأن نسمح لهم بارتكاب الاخطاء - ليتعلموا الصواب - تحت ارشادنا .. وعلى الوالدين أن يحاولا خلق جو من السرور يقرب بين قلوب أفراد الاسرة ، ويخلق الانسجام والتآلف بينهم . **ذلك لان الابوين لا يملكان أن يغيرا التركيب الكيمياوى لاولادهما ، ولكنهما يستطيعان أن يجعلا التفاعل الكيمياوى لهذا التركيب هادئا لطيفا ، لا يؤدى الى الانفجار !**

ومن المسائل الهامة فى تربية الابناء ، أن يميل بعض الآباء الى حمل أبنائهم على أن يسيروا على منوالهم فى الحياة ، فالمحامى يسعى الى أن يرثه ابنه فى مهنته ، والام الورعة تريد ان تنشأ ابنتها على التقوى .. وهذا خطأ تقليدى ينزلق اليه الآباء ، دون أن يحفلوا بميول الابناء واستعدادهم !

العلاقة مع الحموات

• **كل** واحد منا يحب أمه . وهو كذلك يحب زوجته ؛ ويفترض أن عليهما أن تعيشا معا ، ما دام هو يحب كلتيهما . وقد يكون مخطئا فى ظنه هذا ، وربما كان مصيبا ، اذ أن الامر يتعلق بالتركيب الكيمياوى البشرى لكل واحدة منهما . والمنطق لا يجدى فى مثل هذه الحالات : فان استطاعتك أن تعيش معهما بانسجام ، لا تعنى أنهما تستطيعان العيش معا بدون شقاق أو احتكاك . فاذا عدت الى منزلك بعد العمل ، ولم تستطع أن تدرك السر فى أن كلا منهما تحاول أن تضايق الاخرى أو تغضبها ، فلا تحاول أن تلومهما ، أو ان تعزو الامر الى تغيير فى اخلاق اى منهما ، فكل ما فى الامر هو ان

عنصريهما الكيمياويين لا ينسجمان اذا اختلطا ، فافصل بينهما بالحسنى ، ولا تحاول أن ترغمهما على الاقامة معا ، لان ذلك كفيل بأن يؤدى الى استفحال الازمة وازدياد تعقد الامور .
ولا تحاول أن تصل الى استنتاج شخصى فى هذا الموضوع ، كأن تقول ان الغيرة والانانية لدى أمك هما سر سوء معاملتها لزوجتك .. **ذلك لانهما ما كانتا لتنسجما اذا تعاشرتا ، ولو لم تكن احداهما حماة والاخرى زوجة ابن ! .. وليس فى هذا ما يعيب احداهما ، اذ أن الامر يرجع الى اختلاف طبيعتهما الكيمياوية .**

وقد تقضى الظروف على امرأتين - كالحماة وزوجة الابن - بالعيش معا ، فاذا كل منهما تعمل جاهدة على تفادى أى شقاق مع الاخرى ، وتنجحان فى ذلك الى درجة تكفل لبيتهما الهدوء والطمأنينة ، رغم أن كلا منهما قد تختلف عن الاخرى من حيث كيمياوية الشخصية .. والتعليل البسيط لهذا هو أن كلا منهما مادة كيمياوية طيبة ، رغم اختلافهما ، ومن ثم فان اختلاطهما لم يؤد الى تفاعل عنيف ، أو أن كلا منهما أحاطت نفسها بافرازات واقية حالت دون اى تفاعل يؤدى الى انفجار !

درس فى الحيـــاة

• لى صديق يقيم الآن فى (هونولولو) ، وكان من قبل مواطنا نشيطا فى (كاليفورنيا) . وقد كتب لى كلمة صائبة عن الحياة فى الجزيرة ، قال : « لقد أصابنى بعض التغيير فى تفكيرى عندما نزلت هنا ، اذ كنت قد اعتدت - أثناء مقامى فى الولايات المتحدة - أن أنأى عن أى امرىء لا أستطيب صحبته ، او اجد من الصعب العمل معه .. ولكنى تعلمت هنا أن عدد الناس قليل ، وأن أحدا منهم لا يستطيع ان يتجنب الآخر . وقد ضايقنى ذلك فى اول الامر . أما الآن ، فان الرجل الذى كان على خلاف معى قبل شهر ، أصبح صديقا لى ، وعوننا

فى مسائل كثيرة . لقد تعلمت أن الانسان الذى يقيم فى جزيرة صغيرة – وفى دائرة قليلة السكان – يستطيع أن يتعامل مع الناس بروح التسامح والتفاهم . **ان الجميع هنا يسيرون على قاعدة ((خـذ و اعط)) ، دون حاجة الى اثارة الانفعـالات الشخصية فى التعامل والتعاون . وقد تعلموا أن ينظروا الى الاهداف التى يعملون من أجلها ، وليس الى الاشخاص)) !**

ورسالة هذا الصديق تعنى أن الناس اذا أرادوا أن يعيشوا مرحين ســعداء فعليهم أن يتعلموا خلط المواد الكيمياوية الانسانية ، بحيث تؤلف خليطا هادئا لا يؤدى الى انفجار أو غليان . وذلك بأن يتعاملوا بالحسنى والتسامح . والواقع ان كل واحد منا يعيش فى محيط يشبه الجزيرة ، بل فى أكثر من جزيرة واحدة : فان البيت الذى نعيش فيه جزيرة ، والمكان الذى نعمل فيه جزيرة أخرى ، والنادى الذى نتردد عليه جزيرة ثالثة .. وهكذا . وعلينا أن نتصرف فى هــذه الجزر تصرفا لا يقل فى فوائده عن الطريقة التى يتصرف بها سكان جزيرة (هونولولو) . **ويستطيع الانسان أن ينسجم مع الناس فى كل مكان يتردد عليـه – أو يختلـط بأهله – انســجاما طبيعيا ، اذا هو عنى بالتعمق فى دراسة كيماوية الناس** . لان هذه الدراسة تمكنــه من أن يعامل كل انسان بالطبيعة التى تتفق مع امتزاجه به ، وأن يحرص على أن يكون هذا الامتزاج فى حدود التفاعل الكيمياوى الذى يؤدى الى نفع !

كيميـاوية النجـاح

• **منذ** نصف قرن أنشأت أسرة صغيرة فندقا جبليا فى (نيوهامبشير) بأمريكا ، كان المترددون عليه يجدون فيــه متعة وبهجة . اذ كان الطعام جيدا ، والموقع جميلا ، والهواء نقيا . وطارت شهرته ، فسرعان ما تدفق عليه الناس ، واضطر أصحابه الى توسيعه ، فأصبح مؤلفا من عدة أجنحة ، وبلغ

من الاقبال عليه أنك لا تستطيع النزول فيه الا اذا حجزت مكانك قبل أسبوع على الاقل !

والسبب فى نجاح هذا الفندق هو أن أفراد الاسرة التى اقامته كانوا يحبون مهنتهم ويفتنون فى اجادتها . وقد ثابروا على ذلك دون ملل . وبالرغم من نجاحهم ومن اتساع الفندق، فانهم ظلوا يقومون بخدمة الرواد بأنفسهم .. **وهكذا الامر بالنسبة لكل مشروع ناجح يبدأ على هذا النسق . فان عماد النجاح هو اجتذاب الناس الى المشروع .. وهذه الجاذبية هى الكيمياوية المنسجمة التى تضمن النجاح** .. والذين أوتوا هذه الجاذبية الكيمياوية ، يعرفون كيف يصنعونها بحيث تناسب رغبة أكبر عدد من الناس المتباينى التركيب !

ولقد اعتاد الانسان أن يعالج جميع شؤونه بشىء من الانفعال يتمثل فى القلق أو الحذر أو الغضب او الفرح .. ويتوقف نوع هذا الانفعال ومداه ، على الطبيعة الكيمياوية للمرء . وما الانفعال سوى الظاهرة التى تكشف سر التركيب الكيمياوى للانسان .. انها أشبه برغوة الصابون التى تظهر على سطح الماء . فهى مظهر التفاعل الكيمياوى لمواد الجسم . **ولا بد لكل منا من قدر من الانفعال ليخفف الضغط عن أعصابه . ولكن عليه أن يتحكم فى هذا القدر حتى يكون مناسبا ، لا يجوز طاقته فيرهقه !**

ومن هذا القبيل التوتر الذى يصادف المرء فى مختلف المواقف .. فالرجل حين يجلس فى قاعة الانتظار بالمستشفى ـ بينما يساعد الاطباء زوجته على وضع مولودهما الاول ـ يكون شديد القلق والتوجس .. فاذا ما أقبل الطبيب ـ أخيرا ـ يهنئه بالمولود ، ويطمئنه الى سلامة الوالدة ، ويدعوه الى رؤيتهما ، اذا بهذه الكلمات الرقيقة من الطبيب تحطم التوتر وتحوله الى اغتباط !

والموظف حين يكتب مذكرة هامة الى رئيسه ، يظل متوتر

الاعصاب ، متوجسا ، لا يعرف كيف يتقبل رئيسه هذه المذكرة . حتى اذا قدر له - عند الانصراف من المكتب - أن يلتقى برئيسه أثناء خروجهما ، فيقول له الرئيس انه اطلع على المذكرة وأقره على ما جاء فيها ، تلاشى التوتر الذى رافق الموظف منذ البداية

ويستطيع كل انسان أن يعالج التوتر فى شخصه وفى غيره ، لانه حالة طبيعية لا بد من ظهورها . ولكن بوسع الانسان أن يستخدم تركيبه الكيمياوى للحد من عنفوانها !

وأكبر غلطة يرتكبها المرء منا ، هى أن يفرق بين جيرانه وزملائه فى العمل والاشخاص الذين يصادفهم فى الحياة الاجتماعية ، فيضع بعضهم فى مصاف الاصدقاء وبعضهم فى مصاف الخصوم ، ويميل الى فريق وينصرف عن فريق ، ويحاول أن يضع لكل واحد منهم صفة مناقضة لصفة الآخر . وهو يعتقد أن حكمه فى ذلك نهائى لا يقبل النقض ، ولكنه اذا عاشرهم عن كثب ، ودرس شخصياتهم ، لا يلبث أن يكشف حقيقة كل منهم وتركيبه الكيمياوى . وعلينا أن ندرس هذا التركيب دراسة قوية لكى نستطيع أن نحكم على الاشخاص . وبقدر ما نحذق تحليل التركيب الكيمياوى للآخرين ، يصبح فى وسعنا أن نعالج علاقتنا معهم بصورة تضمن لنا السعادة ، وتخلق حولنا جوا يحبب الينا الحياة ، ويجعلنا محبوبين لدى الآخرين .

الكيمياوية البشرية خير علاج للحروب !

• **وهكذا** فان التركيب الكيمياوى للطبيعة البشرية هو العامل الرئيسى الذى يستطيع أن يهدينا الى حياة منسجمة تخلق مجتمعا انسانيا شاملا ، يستطيع أن يتعايش فى سلام ووئام ، وأن يخلو من الانفجارات الصغيرة التى تحدث بين الافراد ، والانفجارات الكبيرة التى تحدث بين الشعوب .

فباهتدائنا الى سر الكيمياوية البشرية ، نستطيع أن ننقذ العالم من كوارث الحروب ، وأن نعالج أمورنا فيما بيننا بطريقة ودية لا تشوبها الانفجارات والمشاحنات ، سواء كان ذلك فى حياتنا العائلية ، أو فى أعمالنا ، أو فى تربية اولادنا . **ونكون بذلك قد تخلصنا من الحالات المحرجة والتصرفات التي تنجم عن التوتر المرهق والتفاعل غير الطبيعى للكيمياوية البشرية .**

واذا نحن عرفنا كيف نستفيد من مزج المواد الكيمياوية التى تتألف منها طبائعنا ، استطعنا أن نخلق حياة يعيش فيها الانسان ـ مهما تكن طبيعته البشرية ـ دون أن يشعر بالمقت لغيره ، ودون أن يحس بوجود الفوارق الاجتماعية التى تذكى التفرقة العنصرية والشقاق بين الطبقات .. فالكيمياوية البشرية هى التى تقودنا ـ اذا استطعنا أن نتعمق فى أسرارها ـ الى انقاذ هذا الكون من جميع ما يعانيه من أدواء وعلل !



من أجل ولدى!

للكاتب الإيطالى الخالد: "جبرييل دانونزيو"

تلخيص: محمد بدر الدين خليل

•• فى عينى ابنه !

❖ يعتبر الكاتب الايطالى الخالد : « جبرييل دانونزيو » فى طليعة المجددين فى ميدان القصة ، فى أواخر القرن التاسـع عشر وأوائل القرن العشرين ، وقد تأثر به كثير من كتاب القصة ، لا فى ايطاليا وحـدها ، بل فى أوربا بأسرها ، وخارج نطاق أوربا ، مما جعله أستاذ مدرسـة قصصية لا يزال طابعها ظاهرا واضحا فى الانتاج القصصى الحديث •

وفى القصة التى تقرأها فى الصفحات التالية ، يعالج « دانونزيو » موضوعا طريفا •• موضوع الرجل الذى يسيطر عليه الخجل والحياء ، حتى يسلبه كل جرأة وارادة ، فاذا هو مطية للغير ، واذا هو ألعوبة زوجته •• ويظل الضعف يشل رجولته وكرامته ، حتى يرى نفسه أخيرا فى عينى طفل صغير •• ان نظرة من عينى ابنه •• نظرة تساؤل وشك واتهام ، تكفى لايقاظ الجرأة والكرامة اللتين طال نعاسهما ••

اذن فأنت تريد أن تعرف ياسيدى ؟•• ماذا ، كل شيء ؟•• ليكن .. سأقص عليك الامر كله ، من البداية ! .. ولكن ، آه يا الهى !•• لقــد نسيت ، فصبرا ! بل اننى لا أدرى كيف سأعبر لك ، اذا أنا تذكرت !

آه ، لقد تذكرت كل شيء •• كل شيء !•• اننى لأستعيد أحاديثه ، واشاراته ، ونظراته ، وعبراته ، وزفراته ، وصرخاته •• كل شيء منذ لحظة مولده ، حتى لحظة وفاته !•• أجل ، لقد مات وهو بعد فى الحـادية عشرة ، تصـور !•• مات منذ ستة عشر يوما ، أما أنا فلا أزال أعيش ، وكان من الواجب أن أموت ، فان ابنى يرجـو أن ألحق به !•• انه يأتينى فى كل ليلة ، فيجلس ويروح يرمقنى !•• اننى أرهف السمع منذ أن يهبط الليل ، أترقب وقع قدميه الحافيتين ، حتى يطأ عتبة الغرفة. فكأنه يطأ قلبى ، ولـكن •• فى رفق ونعومة ، فكأنه ريشـة خفيفة !•• **يا لشيرو المسكين !•• أترانى مخبولا ؟! لا ، الحق**

ما أقول لك ، فان الموتى يعودون !

انني مريض ، مريض جدا ٠٠ ولكنني ساكن الجأش ، وسأروى لك كل شىء ، فان العقل لم يفارقنى بعد ! ٠٠ لقد كان ذلك فى نزل « بنسيون » متوسط الحال ، منذ اثنتى عشرة سنة ، أو ثلاث عشرة .. وكنا – معشر النزلاء – حوالى عشرين من الموظفين والمستخدمين ، أقرب الى الشباب منا الى الكهولة ٠ وكنا نتناول العشاء معا ، فى كل ليلة ، على مائدة واحدة ٠٠ وهناك ، تعرفت على « جيوليو فانزر » ٠٠ أرأيت جثته ؟ ٠٠ ألم تلحظ شيئا غريبا فى وجهه ؟ ٠٠ آه ، عيناه ، فان احداهما مغلقة ، أما الأخرى ٠٠ فلابد من أن أموت حتى تنسى أصابعى ملمس انسانها وهو يقاوم ٠٠ كأنى بأثر المقاومة عالق بجلد أناملى ، دائما ٠٠ دائما !

* * *

عفوا ، سأتحدث الآن فى الموضوع مباشرة ٠ آه ، أين كنا ؟ ٠٠ اننى أنسى سريعا ، فمنذ يومين لم آكل شيئا ! ٠٠ آه ، كنت أقول اننى تعرفت هناك على « جيوليو فانزر » ٠ وكان ذا نفوذ على كل امرىء ، ولا يطيق معارضة ، وقد أوتى صوتا مرتفعا ، ويدا مرتفعة كذلك ، فما من ليلة قضاها دون شجار ، حتى صار كل امرىء يكرهه ويحقد عليه لاستبداده ، وأصبحوا جميعا يذمونه ٠٠ ولكن فى همسات ، من وراء ظهره ! ٠٠ ولما كان مقعدى يواجه مقعده – حول المائدة – فقد وجدتنى أرمقه دون انقطاع – بالرغم منى – فاذا بى أشعر نحوه باحساس غريب ، لا سبيل الى وصفه .. احساس هو مزيج من النفور والانجذاب ، **فكأنما أوتى ذلك الرجل القوى ، الوحشى ، الجبار ، قوة مغناطيسية خبيثة ، تفرض على سلطانه ، فاذا أنا ازاءها ضعيف ، خجول ، جبان ، مسلوب الارادة !**

وفى ذات مساء ، اشتد الجدل حول المائدة ٠ واذا

« فانزر » يختطف كوبا ويقذف بها ـ بحركة مباغتة ـ نحو غريمه ، واذا الكوب تصيبنى فتشق جبينى ، هنا ٠ أنظر ، أترى الندبة ؟!٠٠ وتدفق الدم حارا سيالا ، وشعرت برأسى يدور ٠ وفى اللحظة التالية ، كان « فانزر » الى جانبى وقد فترت ثورته ، وراح يعتذر ٠ وقادنى الى طبيب ، ثم مكث فى غرفتى الى ساعة متأخرة من الليل ، وأقبل فى الصباح التالى ، ثم أخذ يكثر من التردد على ٠

وكانت هذه بداية خنوعى له ، واستعباده اياى !٠٠ لم أعد أملك ازاء نظرته سوى ما يملكه الكلب اذا استبد به الخوف !

٠٠ وكان اذا دخل غرفتى ، اتخذ مسلك السيد المسيطر ، فيفتح أدراجى ، ويدخن فى غليونى ، ويقلب أوراقى ، ويقرأ خطاباتى ، ويتصرف بكل حرية !.. وكان استبداده يزداد فى كل يوم وطأة ، بينما كنت أزداد خضوعا وخنوعا ، ولم تبق لى ذرة من كرامة أو ارادة ، وان لم أفقد ادراكى ٠٠ أجل ، كنت أدرك كل ما كنت أفعل ، وكنت أحس بضعفى ، وبعبوديتى ، وبما تبدى لى من استحالة التغلب على سلطان ذلك الرجل !٠٠ **وأصبحت أرى فى الأثر الذى خلفه الجرح بجبينى وصمة الاستعباد التى كان مقدرا أن تلازمنى طيلة العمر !**

وأصبحت أتبعه أينما شاء ، وأنتظره ساعات طويلة على قارعة الطريق ، وأسهر الليل أنسخ الأوراق التى كان مكلفا بنسخها بحكم عمله ، وأحمل عنه الرسائل من أول (روما) الى آخرها ، وأتنقل من مراب الى مراب لأحصل له على النقود التى يكون بحاجة اليها ، وأقف وراء مقعده ـ فى كل ليلة ـ حتى مطلع الفجر ، وأنا أكاد أموت اعياء واشمئزازا لما كنت أسمعه من شتائم نابية ، وما كان يخنقنى من روائح كريهة٠٠ فاذا انصرفنا ـ وكان خاسرا فى المقامرة ـ راح يجرنى وراءه

ككلب ذليل ، وهو يسب ويلوح بقبضتيه .. آه ، يا سيدى ، من لى بمن يحل هذا اللغز الغامض قبل أن أموت ؟٠٠ أهناك أناس يستطيعون أن يستعبدوا سواهم ويفعلوا بهم ما يحلو لهم ؟!

وهكذا فقدت ارادتى تماما ، ولكننى احتفظت بعقلى ، فكان رأسى دائما زاخرا بالافكار .. **ومنذ الليلة التى جرحت فيها ، تملكنى خوف طاغ من الدم ، ومن الظلام ، ومن « فانزر » ، فقد رسخ فى ذهنى أنه لابد قاتلى ذات ليلة !٠٠ ولكن حدسى لم يصب ، وانما حدث العكس !٠٠** غير أن هذا الذى حدث ما كان ليحدث لو لم يلج فانزر حجرة ابنى « شيرو » فى ذلك المساء ، ولو اننى لم ألمح السكين على المنضدة ، ولو لم يتقمصنى شخص آخر راح يدفعنى دفعا ٠٠

آه ، انك على حق ٠٠ كيف نتحدث عن النهاية ، ونحن لم نتجاوز البداية ؟!٠٠ حسنا ، سأحدثك عن « جينيفرا » ٠ فبعد الحادث الذى جرحت فيه ، أنذر النزلاء صاحبة النزل بمبارحته اذا بقى « فانزر » فيه ، فلم يلبث هذا أن انتقل منه بعد هياج فظيع ٠ وانتقلت أنا الآخر فى أعقابه !٠٠ ولعل النزل الجديد كان أفضل من القديم ، لا سيما وقد كان يأوى عددا من زملائى فى العمل ، كما كان معظم الباقين من نزلائه من المعارف ٠ وما ان أحاط الجميع بمائدة العشاء ـ فى الليلة الاولى ـ حتى صاح بعض النزلاء : « أين جينيفرا ؟ .. جينيفرا ! » . **وقيل لهم أن جينيفرا مريضة ، فاذا بهم يبدون قلقا واضحا ٠ وتردد اسم الغائبة مرارا على شفاه الحضور ، فى لوعة نمت عن اشتهاء كان يراود الجميع ، شبانا وشيبا ٠** وأخذ كل منهم يتحدث عن ناحية من مفاتنها ، فاذا خيالى يجمح بى ، ويصور الغائبة لى فى صورة شد ما كانت تخالف ما رأيته فى الواقع ، فيما بعد !

وخرجت ـ فى ذلك المساء ـ مع فانزر وواحد من النزلاء يدعى « دوبرتى » ٠٠ وكان حديث الزميلين طافحا بالشهوات، فتركتهما يتقدمانى خطوة ، وقد اشمأززت منهما ، بينما غشينى اكتئاب وأسى غريبان ، واستولى على فؤادى اضطراب غامض أضنانى وأمضنى ٠٠ **ووجدتنى أفكر فى تلك الغائبة فى حنين خيل الى انه يربطنى اليها ربطا !٠٠ اننى ما زلت أذكر تلك الليلة ـ برغم انقضاء اثنتى عشرة سنة ـ فقد أحسست انها الليلة التى أبرم فيها مصيرى ٠٠ أفكان هذا أمرا معقولا ؟!٠٠** أيكفى اسم امرأة لكى يفتح أمامك هوة لا سبيل الى تفاديها برغم رؤيتك اياها ؟٠٠ ان الحدس ، والبصيرة ، والتنبؤ كلها ليست سوى كلمات ! .. انك لتتعذب فيبدو لك عذابك جديدا ، لم يعان مثله من قبل ، وانك لتطرب فتخال طربك جديدا لم يتح لسواك من قبل ، ولكن هذا وهم باطل ، فما نفسك سوى واحدة من مائة ألف جزء من أجزاء نفوس شهدت الحياة بأكملها وعاشتها وأنتجت كافة الظواهر !٠٠ اصغ الى جيدا ، فسوف تجد مصداق هذا فيما أرويه لك !

بعد ثلاثة أيام أو أربعة ، ظهرت الغائبة فى قاعة المائدة فى الفندق ، وقد أقبلت تحمل للنزلاء حساء العشاء ٠٠ **أجل ، كانت خادما ، ولكن الجميع كانوا يتمنونها ويغازلونها ٠٠ وانها لجديرة بأن يتهالك الرجال عليها ، حتى شيخوختها !٠٠** لقد تغيرت الآن كثيرا ، ولكنها كانت ـ اذ ذاك ـ فى العشرين من عمرها ٠٠ كم من مرة أحاول أن أتمثلها الآن كما بدت حينذاك ، ولكنى أخفق ، فان فى الأمر سرا !٠٠ ألم يخطر لك يوما أن أى انسان ، أو حيوان ، أو نبات ، أو أى شىء ، لا يكشف لك عن حقيقته مجردة سوى مرةواحدة . . فى اللحظة الأولى ، العابرة ، التى تلمحه فيها ، ثم يغدو بعد ذلك شيئا

آخر ، اذ يتعاون فكرك وأعصابك على تزييف صورته وتمويهها !!٠٠ انني اليوم أغبط كل رجل يرى جينيفرا للمرة الأولى !

وكانت القاعة مليئة ببخار الحساء ، وعبير اللحم ، والاصوات ٠٠ وفى غمرة هذا الجو الصاخب ، امتدت يد فرفعت طبقا من أمامى ووضعت آخر ٠٠ واذ ذاك فطنت الى اننى كنت شارد الفكر ، والى أن الجميع كانوا يضحكون من شرودى ٠٠ وشعرت بحر خانق ، والتصقت بمقعدى وأنا أشهد ما تجلى على وجوه الرجال ٠٠ وصاح أحد الحضور : « ان عواطف ايبيسكوبو قد غلبته !٠٠ ألم تروا ماجرى حين بدلت جينيفرا طبقه ؟ » ٠٠ وحاولت ان أضحك ، وتطلعت فاذا عيناى تلتقيان بعينى جينيفرا ، فتتعانق العيون لحظة ٠٠ ثم انصرفت الفتاة٠ **واذ ذاك صاح فيليبو دوبرتى : ((هناك حل يا أصدقائى ، هو أن يتزوج أحدنا الفتاة ، لحساب الجميع !)) ٠٠ وأنا أستعمل هنا كلمات مهذبة للتعبير عما قال ٠٠ وصاح فانزر : ((اننى أرشح ايبيسكوبو !)) ٠ فهتف آخر : ((مؤسسة ايبيسكوبو وشركائه !))** ٠ واشتد الصخب عندعودة جينيفرا ، فضحكت ، واذ ذاك صاح فانزر : « تقدم للخطبة ! » ٠ونهض اثنان من النزلاء ، فتقدما يخطبانها لى ٠ وهزت رأسها وقد زايلتها ابتسامتها المعهودة ، وقالت : « سأفكر فى الأمر ! »

ومرة أخرى ، التقت عيناى بعينيها ٠ والحق اننى لم أكن أفكر فى نفسى ، وكأننى لم أكن « ايبيسكوبو » الذى راحوا يسخرون منه ٠٠ لقد كانت تلك الفترة من حياتى حلما ٠ ليس بوسعك أن تدرك قط ما خالجنى من أحاسيس !٠٠ولكن جينيفرا ما لبثت أن أقبلت يوما تودعنا قائلة انها قد استقالت من العمل ، لتقيم مع أخت لها فى (تيفولى) ٠ وسلمت على الجميع فردا فردا ، فلما حان دورى ، قالت ضاحكة : **((لقد**

نعاهدنا ياسيد ايبيسكوبو ، فلا تنس ! » .. وكانت هــذه أول مرة ألمس فيها يدها ، وأحــدق فى عينيها محـاولا ان أصل خلالهما الى قلبها..ولكنها ظلت لغزا مغلقا بالنسبة لى !

* * *

وأصبحت الحياة بعــدها لا تطاق وسـط أولئك الحمقى المهزارين السكيرين .. ووجدت فى أفكارى وخيـالاتى المبهمة الرقيقة عزاء ، برغم حيرتى ومخاوفى المادية ، وبرغم ما كنت فيه من ضعة من جراء حياة العبودية التى كنت أحيـاها .. **وشعرت ـ وقد بلغت الثامنة والعشرين من عمرى ـ بما يخالج الفتى المراهق من لوعات الحب وتباريح الفراق .. الى جانب ما كنت أعانيه من تسلط فانزر واستبداده !**

ثم حدثت يوما المعجزة التى شعرت بأنها حررتنى !.. فقد قضى فانزر خمس ليال أو ستا فى قلق وانفعال ، ثم اقتحم حجرتى ذات صباح ، وقد بدا هزيلا كالهيكل العظمى ـ لفرط ما عاناه من أرق فى تلك الليالى ـ فارتمى على مقعد ، وأوشك مرتين أو ثلاثا على الكلام ، ولكنه أمسك فجأة ، وانصرف دون أن ينبس ببنت شفة .. ولم أره ـ بعد ذلك ـ لعدة أيام ، ثم فوجئت ذات مساء ـ ونحن جلوس الى المائدة ـ بأحدأصدقائه يسألنى : « هل عرفت ؟.. لقد هرب فانزر من البلاد ! » . وتطلع الجميع الى ، وقد سمرت فى مكانى . ولست أدرى ما الذى تبدى على ، **ولكن من المؤكد أن أول ما خالجنى كان شعورا من الفرح الطاغى ، الذى كبحته بجهد** . وسمعت الذم ينطلق من كل لسان ، ضد ذلك الرجــل . ثم سمعت أوقح الحضور يقول لى : « وأنت ؟.. لماذا لم تقل شيئا ؟.. ألم يجعل فانزر منك خادما ؟ » . وصاح آخر : « انك تحمل على جبينك وصمة من سارق ! » . وصاح ثالث : « وفى خدمة من ستكون الآن ؟ » . وانهالت على التعليقات المازحة وكلهـا

اهانات لاذعة ، فنهضت وغادرت المـكان ، ورحت أهيم فى شوارع المدينة وقد شعرت بالحرية !٠٠ لقد تحررت أخيرا !

وأخذت أسعى الى الأماكن الفسيحة لأعب الهـواء عبا ، وأتأمل النجـوم ، وأسمع خـرير الماء ، وأنعم بكل الاشياء الشاعرية ، وأحلم بالمسـتقبل ، وأنا لا أنفك أردد لنفسى : ((اننى حر ! ٠٠ حر !)) ٠ وأصبت بشىء من العى لم أعد معه أفكر فى شىء ، أو أتدبر موقفى ، بل تدافعت الى رأسى ألف نزوة ٠ ومـررت بمقهى ، فدخلت ، وطلبت زجاجـة من « الكونياك » ، ثم خيل الى أنأنظار الرواد جميعا تتجه نحوى ، وترددت فى ذهنى العبارة القاسية : « انك تحمل على جبينك وصـمة من سـارق ! » ، فتركت المقهى ، دون أن أشرب « الكونياك » ، ورحت أهيم فى الشوارع ٠٠ ثم غادرنى العى والجمود فجأة ، فشعرت بتعاسة لا حد لهـا ، دون أن أدرى لها مبررا ٠٠ ورحت أقول لنفسى : « لعله مختبىء فى روما ، ولن يلبث ان يظهر عند بابى ٠٠ وربمـا كان يتربص لى فى ظلام سلم الدار ! » ٠ واذ ذاك غشينى خوف طاغ ، وترددت مرتين أو ثلاثا قبل أن ألج الدار ، عندما عدت اليها أخيرا !

ولم أنم ليلتى تلك ٠٠ وعندما أقبل الصـبـاح ، عاودتنى المخاوف ثانية ، فليس بوسعك أن تدرك حالى ، لأنك لم تكن مستعبدا يوما ما !٠٠ وما لبثت أن علمت ـ عندما ذهبت الى العمل ـ أن فانزر ارتكب ذنوبا خطـيرة ، وعبث بالخزانة الرئيسية ـ التى كان موكلا بهـا منذ عام ـ فصدر الأمر بالقبض عليه ، ولكنه اختفى دون أن يدرى أحد أين ذهب ٠٠ **واذن ، فقد تحررت يقينا !٠٠ ووجدتنى أشـعر بما يخالج الناقه من مرض لم يكن ثمة أمل فى الشـفاء منه ، فرحت أبكى !**

ولكن ، لندع البكاء جانبـا !٠٠ ان ذكرى سني العبودية

لا تزال تبكينى بلا دموع !٠٠ ما أقل من يعرفون كيف يبكون كما أبكى ياسيدى !٠٠ يكفينى أن تقول ـ بعد موتى ـ ان جيوفانى ايبيسكوبو كان يعرف كيف يبكى وهو صامت !

* * *

أما كيف وجدتنى فى صباح يوم من أيام الأحد فى (تيفولى) ، فهذا ما لست أذكره تماما ٠ ويبدو اننى كنت ملتفا بجو غريب حال بينى وبين العالم الخارجى ، فلم أكن أحس به ٠٠ لست أدرى كيف أشرح ذلك ، انما يهمنى ان أذكر اننى سعيت الى لقاء « جينيفرا » ٠ فما ان رأتنى حتى هتفت : « آه ، السيد ايبيسكوبو هنا ؟ » ٠ وظلت تبتسم مرتقبة ان أقول شيئا ، ولكنى كنت مبهوتا ، مأخوذا ٠ حتى اذا تمتمت أخيرا بأننى جئت من أجلها ، ضحكت قائلة : « اذن فأنت تذكر عهدنا ؟ » ٠٠ ودعتنى الى دار أختها ٠ وفى غمرة الشمس ، ونحن واقفان فى الشرفة ، **سألتها بصوت خافت : « أما زلنا على عهدنا ؟ » ٠ وسكتت لحظة ، ثم قالت بصوت خافت وقد احمر وجهها ، ونكست بصرها : « أراغب أنت ؟٠٠ فليكن ! »**

وكان لابد من أن أزور أمها ، فى منزل عتيق بشارع (مونتانارا) ٠ وتحسست طريقى على درجات سلم ضيق ، رطب ، معتم ، وأنا أخال اننى أفقد شيئا من توازنى كلما صعدت درجة ٠ وفجأة ، سمعت بابا يفتح بعنف ، وسيلا من الشتائم ينصب من فم امرأة ، ثم أغلق الباب بدفعة قوية هزت البيت كله !٠٠ وسمرت فى مكانى وقد غشينى خوف ٠ ثم فطنت الى رجل يهبط السلم ببطء بالغ ، وهو يدمدم ويغمغم ٠ وما ان لمحنى حتى رفع رأسه ـ الذى كان يحمل قبعة بيضاء عريضة الحواف ـ فرأيت عدستى منظار خضراوين مغبرتين ، على وجه أحمر متغضن ٠٠ ومضى يهبط ، بينما

استأنفت الصعود ، وقد شعرت - دون ما مبرر - أن الرجل من أعضاء « **الأسرة** » !

وأخيرا وجدتنى أمام باب ، يحمل اسم « اميليا كانالى - سمسارة » . ووجدتنى أدق الجرس ، فاذا الرنين يدوى قويا بالرغم منى . وانبعث من الداخل عين الصوت الذى كان يصب السباب ، ثم فتح الباب ، فقلت متلعثما وقد استولى على خوف غريب : « أنا جيوفانى ايبيسكوبو ، الموظف .. جئت لاجل .. لاخطب ابنتك ! » .. **كنت أمام أم « جينيفرا » ، فاذا بها امرأة لا تزال محتفظة بجمالها ونضارتها ، وقد ازدان عنقها وأذناها ومعصمها وأصابعها بحلى ذهبية !..** وسواء ضحكت يا سيدى أو بكيت ، فالحق اننى بفطرتى خجول ، هياب !.. وقد أبدت السيدة اهتماما بوظيفتى ودخلى . وكانت ذات صوت جهورى ، وايماءات مترفعة ، ونظرات جريئة ، بل ضارية !.. وكانت تقترب منى - أثناء الحديث - وتتحسسنى ، فترفع فتلة خيط عن ثيابى ، أو تقصى ذرة غبار ، فكان هذا يضاعف من توتر أعصابى واضطرابى .

وتبينت أن الرجل الذى صادفته على السلم هو زوجها . وكم كان بائسا !.. كان يعمل فى الطباعة ، ثم أصيب بمرض فى عينيه منعه من العمل ، فأصبح يعيش عالة على زوجته وابنتيه ، ويلقى ازدراء وجفاء من الجميع ، اذ كان من المصابين بداء الخمر ، وما من فرصة سنحت له حتى كان يسرق من البيت ما يكفل له اطفاء ظمأه ، فكانت زوجته تقسو عليه وتطرده .

ومنذ اليوم الذى عرفته فيه ، وجدتنى مطية له ، مسوقا الى أن أتقبل صحبته ، فيتأبط ذراعى برغم محاولاتى التملص ، ويروح يبتسم فى وجهى .. وفى المرة الأولى ظل صامتا ، ثم قال فى النهاية ، ونحن فى عرض الطريق : « لكم أنا مغتبط .. اننى مغتبط حقا بك كزوج ابنتى ! » . حتى اذا بلغنا

حانة متواضعة ، قال : « لنشرب كأسا معا ! » ٠٠ وشعرت بأنه كان يرتجف ، ثم قادنى الى داخل الحانة ، وطلب زجاجة من النبيذ الأحمر ، قائلا : « لقد انقضت ثلاثة أيام دون أن أشرب ٠ أجل ، ثلاثة أيام ٠٠ لم أكن أملك دانقا ، وليس فى البيت من يعطينى درهما واحـــدا ٠ أتفهم ؟٠٠ وأنا لم أعـد أعمل ، بمثل عينى هاتين ٠٠ أنظر يابنى ! » ٠ ورفع المنظار ، فكأنه يرفع قناعا .. كانت مقلتـاه متورمتين ، محتقنتين ، مجردتين من الأهداب ، متقيحتين ، بشعتى المنظر ، حتى لقد شعرت بغثيان !

وأدركت أنه لم يكن والد ابنته « جينيفرا »! ٠٠ ولكنه راح يبدى اغتباطه بزواجى المرتقب منها ، واستطرد قائلا : « كان بوسع جينيفرا أن تكون مصدر السعد لنا ٠٠ كم من عروض قدمت لنا من أجلها ! .. هناك الامير « ألتينى » مثـلا ، فهو يلاحقنى منذ عهد بعيد ، وقد استدعانى الى قصره ذات مساء ـ منذ شهر ـ قبل أن تنتقل جينيفرا الى (تيفولى) ، وعرض ثلاثة آلاف ليرة ، وأن يفتح لها متجرا ٠٠ ولـكن اميليا تقول دائما : « لا ، لا ، ليس فى هذا صواب ٠٠ لقد زوجنا الابنة الكبرى ، ويجب ان نزوج الصغرى » ٠٠ وها قد وجدنا فيك الزوج اللائق ! »

وثمل فراح يضحك فى بلاهة ، والدموع تجرى من تحت عوينتيه على خديه ٠٠ حتى اذا آن أن ننصرف ، راح يتحسس جيوبه ، فبادرت الى دفع ثمن الشراب ٠ واذ غدونا فى الشارع ، مال على ، وقال وهو منكس الرأس : « اقرضنى خمس ليرات ، وسأردها اليك ! » ٠ ودسست المبلغ فى يده ، فاذا به يولينى ظهره ، وينطلق متواريا فى الظلام !

* * *

آه يا سيدى ، انه لامر يرثى له ! .. ما أتعس الرجل الذى

يلغ فى الرذيلة ، وهو يدرك انها رذيلة ولا يملك أن ينأى عنها ! .. **لقد شعرت بنفسى مشدودا الى ذلك التعس ، منذ تلك الليلة . لماذا ؟.. وبأى دافع خفى ؟..** لعل رذيلته هى التى كانت تجتذبنى اليه ، وقد بدأت تسيطر على أنا الآخر !.. أو لعل حظه التعس ، الذى كان مقدرا لى أنا الآخر – دون مناص – هو الذى كان يدفعنى اليه ! .. فمنذ تلك الليلة أصبحت أراه فى كل مساء ، وكان ينتظرنى عند باب عملى ، أو لدى باب مسكنى ، وهو يبتسم فى ذلة .. وكانت نظرة واحدة تكفى لأن تنبئنى بما كان يبتغى . **ولم أكن أملك أن أصده ، أو أرده ، أو أهينه ، أو أقسو عليه . أفكنت أنصاع لعبودية جديدة بعد ان تخلصت من فانزر ؟..** وكان يحملنى على أن أناديه « بابا » ، رغم أننى أيقنت من أنه لم يكن والد « جينيفرا » ، وأنه كان يعلم ذلك ، كما كانت تعلمه هى الأخرى !.. ثم ساقتنى المصادفة الى أن أكتشف انه كان يقف عند ناصية بعض الطرق المظلمة – فى بعض الليالى – يمد يده بالسؤال للمارة !

وأكثر من هذا : دخل يوما حجرتى ، بينما كنت فى الحمام ، فلما خرجت ، ألفيته بادى الارتباك . وما لبثت أن افتقدت منظارى فلم أجده .. وكنت كلما أمعنت فى البحث ، ازداد هو اضطرابا وارتباكا .. وأدركت انه قد سرق المنظار ، ولكننى جبنت عن أن أصارحه بذلك وأطلبه منه !.. كل ما استطعته هو اننى تركته ينصرف فى جفاء . ثم ندمت ، فحاولت ان أستدعيه ، ولكنه كان قد ابتعد !.. وقضى أربعة أيام أو خمسة دون أن يظهر ، ثم وجدته – ذات مساء – لدى باب مسكنى ، فما أن رآنى حتى انطلق يبكى ، وحاول ان يرتمى فى أحضانى ، ودموعه تنساب الى فمه !.. آه ياسيدى، أتعرف الجوع ؟.. أما قدر لك يوما ان ترى رجلا يكاد يموت

جوعا ، حتى اذا قدمت له طعاما ، انقض عليـــه يلتهمه فى نهم ؟٠٠ ألم تشعر بقلبك يذوب اشفاقا وأسى لذلك ؟

هكذا كان ذلك الشيطان !٠٠ كم من مرة رأيته يبكى ، وكم من مرة رآنى ــ بعــد ذلك ــ أبكى !٠٠ **كنا نتقاســم الآلام واللوعات من جرح واحد ، ومن نفس الهوان والذلة !٠٠ انه لم يكن أبا ((جينيفرا)) ، وما كانت فى عروقها قطرة واحدة من دمه !٠٠** وما شهدت مرة بريق الحنـان فى عينيهـا وهى تنظر الى هذا التعس، وانما كانت عيناها تطفحان بالاشمئزاز، والازدراء ، والكراهية !٠٠ آه ، يا لعينيها ! انهما تنطقـان بأشياء كثيرة ، فى آن واحد !٠٠ وقد يحدث أن تلتقيا بعينى، فاذا هما تومضان بوميض فولاذى منيع ، ثم اذا بهما تلينان فجأة ، وتفقدان صلابتهما !

ولكنى لن أحدثك عن حبى ، فلن يقدر لمخلوق ــ ولا لهـا هى ــ أن يعرف مدى حبى اياها ٠٠ **وان كنت ــ من ناحيتى ــ أعرف انها لم تحبنى قط ٠٠ ولا للحظة واحدة ، فهذا ماعرفته منذ البداية ٠** لا ياسيدى ، لن أحدثك عن حبى ، ولا هوانى ، ولا تعاستى !

ومع ان موعد الزفاف حدد ، الا اننى ظللت حريصا على أن أتكتم الأمر عن زملائى فى العمـــل ٠ فهجرت الأماكن التى كانوا يغشـــونها ، وهجرت النزل ، ورحت أتهرب منهـم ، وأكذب عليهم ٠ فمـــا نسيت قط أحاديثهم عن « جينيفرا » ومفاتنها ، واشتهائهم اياها ، وسخرياتهم منى ، واقتراحهم أن أتزوجها لتكون لهم جميعــا ، و ٠٠ « مؤسسة ايبيسكوبو وشركائه » !٠٠ ولــكن « جينيفرا » ما لبثت أن جاءت الى (روما) عندما اقترب موعد الزفاف ، وقد خرجت معها ومع أمها ــ ذات أصيل ــ فى مركبة للنزهة . وخيل الى أن كل أهل (روما) كانوا يتطلعون الى ، فازداد خجلى وارتباكى ٠٠ ثم

قدر لبعض زملائى أن يرونا ، فراحوا يتغامزون ، وأنا منكس الرأس .. وسرعان ما ذاع النبأ فى المكتب ، فانهـالت على النكات ، والسخرية . وقرأت فى العيون زراية واحتقـارا بالغين ، ولم يدخر أحد جهدا فىالنيل منى ، وأنا حائر مرتبك لا أدرى ماذا كان ينبغى على : **أأغضب ، أأندفع فى غيظى الى درجة الهياج ، أأنذرهم وأتوعدهم ، أألجأ الى القوة فأتشاجر معهم ؟!.. ولكنى - فى النهاية - لم أفعل شيئا ، ومكثت صامتا ، ساكنا !**

وفى ذات يوم ، أخذ رقيعان ممن فى المكتب يمثلان حوارا يدور بين قاض ومتهم يدعى « جيوفانى ايبيسكوبو » . فلما سأل القاضى المتهم عن مهنته ، قال : « رجل عديم الاحترام ! » .. وفى يوم آخر ، سمعت واحدا يسر الى آخر : **« ليست فى عروقه قطرة من دم ، فقد استنزف جيوليو فانزر القليـل الذى كان عنـده ، حين جرحه فى جبينـه ! »** .. تلك كانت الحقيقة !

ووجدتنى أبادر بالكتابة الى « جينيفرا » أفصم الخطبـة بيننا .. ولكننى سعيت اليها - فى اليوم التـالى - وكأننى مسوق بقوة خفية لا قبل لى بمقاومتها ، لازعم ان الخطاب كان .. مجرد دعابة !

* * *

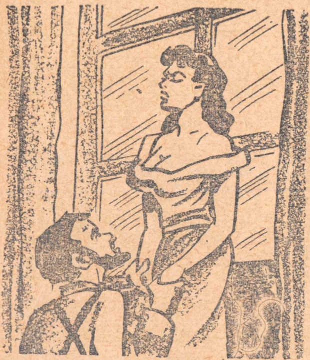
وعقد القران فى الاسبوع التالى .. ولم أكد أعى شيئا مما كان يدور حولى ، أما « جينيفرا » ، فكأنما دبت فيهـا نار ، وكانت عيناها تتألقان ببريق عجيب ، وقد حطت عليها جميع العيون ، وأحاطت بها الابتسامات !.. وانى لأذكر ان نوعا من الأسى الصامت راح يطعننى ، ويفرض على وعيى غشاوة .

على أننى لم أنعم بزواجى ولو أسـبوعا واحدا .. ولا الأسبوع الأول !.. اذ أن عروسى لم تنتظر يوما واحدا ، بل

انهـــا بدأت ـ منذ ليلة الزفاف ذاتها ـ مهمتها كجـلاد !..
ولو اننى عشت قرنا من الزمن ، لمـــا قدر لى ان أنسى تلك الضحكة المدوية التى انطلقت فى ظلام المخدع على غير توقع ، فأحالتنى الى تمثال من جليد ، يجلله الهوان ، اذ راحت تسخر من خجلى وحيائى ! .. ولقد حال الظلام دون أن أرى وجهها، ولكننى لمست ـ للمرة الاولى ـ فى تلك الضحكة اللاذعة كل ما انطوت عليه نفسها من خبث ، ومجون ، وقحة لم أكن قط أتوقعها !.. لقد خيل الى أن التى كانت تتنفس الى جـوارى أفعى تنفث سـمـا !.. ولم يقـو على الانة فؤادهـا شىء : لا خضوعى الصـــامت ، ولا اعجـــابى الأخرس ، ولا آلامى ولوعتى ، ولا دموعى .. **لقد حاولت جاهدا أن أصل الى قلبها ، ولكنها كانت تنصت الى فى وجوم ، ثم تنطلق فجأة بضحكة فاحشة ، لا تمت الى الانسانية بشىء ، فأجمد فى مكانى !**

لا ياسيدى ، اعفنى من المضى فى وصف هـذا الهوان !.. وفى ذات ليلة ، بعد حوالى شهرين من زواجنا ، تجلت عليها أعراض الحمل ، فكانت هذه البشرى مصدر فرح طاغ وسط حزنى القاتل .. ووجدتنى أركع أمامها ، أتوسل اليهــــا ان تؤكد لى صدق هذه المعجزة .. أن تؤكد اننى أصبحت أبا ! .. ليس بوسعك ياسيدى ان تدرك كنه الانفعالات غير العادية التى اجتاحتنى . تصور رجلا عانى كل ما يمكن ان يعانى من آلام فى هــذه الدنيا ، فلم يحظ لحظة بعطف من مخلوق ، بينما كان يطوى صدره على كنز زاخر من العواطف والخير.. **تصور أمل هذا الرجل ، حين يرتقب مخلوقا من دمه .. ابنا صغيرا ، لطيفا ، يستطيع أن يحبه وأن يروضه على أن يوليه مثل هذا الحب !.. كنت بحاجة الى ان أعثر على من يحبنى !**

كان ذلك فى شـــهر سبتمبر ، وقد رحت منذ ذلك الحين أعيش فى الأحــلام مع ابنى الجنين !.. ثم بدأت ألاحظ أن



زوجتى راحت تتبسط مع زميلى «دوبرتى» ، وان التقارب والالفة بينهما قدازدادا ، وانهما كانا يختليان ويتمازحان ، حتى فى الطريق ، فتتجه اليهما جميع الانظار .. ما أقسى الالم الملتاع الذى عكر صفو حياتى اذ ذاك ، فى الوقت الذى كانت الحياة تدب فيها فى ابنى الجنين ، ن أحشائها ! .. يا الهى ! لشد ما رحت أتعذب ! .. وفى ذات صباح ، اشتدت قسوة آلامى وشكوكى ، فاذا بى أستجمع شجاعتى ..وكانت جينيفرا تقف الى جوار النافذة ، واليوم يوم عيد ، وأجراس الكنائس تدق .. واقتربت من النافذة ، فلم تبد المرأة أى اكتراث بى ، بل انها لم تكن تشعر بوجودى ، فأخذت أتأملها .. ألم يخطر لك ، وأنت تطيل التطلع الى امرأة ، أنك تفقد كل شعور بالانسانية ، وبالروابط الاجتماعية ، وبالروابط العاطفية ، **فلا تعود ترى فيها سوى رمزا للشىء الذى يهبط بك الى الأرض ويمرغك فى التراب ..سوى الأنثى ،الحيوان المجسد ، والوحشية المتولدة عن الجنس !**

هكذا رأيتها ، فيا للحقيقة من بشعة ، فظيعة !.. ولكن تلك المرأة كانت تحمل فى أحشائها جنينا هو أسمى آمالى فى الحياة .. أجل ، لقد كنت أعبده قبل أن يرى النور !.. وقلت لها أخيرا : « هل بدأت تخونيننى فعلا يا جينيفرا ؟ .. هل أصبحت عشيقة .. لدوبرتى مثلا ؟ » . فنظرت الى فى غباء ، بينما كنت أرتجف بشدة ، ثم صاحت : « ماذا دهاك ؟

٠٠ أمجنون أنت ؟ » ٠ وركعت أمامهـــا ، متشبثا بأهداب ثوبها ، وأنا أهتف : « أتوســــل اليك يا جينيفرا أن تشفقى على !٠٠ انتظرى الى أن تضعى ذلك المخلوق المسكين ، ابنى البائس ! انه ابنى ، أليس كذلك ؟٠٠ ضعيه أولا ، ثم افعلى ما شئت ، فسأتحمل كل شىء ٠ **سأخلى الجو لعشـــاقك اذا ما أتوا ٠٠ بل اننى لن أتوانى عن ان أنظف أحـذيتهم ـ اذا ما أمرتنى ـ وأن أصبح خادما لك ولهم ٠٠ ولكن ، انتظرى الى أن تضعى لى ابنى أولا ! »** ٠٠ واذ مضيت فى توسـلاتى ، أشـــاحت عنى ، وغادرت الحجرة ، وتركتنى عـــلى الأرض راكعا !

ما قيمة توسلاتنا ودموعنا ياسيدى !٠٠ اننا ضـــعفاء ، لا نملك أن نغير المكتوب ! .. كل ما استطعته هو أن رحت أتمنى موت هذه المرأة ٠٠ ولـــكنها لم تمت ، وانمـــا عاشت لتتحكم فى حياتى وحياة ابنى ، وتدفعنا الى مصـــيرينا !٠٠ ابنى ! أجل ، كان ابنى من دمى فعـــلا ، وكانت على كتفه ـ حين ولد ـ شامة تشبه الشامة التى أحملها على كتفى ،فكأنها اشارة من الله الى انه ولدى !

٭ ٭ ٭

وتحول بيتنا ـ بعد مولد الصغير ـ الى موطن سوء واثم ٠ وكثيرا ما كنت أصادف عند بابى ـ اذ أعود الى الدار ـ رجالا أغرابا ٠٠ ولم يعد هوان « باتيستنا » ـ زوج أمها ـ شـــيئا يذكر اذا قيس بهوانى ! .. أن المسيح كان خليقا بأن يذرف كل دموعه على وحدى ، لفرط تعاستى !٠٠ وكنت أتحمل كل ذلك دون أن أشكو ، عندما كان « شيرو » فى أعوامه الأولى ٠ **ولكننى لم أكد أرى أن وعيه بدأ يتفتق ، وما كدت ألمح بوادر ذكاء ثاقب ، لماح ، حتى أصبحت أتوقع أن أسمع منه ـ ذات يوم ـ السؤال القاسى الرهيب ، فماذا أفعل ؟٠٠ كيف أخفى**

عنه الحقيقة ؟

ولم تكن أمه تعنى به البتة ، بل أنها كانت تنسى وجوده ، فاذا أشعرها به ضربته ! .. وكنت أتغيب عنه معظم وقتى فى عملى ، فلم أستطع أن أحقق له الحياة الناعمة التى كنت أرجوها • حتى اذا اشتد عوده ، ألحقته بالمدرسة ، فكنت أرافقه كل صباح اليها ، ثم أعود لأصطحبه منها عند انصرافه• وسرعان ما تعلم القراءة والكتابة ، وبز كل رفاقه ، وأصبح يتقدمهم بسرعة مذهلة ، فقد كان فياض الذكاء • وكنت أشعر أحيانا – وهو يرمقنى بعينيه السوداوين ، الواسعتين – بأن فى أعماقهما أسى وقلقا !•• ولكن الأيام كانت تحمل لى مزيدا من الذلة ، **فقد ذاعت شهرة ((سنيورا ايبيسكوبو)) ، وازدادت همومى ، وأصبحت هدف السخرية المقذعة من زملائى •• ثم فصلت من عملى – أخيرا – لسوء سمعتى !••** ولم أجد من يشفق على ، بل ان جينيفرا استولت على ما كان قد تبقى لى من نقود ، فافتتحت بها متجرا للخردوات ،أصبحت أمها وأسرتها تتكسب منه ، بينما اعتبرت أنا كما مهملا •• « باتيستا » جديدا ! .. وكم من ليال أغلق باب دارى فى وجهى ، فكنت أقضى الليل الى جواره ، والجوع يفتك بى ، وكل ألوان العذاب والهواجس وأفكار السوء تضنينى !

وجربت كل عمل •• حتى حمل الأثقال • وكنت أعود الى دارى – فى المساء – مرهقا ، منهوك القوى ، فما أن أودع « شيرو » فراشه ، وأطمئن الى انه قد نام ، حتى أغادر البيت، لأنضم الى « باتيستا » فى احدى الحانات •• ولكنى لم أجد يوما مصداقا لما يقال من أن « الخمر تغرق الهموم » !•• ومع ذلك فقد رحت أسرف فى الشراب ، وأتردد مع « باتيستا » على أحقر الحانات •• وما لبث « باتيستا » أن أصبح شبه أعمى ، وانهارت صحته •• وواتاه الموت بطيئا ، بطءا معذبا

مضنيا !٠٠ يا لفظاعة ما عانى !

* * *

ودنت النهـــاية ٠٠ ففى ذات مســاء ، كنت و « شيرو » و « جينيفرا » نجلس الى المـائدة ، واذا بها تقول : « هـل علمت أن فانزر قد عاد ؟ » ٠ ولم يشـحب وجهى ، اذ كان الشحوب قد أصبح يلازمه باستمرار ٠ ولكنى أذكر ان لسانى عصانى وأبى أن ينطق بكلمة واحـدة ٠ وراحت هى تحدجنى بنظرات ثاقبة ، ثم قالت تغيظنى : « هل نسيت فانزر ، برغم انه قد ترك لك تذكارا بديعا على جبينك ؟ »٠ **واذ ذاك اتجهت عينا ((شيرو)) الى جبينى ، وخيل الى أنه يريد أن يتساءل : ((كيف ؟ ٠٠ ألم ترو لى من قبل أن الجرح من أثر صدمة ؟ ٠٠ فلماذا الكذب ؟))** ٠٠ وعادت جينيفرا تذكر أنهـا صـادفت « فانزر » فى ذلك الصـباح ، وانه كان قد رحـل الى أمريكا حيث أصـــاب ثروة ٠٠ وكانت طيلة الحـديث ترمقنى وعلى شفتيها ابتسامة لا تفسير لهـــا ٠ بينما كنت أقرأ فى عينى « شيرو » انه أدرك اننى كنت أتألم ، وانه كان يتألم لألمى !

وعادت تقول : « انه لن يلبث ان يأتى ! » ٠٠ وكان المطر ينهمر فى الخارج ٠٠ وفجأة ، فقدت كل احساس بالواقع ، واذا بى محوط بذلك الجو الذى كان يعزلنى عن العـالم ، والذى حدثتك عنه من قبـــل ، لأجد نفسى أتأمل المسـتقبل خلال الحاضر ٠ أتفهمنى ؟٠٠ كأنما ما قالته جينيفرا لم يكن بالأمر الجديد !٠٠ وعينا ابنى لا تكفان عن تأمل الجرح الذى فى جبينى ، بالرغم منه٠٠ **وغمرنا صمت ممض ، كان «شيرو» ـ خلاله ـ بادى القلق والتململ ٠ وفجأة ، رن جرس الباب ، فالتقت نظراتى بنظرات ابنى ، بينما هتفت جينيفرا : « انه فانزر ٠٠ اذهب فافتح له الباب ! »**٠٠وذهبت ، وأعضائى هى التى تتحرك ، دون ما ارادة منى !

ودخل فانزر ·· ولا حاجة بى الى أن أصف لك لقاءنا ، فهو ككل لقاء بين صديقين قديمين ·· وكان يرتدى معطفا واقيا من المطر ، أخذ الماء يتصبب منه ، وكان يبدو أكثر سمنة وضخامة وسلطانا من ذى قبل ، وحول أصابعه بعض خواتم ذهبية ، وفى ربطة عنقه دبوس ذهبى ، وفى صدره سلسلة ذهبية ! .. هكذا عاد السارق الى وطنه !

وقال وهو يتأملنى : « لقد اكتهلت قبل الأوان ·· على النقيض من سنيورا جينيفرا ، فهى لا تزال غضة ! » ·· والتفت الى « جينيفرا » وهو يقول : « تكلم بصراحة ، ألم أكن أنا الذى دبرت هذا الزواج ؟·· أتذكر ؟ » · وانطلق يضحك ، فضحكت « جينيفرا » ، وحاولت ـ أنا الآخر ـ ان أضحك ·· كنت قد اعتدت ان أقوم بدور « باتيستا » على ما ظهر !·· وكان « شيرو » يرقب كلا منا ، فى تلك الأثناء ، وقد تبدت عليه الجهامة . **فلما بسط له ((فانزر)) يده ، أعرض عنها ، وانكمش فى مقعده ، فاذا بأمه تصفعه فى عنف ، وتصيح بى : ((أخرجه من هنا !)) . فنهضت منصاعا ، بينما نكس ((شيرو)) رأسه على صدره ، ولكنه لم يبك قط !··** حتى اذا خلوت اليه فى حجرتنا ، رحت ألاطفه غاية وسعى ، وقد غشيت الدموع عينى وأنا أرى الأثر الأحمر الذى أحدثته الصفعة على خده ! ·· وعبثا حاولت ان أحمله على الكلام ، فقد لاذ بصمت عنيد ·· أبدا لم أر ملامحه بذلك الشكل من قبل !

ونأى عنى ، ولاذ بفراشه ، فرحت أخلع عنه ثيابه ، وما لبث ان أمسك بصدغى ، وهتف فى أسى : « أبى ! أبى ! » · ولم يزد ، بل اندس بين الأغطية ، وراحت أسنانه تصطك ، ولم يفلح أى جهد فى التسرية عنه !·· وحاولت ان أحمله على النوم ·· وكان المطر ينهمر بعنف فى الخارج ·· وغشينى خوف غريب ، لم أقو على دفعه ! .. ولم أدر كم مضى من

الوقت ، ولكنى لم ألبث أن سمعت جينيفرا تنادى : « تعال يا جيوفانى ، فقد انصرف فانزر ! » . وانصعت للأمر ، فتسللت من الحجرة ، وأنا أرجو ان لا يكون شيرو قد فطن الى شيء ! .. ولكن فانزر لم يلبث ان عاد ، اذ لم يقو على مبارحة الدار تحت المطر الدافق ، فقالت لى جينيفرا : « اذهب فاستدع له مركبة ! » . **أفهمت ؟ .. كان على أن أعود لخدمته من جديد ؟ .. ونهضت فى عناء لم يغب عن الاثنين ، فيا للقسوة !**

وفى اللحظة التى هممت فيها بالخروج الى الشارع ، سمعت صوت شيرو ينادينى . وبدأت أشعر بالواقع ، فعدت أنهب السلم ، وهتفت جينيفرا : « أعدت بهذه السرعة ؟ » . ومنعتنى صفعة قوية من يدها عن الاجابة . فهرعت الى ابنى ، وسألته وأنا أسرع اليه : « هل ناديتنى ؟ » . وكان يجلس على السرير ، وكأنه كان يرهف أذنيه لسماع ما كان يجرى .. وقال : « لا ، لم أنادك » . **ولكننى أيقنت انه لم يكن صادقا .. ولم يلبث أن تساءل فى قلق وتوجس : « ولكن ، ماذا فعلت أنت الآخر ؟ .. لماذا تلقيت صفعة ! » ..** وكان كالمحموم . ولم يلبث أن أسلم رأسه للوسادة وهو يتنهد ، ويرمقنى ، وكأنه يقول : « انه لم ينصرف من الدار بعد ! »

★ ★ ★

ومنذ تلك الليلة ، لم تبرحنى الهواجس المنذرة بالشر .. وكنت أشعر أحيانا اننى أرقى شيئا فشيئا نحو المجهول الذى كان يقترب من وعيى وادراكى فيمسهما ويذكيهما ، ثم لا يلبث أن يهوى ويغيب فى الظلام ، قبل أن أدرك كنهه وحقيقته .. أتفهمنى يا سيدى ؟ .. تصور أنك تقف على حافة بئر لا تقوى على سبر غورها ، ويصل الضوء الطبيعى الى منسوب معين من جوف هذه البئر ، ولكنك تعرف أن تحت هذا المنسوب ، فى الظلمات المتراكمة ، يختبىء شيء مجهول ، رهيب .. شيء

لا تراه ، ولكنك تحس بوجوده بطريقة مبهمة !٠٠ ولا يلبث هذا الشيء أن يرقى رويدا ، حتى يصل الى حــدود الضوء ٠ **ولكنه لا يعلوها ، فأنت لا تستطيع أن تتبينه بجــلاء ٠٠ ثم يمضي فى الصعود قليلا ، فتراه ، ولكنه سرعان ما يتراجــع ويتركك فى حيرة وقلق !**

ألا تفهم ؟٠٠ على كل حال ، فان « فانزر » لم يلبث أن أقام معنا ، مستأجرا احدى غرف مسكننا ، وسرعان ما صار سيد البيت ، وأصبحت مجرد عبد يرتجف ذلة ٠٠ أفتراني بحاجة الى أن أشرح لك ذلك ؟٠٠ أينبغى ان أصف لك آلامى وأشجان شيرو وحنقه الصامت ؟٠٠ **لقد كنت أتمنى أقوى السموم حتى لا أسمع نهنهته وهو يبكى فى جــوف الظلام ، وقد تصلب جسده فى السرير، وراحت دموعه تهمي مدرارا ، فى كل ليلة !٠٠** آه يا سيدى ، لو أنك رأيت هــذا الطفــل يبكى ، لادركت كيف تبكى الروح !

صبرا ياسيدى ، فقد قاربنا النهاية ٠٠ فى أى يوم نحن ؟ فى السادس والعشرين من يوليو ؟٠٠ حسنا ، اذن فقد وقعت الخاتمة فى التاسع من الشهر !٠٠ كنت فى مؤخرة المتجر ـ الذى عثرت على عمل فيه ككاتب للحسابات ـ عندما أقبــل شيرو بعد ظهر ذلك اليوم ، وقد شحب وجهه ، وبدا كطيف مضطرب، وقد تفصد العرق من جبينه، وأخذت شفتاه ترتجفان .. **على أنه ـ رغم ذلك ـ لاح وكأنمــا اسـتبد به نشــاط ضار وحشى ، وراح يهتف : ((أبت ، تعال ٠٠ تعال معى !)) ٠** وخففت اليه ، وخرجت معه ، فرحنا نسير حتى بلغنا شارعا مقفرا ، واذ ذاك قلت له : « لماذا لا تتكلم ؟٠٠ ماذا جرى ؟ » ٠ ورددت السؤال مرتين أو ثلاثا ، وأنا فى فزع ، فقال : « تعال معى ٠٠ لقد ضربها فانزر ٠٠ ضربها ! »

وخنق الانفعال صوته ، بينما راح يغذ السـير ، ويجرني

وراءه ٠٠ وبعد جهد ، عاد يقول : « لقد رأيته بعينى ، من غرفتى ٠٠ سمعتهما يتشاجران ٠٠ سمعت كلامهما ٠٠ أغرقها فانزر سبابا ، ونعتها بأسماء ٠٠ آه ، كل الاسماء ، أتفهمنى ؟ ٠٠ ورأيته ينقض عليها ، وقد رفع قبضتيه وانهال بهما على وجهها ، وصدرها ، ومنكبيها ، وكل مكان ، بقوة ! » ٠٠ وتهدج صوته وتحشرج ، واستولى عليه انفعال غريب ، حتى خشيت ان يهوى على الارض ٠ ولكنه تمالك نفسه وقال : « أتظن انه كان ينبغى ان أختبىء ؟ ٠٠ لا ، فلست أخاف ٠٠ لقد تقدمت منه فصرخت فيه ، ولكمت ساقيه ، وعضضت يده ٠٠ ولم أوت قوة تمكننى من أكثر من ذلك ٠٠ وألقانى أرضا ، ثم انقض عليها ثانية ، وشد شعرها ٠٠ أواه ، ياللجبان ! » ٠واختنق صوته ، ولكنه ما لبث ان استطرد قائلا: **« ياله من جبان! ٠٠ لقد راح يجرها ــ بشعرها ــ نحوالنافذة ، ليلقى بها منها ٠٠ ولكنه جبن وراح يردد : « لسوف أقتلك ! » ٠ ثم بارح المنزل ٠٠ آه ، ليتنى أوتيت سكينا ! »**

وعاد الانفعال يخنقه ٠٠ وراح يترنح وهو يسير ،فحاولت أن أستوقفه ريثما يهدأ روعه ، ولكنه قال : « أسرع ، فلا بد من ان نصل فى الوقت المناسب ٠٠ لو انه رجع لقتلها ! ٠٠ لقد تملك الذعر أمى ، فراحت تعد حقيبة لتبرح (روما) توا ، واعتقد انها ستذهب الى خالتى فى (تيفولى) ٠ اسرع لنصل قبل فوات الأوان ! ٠٠ ألن تفعل شيئا ضده ؟ » ٠٠ **فلما لم أجب ، هتف : « أبت ، أخائف أنت ؟ ٠٠ ما اراك خائفا منه ! »**

ووصلنا الى البيت أخيرا ، فاذا به مقفر ، تسوده سكينة مريبة ٠٠ وقادنى شيرو الى قاعة الجلوس ، حيث أرانى المقاعد مقلوبة ، وآثار دم على الارض ٠٠ وهتف : « لقد رحلت ٠٠ فماذا تراك فاعلا ؟ » ٠٠ وهنا كان الانفعال قد بلغ به أقصاه،

فخارت قواه ، وأسرعت اليه ، فهوى مغشيا عليه بين ذراعى . وتملكنى الجزع ، فحملته الى سريره ، وعكفت أعنى به حتى أفاق ، فرحت أقـول له : « انك محمـوم ، ولابد من ان تستريح ، وسوف أستدعى الطبيب .. أأخلع عنك ثيابك ؟ .. سأفعل برفق ! » . وكنت أتلطف ، وكان الامور تجرى فى مجراها العادى ، ولكنى كنت أدرك ، بل أوقن من انها لم تكن كذلك .. **كنت أسـائل نفسى ، فى دخيلتى : « ماذا يحدث لو أن فانزر أقبـل الآن ؟ » .. واستولت على فكرة راحت تدق يافوخى فى اصرار ، وقد أخذ الذعر - الذى تراكم فى أعماقى فى بطء - يدب فى جميع أوصالى !**

وقال شـيرو : « لا ، دعنى فى ثيـابى ! » .. ولم يكف سؤاله عن التردد فى ذهنى : « ماذا تراك فاعلا ؟ » .. وبدا لى أن من المستحيل أن أفكر فى أى عمل ؟ .. كان لابد من ان أسرع باستدعاء طبيب لشيرو ، ولكن ، أكان شـيرو يدعنى أخرج ؟ .. واذا وافق ، فهل يبقى وحيدا ؟ .. وهب أننى قابلت فانزر على السلم ؟ .. أو انه جاء وأنا غائب ؟

* * *



وجلسنا ننتظر ، دون أن نتكلم .. وكان يخيـل الينـا أننـا نسـمع ألف صـوت ، وما كنا نسمع - فى الواقع - سـوى اندفاع الدماء فى عروقنا .. ولم أعد أرى من الواقع المحيط بى غير أشـباح .. حتى شجونى بدت لى أخيلة وأوهاما .. ولم أدر كم مضى من الوقت ، ولكنى فطنت على صـوت شـيرو

يقول : « بى ظمأ ! » . فسرت الى المطبـــخ لأجلب له ماء ، **واذ ذاك التقطت أذنى المرهفة صـوت مفتاح يدور فى قفـل الباب ، فجمدت فى مكانى ، وقد استحال على أن أتحرك ..**

وما لبثت ان سمعت الباب يفتح ، وانبعث صـوت فانزر يصيح : « جينيفرا ! » . ولم يجبه سوى الصمت ، فتقـدم خطـوة ، وعاد يهتف : « جينيفرا ! » . ولم يجبه سـوى الصمت .. وبدا أنه راح يبحث فى الحجرات .. واستحال على أن أتحرك ، استحالة تامة . وفجأة سمعت صرخة من ولدى .. صرخـــة مدوية ، ضارية ، انحلت لدى سـماعها مفاصلى المتجمدة . ووقعت عيناى على سكين ، فامتدت اليهـا يدى فى الحال .. **واستولت على ذراعى قوة خارقة ..وشعرت باعصار جائح يدفع بى الى حجرة ابنى ، فرأيته متعلقـا فى تشبث أهوج بجسد فانزر ، ورأيت يدى فانزر على ابنى ..**

وغاصت السكين فى ظهره ثلاث مرات أو أربعا ، الى مقبضها !

يا للدم !.. أمن المعقول ان يكون فى جسم امرىء كل هذا البحر من الدم ! .. اننى لم أجد موطئا لقدمى ، فاذا بحذائى يتحولان الى اسفنجتين تمتصان دمه !..

آه ياسيدى ، لا تتركنى وحيدا ، فلسوف أموت قبـل ان يهبط المساء ! ابق لتغمض عينى اذا ما مت !.. ولكن ، لا.. لن أكلفك هذا العناء ، فسأسبل جفنى بيدى قبل ان أموت ! .. أترى يدى ؟.. **لقد مستا انسانى عينى ذلك الرجل ، فقد أردت أن أفقأهما ، لأن شيرو راح يتقلب على فراشه ويصيح: « أبت !.. انه ينظر الى ! » .. ولكن انســان العين اليسرى استعصى على !**

أفتظن أن السعادة واتتنى بعد ذلك ؟ .. كلا ، فقد مات « شيرو » تحت وطأة الحمى والانفعالات القاسية ، ففقدت بموته كل صلة تشدنى بالحياة !

أرأيت ياسيدى ماجرى لى ؟!..



صيد الميكروبات

حلقة جديدة من الصراع الدائر بين العلم والميكروبات، مأخوذة - في هذه المرة - عن:

العالم البحاثة الكبير:
دافيد ديتز

تلخيص : فوزى الشنتوى

صراع لا يهن .. ضد أضأل الاحياء !

◆ ان الصراع الهائل بين الانسان و « الميكروبات » لا يكاد يهن أو ينتهى ، بل انه يزداد احتداما واتساعا بتقدم العلم .. ذلك لأن هذه الأحياء الدقيقة ـ التى لا تراها العين ـ من أنشط الأحياء فى عالمنا ، ومن أغربها حياة وأطوارا ، ومن أشدها غموضا وابهاما .. وقد عرضنا عليك ـ فى العدد الماضى من « كتابى » ـ صورا من جهاد الرواد الأوائل الذين طرقوا أبواب عالم « الميكروبات » ، ثم اقتحموه اقتحاما ، غير مبالين بما كانوا يلقونه من عنت واضطهاد ـ أيام كانت الكنيسة تفرض قيودا ظالمة على العلم ـ وغير مدخرين وسعا ، أو ضانين بتضحية ، عندما كانت البحوث تتطلب منهم المغامرات ..

وفى الصفحات التالية ، نقدم لك حلقة جديدة وأخيرة من هذا الموضوع الطريف ، نقلا عن البحاثة : « دافيد ديتز » .

« ميكروسكوب » للطبيب القلق !

◆ **لعل** أثمن هدية قدمتها زوجة الى زوجها ، هى ذلك « الميكروسكوب » الذى أهدته « آمى » الى زوجها « **روبرت كوخ** » ـ فى عيد ميلاده الثامن والعشرين ـ أملا منها فى أن تحول ذهنه عما كان يفكر فيه من أسفار لارتياد العالم ، وعما كان يعتزمه من انصراف عن مهنة الطب التى مارسها منذ تخرجه فى جامعة « جوتنجن » سنة ١٨٦٦ . والواقع ان الترحال والمغامرة كانا من أعز أحلام « كوخ » منذ صباه . ومع ان « آمى » لم ترتض الزواج منه الا بعد ان وعدها بالتخلى عن تلك الاحلام ، الا أن الهواية المكبوتة ظلت تعمل فى أعماقه فتورثه السأم ، وتباعد بينه وبين الاستقرار . **فلم يلبث ان ضاق بعمله كطبيب بمستشفى الامراض العقلية بهامبورج ، وتحول الى ممارسة المهنة كطبيب عام فى الريف .**

ولم تكن « آمى » غافلة عن أمره .. كانت تشعر انه يرتضى هذا اللون من الحياة من أجلها ، فى حين ان نفوره منه كان يجعله منصرفا عنه ، لا سيما وقد كان يشعر بأنه يتخبط بين الأمراض ، فهو يعالجها دون ان يعرف كنهها وأسبابها ،

ويعيش في الريف بعيدا عن المكتشفات الحديثة .

عصي رفيعة .. خلال العدسات

◆ **وكان** قد انتهى الى قرية (ولنشتاين) ـ ببروسيا الشرقية ـ عندما قدمت اليه « آمي » ذلك الميكروسكوب ، عسى ان يرتاد خلاله شيئا من معالم ذلك العالم المجهول ـ عالم الميكروب ـ فيشغل به عن ارتياد العالم الاكبر .. عالم البشر . **وكان اختيارا موفقا ، فسرعان ماشغف «كوخ» بميكروسكوبه ، فانصرف اليه بكل روحه وعقله ، حتى لقد كان ينسى طعامه وراحته ليخلو اليه !**

وكانت أوربا بأسرها ترزح ـ في تلك الاثناء ـ تحت وطأة مرض « الجمرة » الذى كان يفتك بثروتها الحيوانية **(والذى تحدثنا عن طرف من قصته ، في سياق الحديث عن «باستور» في العدد الماضي)** . فانصرف « كوخ » الى بحث دماء ضحايا ذلك الداء ، خلال ميكروسكوبه .. وكشفت له العدسات الدقيقة عن أجسام غريبة تشبه العصي الرفيعة ـ في دماء الحيوانات المريضة ـ فلم يدر أحية هي أم ميتة ، وما تعليل وجودها .. وقرأ ان العالمين الفرنسيين « دافين » و « رايبه » قد سبقاه الى مشاهدتها وقالا انها ميكروبات « الجمرة » ، ولكنهما لم يملكا دليلا يثبت ذلك ، فسخر منهما الاطباء ، ولم يصدقهما سوى « باستور » . لذلك عزم « كوخ » على التحري ، وأقبل على فحص عشرات العينات من دماء الحيوانات السليمة ، فلم يعثر على أثر لتلك العصي الرفيعة .

« كوخ » يكتشف ميكروبات « الجمرة »

◆ **ولم** يقنع « كوخ » بهذا ، فلجأ الى الجرذان البيضاء ، ولقح ذيولها بدماء الحيوانات المريضة .. وفي الصباح التالي ، وجد الجرذان ميتة ، وقد استحال بياضها الناصع الى زرقة محتقنة . وعكف على تشريح واحد منها فوجد ان الطحال

متضخم محتقن ‥ **وشق كلا من الطحال والكبد ، وفحص عينات من الدم ، فوجد العصى الرفيعة متكاثرة بالملايين ‥ وكان هذا أعظم دليل على انها أجسام حية تتكاثر !‥**
وكرر التجربة مرارا ، فلم يزدد الا يقينا ٠ ولكنه لم يقنع ، حتى استطاع بعد محاولات أن يعزل العصى الرفيعة ، وانصرف الى مراقبتها ـ خلال الميكروسكوب ـ ساعات طوالا ، حتى رآها تزداد طولا ، ثم تنقسم الواحدة الى اثنتين ، ثم الى أربعة ، وهكذا حتى تبلغ الملايين !‥ ولم يعد بعد ذلك سبيل الى الشك !

ومن هذه العينة المعزولة حصل على سلالات متعاقبة حتى توصل الى السلالة الثامنة التى لم تعرف الحيوان ولا عاشت عليه ، وانما كانت تعيش فى بيئة اصطنعها لها من دموع الثيران . **ومن هذه السلالة أخذ « كوخ » عينة فحقن بها فأرا سليما ، واذا بأعراض المرض تظهر عليه بعد ساعات ٠وكشف الميكروسكوب عن تكاثر العصى فى دم الفأر ٠**

وبعث هذا الاكتشاف فى نفس « كوخ » جرأة وأملا ، فادخر من دخله البسيط ما مكنه من شراء عدد من الأغنام والماشية ، أجرى عليها تجارب أكدت له ان العصى ميكروبات مرض واحد ‥ هو « الجمرة » ٠

هكذا يتحايل الميكروب كى يعيش

● بقى أمر واحد حار « كوخ » فى تعليله ‥ لقد تبين أن ذلك الميكروب ضعيف ، لا يصمد للظروف غير الملائمة ، كشدة البرودة أو شدة الحرارة ، فكيف يحتمل تقلبات الجو ـ فى الفصول المتعاقبة ـ فى الحقول والمراعى ؟

وابتكر « كوخ » صندوقا للحضانة ، يستطيع ان يتحكم فى درجة حرارته بوساطة مصباح بترولى صغير . وأخذ يعزل فيه عينات لفترات متباينة ، وفى درجات حرارة مختلفة ٠ وفى

أحد الايام ، أخرج من صندوق الحضانة عينة كان قد تركها فيه منذ أربع وعشرين ساعة . **وشد ما كانت دهشته حين لم يجد العصى الرفيعة التى ألفتها عيناه ، وانما وجد مكانها أشياء باهتة اللون ، بيضاوية الشكل** . وخيل اليه – فى بادىء الامر – أن ميكروبات غريبة تسربت الى العينة، ولكنه حين كرر الفحص بدقة ، وجد أن تلك الاجسام كانت تحتل أمكنة العصى ، وأن بعضها داخل فيما تبقى من هذه العصى . فهل تحولت ميكروبات « الجمرة » الى هذا الشكل الجديد ،لتواجه درجة الحرارة التى كان يحفظها فيها ؟ .. وهل هذه هى معجزة ميكروب « الجمرة » لمغالبة تقلبات الجو والاحتفاظ بالحياة ؟



العلامة ((كوخ))

وحفظ العينة شهرا ، فظلت الميكروبات على شكلها . ثم وضعها فى دمع عين الثيران لتتغذى على ما فيه من مواد ، وعاد يفحصها ، فاذا بها قد تحولت الى ميكروبات « الجمرة » التى عهدها .. العصى الرفيعة ! واذا التجربة تثبت انها قد احتفظت بقواها الفتاكة !

وبعد تجارب طويلة ، تأكد « كوخ » من ان ميكروب الجمرة يظل حيا كالعصا طالما كانت الحيوانات – التى يتسرب اليها – حية . فاذا ماتت ، تحول فى جسمها الى تلك الحبات البيضاوية التى تصمد لتقلبات الجو وللبيئات المغايرة لطبيعتها . وتظل هكذا الى أن تلتقى بجسم حى فتفقس وتعاود نشاطها وتكاثرها

وفتكها • وبهذه الطريقة كانت الحقـــول والمراعى تظل ملوثة بالوباء •

« كوخ » والعلاقة بين الميكروبات والأمراض

• وفى سنة ١٨٧٦ ـ وقد بلغ كوخ الرابعة والثلاثين من عمره ـ نزح الى جامعة (برسلو) ليعلن بالبراهين المؤكدة ان الميكروبات هى التى تسبب الامراض •• وكانت مفاجأة علمية ضخمة ، من طبيب ريفى مغمور • ولكن التجارب التي عرضها على العلماء ، والقرائن الدامغة ، جعلتهم يسلمون بصحة نظريته •• ودوت اكتشافاته فى كافة أرجاء أوربا ، حتى لقـد شعر « باستور » بالحسد والغيرة منه . ورأت السلطات الالمانية أن تتيح له أسباب مواصلة بحوثه ، فعينته طبيبا لمدينة (برسلو) .

ولكن كوخ لم يستطع ان يطيق حياة المدن طويلا ، فسرعان ما عاد مع زوجته الى القرية المتواضعة (ولنشتاين) •• **وهناك عكف على بحوثه ، فاســـتطاع ـ فى الفترة بين سنتى ١٨٧٨ و١٨٨٠ ـ أن يبتكر طريقة استخدام الأصـــباغ لاظهار أدق الميكروبات ، وان يبتدع طريقة لالتقـــاط صور الميكروبات ، خلال عدسات الميكروسكوب** •واستطاع أنصاره اقناع السلطات بأن تعينه فى المعهد الصحى الامبراطورى فى (برلين) ،حيث وجد معملا مزودا بأدق الأجهزة ، وحيث توفر له مجال اجراء التجارب على أوسع نطاق •

وذاعت نظرية العلاقة بين الميكروبات والامراض ، وشـــاع اســـتعمال الميكروسكوبات ، وظهرت نظريات خرافية مبنية عليها •• وكانت أخطر هذه النظريات ان الميكروبات المحدثة للأمراض نوع واحد ، ومن ثم فمن الممكن ان يستخدم عقـار واحد لعلاج كل العلل • **ولكن « كوخ » ظل مؤمنا بأن النـوع الواحـد من الميكروبات لا يحدث الا مرضا واحـدا** •• وكانت العقبة الكبرى فى طريق اثبات ذلك ، **تعذر عزل نوع واحـد**

من الميكروبات دون ان يختلط به شيء من الانواع الاخـــرى السابحة فى الهواء ٠

المصادفة تخدم العلم

• **وهدته** المصادفة وحدها الى ما كان يرجو ! ٠٠ ففى ذات يوم ، وجد على منضدة المعمل قطعة من بطاطس مسلوقة ،وقد انتشرت عليها نقاط متباينة الالوان . ففحصها ليتبين أنها مستعمرات ميكروبية حطت على البطاطس من الهواء . والتقط منها عينة من لون واحد عرضها تحت الميكروسكوب ٠ فاذا هى تتألف من ملايين من الميكروبات ، ذات شكل واحد ، فكلها متشابهة تمام الشبه ٠٠ وعندما فحص عينة من لون آخر ، وجد انها تتألف ـ هى الاخرى ـ من ملايين من الميكروبات ، كلها متشابهة تماما ، ولكنها تختلف فى الشكل عن سابقتها ٠٠ وبفحص الالوان الاخرى ، تبين أن كلا منها مستعمرة لنوع من الميكروبات ٠ وهكذا كانت ثمة عدة أنواع من الميكروبات، كل منها معزول عن ســواه ٠ **فاستنتج ان السطوح الصلبة المتماسكة تسمح للميكروبات بأن تنمو وتتكاثر فى مستعمرات تضم كل منها نوعا واحدا لا دخيل بينه من الانواع الاخرى ٠** أما فى الســوائل ، فتختلط الانواع المختلفــة من الميكروبات بحيث يتعذر فصل بعضها عن بعض ٠

وبعد تجارب عديدة ، ذهب بهذه النتيجة الى العالم الالمانى « رودولف فيرشو » ـ الذى كان من أكبر الباحثين ـ وأطلعه على الطريقة التى اكتشفها لعزل الميكروبات والحصــول على أنواعها نقية ٠

ولم يفت انكار « فيرشو » من عضد « كوخ » ، فغادره وهو يفكر فى استخدام طريقته هذه للتوصل الى ميكروب الســل الذى كان مسئولا عن حوالى ١٥ فى المائة من الوفيـات فى العالم ٠

« كوخ » يكشف عن ميكروب السل

• **وكان** ميكروب السل من أكثر الميكروبات استعصاء على العلماء ، نظرا لدقة حجمه ، حتى لقد كان يتعذر رؤيته خلال الأجهزة التى كانت شائعة اذ ذاك . على أن « كوخ » لم يلبث ان حصل على عينة من جسم شاب عامل كان ضخم الجسم قوى البنية ثم انهارت صحته فجأة واشتدت به نوبات السعال، وأخذ يشعر بوخزات مؤلمة فى صدره ، حتى اذا نقل الى المستشفى ، لم يطل به العمر لأكثر من أربعة أيام .. وقدر لكوخ ان يفحص جثة الشاب ، فظهر ان كل عضو فى جسمه كان مزركشا بحبيبات صغيرة سمراء تميل الى الصفرة . فأخذ عينات من الأنسجة المريضة وفتتها ، ثم حقن ببعضها حيوانات للتجارب ، كما وضع بعضا آخر تحت أقوى العدسات . وعاش أياما نسى فيها كل شىء — حتى الطعام — ليحدق خلال العدسات .. ولكنه لم يظفر بشىء .

وأخيرا ، عثر فى قطعة من نسيج الرئة على شىء غريب .. على عصى متناهية الدقة ، لا يزيد طول الواحدة منها على واحد من ١٥٠٠٠ من البوصة . ولم تكن هذه العصى مستقيمة — كميكروب الجمرة — وانما كانت مقوسة ذات انحناءات . وفى تلك الاثناء ، كانت أعراض السل قد ظهرت على الحيوانات التى كان قد حقنها بالأنسجة المريضة . وعثر فى كل حيوان على تلك العصى المقوسة التى كانت تتكاثر بسرعة مذهلة .

ولم يقنع « كوخ » بذلك ، بل راح يطوف بكل مستشفيات (برلين) ليحصل على أنسجة وأعضاء من جثث ضحايا السل، **فكان يعثر فى كل مرة على ذلك الميكروب الدقيق . وبعد جهود طائلة ، وفق الى عزله للحصول على سلالات نقية منه ، وذلك بأن استخدم خليطا من ((سيرم)) الدم و ((الجيلاتينة))** . ثم حقن حيوانات سليمة بالسلالات النقية التى حصل عليها ،

فأصيبت بالسل .

ولم يكتف بهذا ، وانما سعى الى اثبات ان الميكروب يصيب الاحياء عن طريق الهواء كذلك . فحبس بعض الخنازير الهندية فى صندوق محكم ، ثم أطلق فى هذا الصندوق بخارا يشتمل على الميكروبات ، فان هى الا أيام حتى أصيبت الخنازير بالسل ونفقت .

يبحث عن ميكروب « الكوليرا » فى الاسكندرية

وفى ٢٤ مارس سنة ١٨٨٢ ، ألقى « كوخ » خطابا فى أحد الاجتماعات الطبية فى برلين ، عرض خلاله خلاصة بحوثه فى السل ، فكان لهذا دوى ضخم فى العالم كله . وتدفق العلماء — من كافة أرجاء العالم — على معمل « كوخ » ، وانهالت عليه آيات التقدير والتكريم . ولم ينقذه من هذه الضجة التى كان يمقتها ، سوى تفشى وباء « الكوليرا » .. **وكانت (الاسكندرية) مسرحا لأشد هجمات الوباء ، فتسابق الفرنسيون والألمان فى اكتشاف ميكروب « الكوليرا »** . ووصلت الى الثغر المصرى بعثة فرنسية من « اميل رو » و « توييه » — تلميذى باستور — وبعثة ألمانية من « كوخ » ومساعده « جافيسكى » .

وما لبث الوباء ان انحسر عن الثغر كما قدم ، ولكنه فى رحيله سلب العلم أحد جنوده ، وهو « توييه » الذى فتكت به « الكوليرا » .. وعادت البعثتان الى دولتيهما ، وقد حمل « كوخ » معه عينات كثيرة . وكان قد عثر على ميكروب يشبه حرف « الواو » الصغيرة ، ولكنه لم يتمكن من اثبات انه ميكروب « الكوليرا » . لذلك سعى الى الهند — حيث يقيم الوباء بصورة دائمة — وعكف على البحث والدراسة ، ثم عاد ليعلن أن **((الكوليرا)) لا تصيب الاحياء الا اذا انتقلت اليهم ميكروباتها** ..وتلقت الأوساط العلمية هذا الكشف باعجاب،

ومنحه امبراطور ألمانيا وسام التاج ذى النجمة .

البحث عن ميكروب « الدفتريا »

• **بكل** هذه الجهود الجبارة وضعت أسس علم الميكروبات ، والوقاية من الامراض وعلاجها . واتسعت بحوث العلماء ، وكان فى مقدمتهم تلاميذ كل من « باستور » و « كوخ » . وبالرغم من ان النعرات القومية لم تجعل بين الفريقين تعاونا ، الا انهما التقيا فى دراسة « الدفتريا » .. الداء الذى كان يفتك بالاطفال فى ضراوة . وانصرف الى هذه الدراسة كل من « اميل رو » ـ فى فرنسا ـ و « اميل بهرنج » و « فردريك ليوفلر » فى ألمانيا .

وكان المرض غامضا ، وميكروبه محيرا . واستطاع ((ليوفلر)) أن يعثر فى حنجرة المصابين على ميكروب بشكل العصا الضخمة ، عزله ، ولقح به . ولكنه لاحظ أنه لم يكن يتكاثر بالصورة المعهودة عن الميكروبات ، كما ان مقامه بالحنجرة كان محدودا ، وبأعداد قليلة .. وعبثا حاول ان يتقدم فى بحثه ، فاكتفى بأن حدس ان الميكروب ينتج سما يتسرب الى بعض أعضاء الجسم ويفتك بالمريض . واعترف بفشله فى عزل السم ، وان أوصى زملاءه من الباحثين بالبحث عنه .

وفى فرنسا ، عثر « رو » و « بارسين » على الميكروب الذى وصفه « ليوفلر » ، ولاحظا أيضا انه يقيم فى الحنجرة وحدها . ولم يجدا بدا من التسليم بأن حدس زميلهما الالمانى صحيح ، فراحا يبحثان عن السم الذى يفرزه ذلك الميكروب العجيب . وبعملية تقطير فذة ، استخلصا مادة عنبرية اللون ، أظهرت التجارب أنها تقتل من يلقح بها وتحدث عين ظواهر ((الدفتريا)) ، فكان هذا دليلا علميا على صدق حدس « ليوفلر » .

« بهرنج » يصل الى مصل ضد « الدفتريا »

• **وفي** هذه الأثناء ، كان « **بهرنج** » عاكفا فى معمل « كوخ » ببرلين على البحث عن عقار يشفى من مرض « الدفتريا » ٠ واستطاع أخيرا ان يجد الدواء فى أحد مركبات اليود ، ولقح حيوانات ـ مما سبق ان مرضت ثم شفيت ـ بميكروب الدفتريا ، ثم بسم الميكروب ، فلم يصبها سوء ٠٠ **مما نم عن أنها أصبحت ذات مناعة ضد الدفتريا ، أى أن مصل دم هذه الحيوانات يحتوى على شىء يكسبه مناعة ضد الداء** ٠ لذلك استخلص بعض هذا المصل ، وخلطه بالسموم التى يفرزها ميكروب الدفتريا ، ثم حقن أرانب هندية غير محصنة بالخليط ، فلم تمت ٠٠ أى ان المصل الذى أخذ من الدم أفسد مفعول السم ٠

وبارشادات « كوخ » ، حصل « بهرنج » على دم من حيوانات جديدة ، ثم مزجه بالسم وحقن الحيوانات عينها بالمزيج ، فنفقت بعد أيام تحت وطأة المرض اللعين ٠ **وبات من الواضح ان مصل دم الحيوانات المحصنة هو الذى يحتوى على المادة الواقية ، فأطلق عليه اسم ((أنتيتوكسين)) ، أى ترياق السم ٠**
واستمر « بهرنج » فى تجاربه ، فاذا به يتعرض لصدمة قوية ٠ اذ تبين ان الحيوانات المحصنة لم تلبث ان فقدت مناعتها ٠ ولم يكن من المعقول ان يحقن الاطفال بالترياق الواقى مرة كل بضعة أسابيع !٠٠ ولكن « بهرنج » تبين ـ من ناحية أخرى ـ ان الترياق يشفى المريض من الدفتريا ٠

وفى ليلة عيد الميلاد من سنة ١٨٩١ ، أجريت أول تجربة للترياق على الانسان ٠ فحقن به الاطفال المصابون بالدفتريا بمستشفى « برجمان » ببرلين ، واذا أغلبهم يشفون من الداء ، رغم انهم كانوا على حافة الأبدية ٠ وسرعان ما أقبلت المعامل على انتاجه ٠ وأدخل « رو » الفرنسى تحسينات عليه

واستخدمه الاطباء فى باريس فى فبراير سنة ١٨٩٤ . وهكذا قدر للعلم ان يتغلب على ميكروب « الدفتريا » .

عالم روسى يبحث عن الميكروبات

• **واذ** بدأ الناس يعرفون كيف يتم تحصين الاجسام ضد الأمراض ، دخل ميدان البحث العالم الروسى **«ايلى متشنيكوف»** الذى ولد فى جنوب روسيا ، فى سنة ١٨٤٥ . **وكان شديد الطموح منذ نشأته ، حتى لقد كان يقترض الميكروسكوبات من أساتذته ـ قبل ان يبلغ العشرين من عمره ـ ويكتب الرسائل العلمية** . وتعلم فى جامعة « خاركوف » ، ثم التحق بجامعة « ورزبورج » بألمانيا . ولكن طموحه طغى على دراسته ، فظل كالنحلة يتنقل بين العلوم والجامعات ، وهو دائب السعى لتسجيل اكتشاف براق يهز العالم ، ويضفى عليه أحد المناصب الجليلة .

وكان قد عين أستاذا بجامعة « أوديسا » ، عندما بهرته اكتشافات « باستور » ، وما ظفر به العالم الفرنسى من مجد . فتحول ـ فى سنة ١٨٨٣ ـ الى صياد ميكروبات . ومن المسائل التى استرعت انتباهه ، تلك الخلايا الغريبة التى تسكن أجسام الاحياء وتظل مطلقة السراح ، تتنقل من مكان الى آخر ، كالخلية المعروفة باسم « اميبا » . وفى أول عهده بها أطلق عليها اسم « الخلايا الرحالة » .

متشنيكوف يكتشف دور كريات الدم البيضاء

• **واستعان** « متشنيكوف » بالأحياء المائية لتحقيق دراسته ، وأحضر يرقة « نجمة البحر » الشفافة ، الشبيهة بوعاء زجاجى يكشف عن كل ما بداخله . وغمس قطعة صغيرة من مادة حمراء فى اليرقة ، وبمعونة عدسة مكبرة ، راقب الخلايا الرحالة وهى تتحرك ، وتلتهم المادة الحمراء . وظن



« ايلى متشنيكوف » .. اكتشف سر كريات الدم البيضاء

ان عملية الالتهام جزء من عملية الهضم ، ولكن فكرة جديدة أومضت فى ذهنه : **لماذا لا تلتهم الخلايا الميكروبات أيضا ؟**

وشعر بنوع من اليقين حين تبين ان هذه الخلايا هى التى تقى نجمة البحر من الميكروبات ، وهى عين كريات الدم البيضاء فى الانسان . **فهى السر الذى يقى الجنس البشرى من ضراوة الميكروبات ، وهى الدرع المعروف بالحصانة والمناعة ضد الاصابات بالامراض** . وتذكر ما يحدث عندما تنغرس شظية أو شوكة فى اصبع انسان ، ويهمل اخراجها ، فتحاط بالقيح المؤلف من كريات الدم البيضاء .

واندفع الى حديقة منزله ، وأحضر أشواك بعض الزهور ، وغرسها فى جسم اليرقة ، فلم تمض فترة حتى شاهد كريات

الدم البيضاء تزحف ، فتطوق الاشواك • وعلى الفور قفز الى النتائج التى نسجها الهامه •• وفى مؤتمر علمى عقد بمدينة (مسينا) ـ بصقلية ـ وضم عـددا كبيرا من علماء أوربا ، أعلن « متشنيكوف » فكرته البارعة ، فقوبلت بالاعجاب . وانتقل « متشنيكوف » بعـد ذلك الى (فيينا) حيث باحث علماءها ، وأشركهم معه فى ابتكار اسمى علمى لاتينى لهـذه الخلايا ، وأطلقوا عليهـا اسم « فاجوسيت » : أى الخلايا الملتهمة !

ومنذ تلك اللحظة ، صارت كريات الدم البيضاء هى الشغل الشاغل لمتشنيكوف ، وعكف على اجراء مئات التجـارب ، فاستعان ببراغيث الماء الشفافة ، ورأى خلاياها الرحالة وهى تهاجم الخمائر وتأكلها . وشاهد أيضا حالات تأخرت فيهـا الخلايا عن التهام الخمائر مما أتاح لهـا التكاثر ، ثم الفتك بالبراغيث • واطلع على بعض تفاصيل المعارك التى تنشب فى جسم كل كائن حى حين تهاجمه الميكروبات •

الكريات البيضاء هى الدرع الواقى

• **ودوت** أنبـاء بحوث « متشنيكوف » فى شتى أنحـاء العـالم ، ورأى فيها الناس بريقـا خلابا ينذر بالقضـاء على الامراض والاوبئـة • وسرعان ما انهـالت التبرعـات التى استخدمت فى انشاء معمل للأبحاث فى مدينة (أوديسا) ، وعين «متشنيكوف» مديرا له . **ولكنه أعلن أنه باحث نظرى ، وأن دراساته لا تتيح له اجراء تجـارب ، مما أثار عليه حنق الكثيرين ، فلم يلبث ان هجر روسيا ، ليواصل دراسـاته فى معهد « باستور » بباريس •**

وكان العلماء قد انقسموا الى فريقين : فريق يعتقـد ان كريات الدم البيضاء هى الدرع الواقى الذى يلتهم ميكروبات الامراض كمـا بين « متشنيكوف » ، وفريق يرى ان الدم كله

هو الدرع الواقى ٠٠واضطر العالم الروسى الى ان يثبت نظريته بطريقة علمية واضحة ٠ وكان قد قنع - حتى ذاك الحين - باجراء تجاربه على الاحياء المائية الشفافة ، فأقدم على تحصين خنزير هندى بميكروبات أحد الامراض ، ثم حقنه بعد أسبوع بالميكروبات المحدثة للمرض ٠ **واستخلص الكريات البيضاء من دمه ، وشاهدها خلال الميكروسكوب وهى تلتهم الميكروبات القتالة ٠ ثم شق بطن الخنزير وأخرج كمية من الكريات البيضاء ٠** فسرعان ما انفجرت - لانها لا تحتمل الحياة خارج الجسم - فخرجت من جوفها الميكروبات . ولكى يثبت « متشنيكوف » ان هذه الميكروبات لم تكن ميتة ، حقن بها خنزيرا غير محصن ، فظهرت عليه أعراض المرض ، ومات ٠

دراسة الشيخوخة وأثر الميكروبات فيها

◆ **وهكذا** أثبت العالم الروسى نظريته ٠ ثم حاول التوسع فى الكشف عن أسرار مناعة الجسم ، فأجرى التجارب على نفسه ، ولكنه لم يصل الى نتائج حاسمة ، فتحول الى دراسة موضوع الشيخوخة بالاشتراك مع العالم الفرنسى « رو » ٠ **وراحا يدرسان على القردة كيف يحدث مرض تصلب الشرايين، الذى يصحب الشيخوخة ٠ وكانت دراستهما هذه متصلة بعالم الميكروب ٠** فقد كانا يعرفان ان الاصابة بالزهرى من مسببات تصلب الشرايين ، فنقلا عدواه الى القردة ، واكتشفا أن العدوى تظل موضعية لمدة لا تقل عن أربع وعشرين ساعة ، ثم يسرى الميكروب فى الجسم كله . فابتكر متشنيكوف دهان « كالومال » ، الذى كان يقضى على كل أثر للمرض ، اذا ما دلك به مكان الاصابة ٠

« روس » يكتشف ميكروب « الملاريا »

◆ **ولم** يكن من الهين على الباحثين ان يعرفوا عالم الميكروب

وعلاقته بالامراض ، ثم يخلفوا مرضا بغير بحث عن ميكروبه . فاندفعوا الى كل علة معدية يسعون الى الظفر بميكروبها ، فاكتشفت عشرات منها . وكان من أغربها ميكروب حمى « الملاريا » الذى اكتشفه الجراح الفرنسى « لافران » فى عام ١٨٨٠ ، فكان ميكروبا فريدا فى سرعة تحولاته ، وما يتخذه من أشكال . فهو عبارة عن شىء باهت تشوبه نقط سوداء ، ويتحول الى دوائر فى كريات الدم الحمراء التى يفجرها ، فيحدث بالمصاب تلك الرعشة العنيفة المعروفة عن « الملاريا » . **واذ يتخلص الميكروب من سجنه ، يتحول الى شكل الهلال ، ويرسل عددا من الشعيرات أو السيقان الطويلة ، تمتد فى كل اتجاه ، فتخاله اخطبوطا صغيرا .**

وقد استرعت أوصافه انتباه الدكتور « **رونالد روس** » بالهند ، فأراد ان يرى هذا الميكروب الذى كان يفتك بملايين الهنود حوله . ولكنه أخفق ، فكتب الرسائل ليثبت خطأ الباحث « لافران » ، ثم زار بريطانيا وقابل الدكتور «باتريك مانسون » .. وفى معمل هذا العالم ، تعلم كيف يرى ميكروب الملاريا فى دم المصابين . وأوحى اليه « مانسون » **ان نوعا معينا من البعوض ينقل الميكروب حين يمتص دم المرضى فى وجبة ، ثم يمتص دم الاصحاء فى وجبة تالية .**

ورغم أن كلا منهما كان يجهل الكثير عن البعوض وأنواعه ، فان « روس » عاد الى الهند ، وكل أمله أن يظفر بذلك النوع من البعوض . ولم يكن باحثا منطقيا ، بل كان صيادا يضرب فى كل صوب ، ولكن التجارب كانت تسفر عن عجز الانواع التى كان يحصل عليها ، عن نقل الميكروب .. وظل على هذه الحال عامين ، ثم قدر له أخيرا ـ فى أغسطس سنة ١٨٩٧ ـ أن يعثر على نوع من البعوض أسماه « الاسمر » . وأطلق عددا منه على خادمه « محمد خان » حين أصيب بنوبة الحمى ، حتى

اذا ارتوى البعوض من دم المريض ، حبسه « روس » فى قوارير ، وأخذ يتناوله بعوضة اثر أخرى ، فيفحصها ويشرحها ، دون ان يعثر للميكروب على أثر • ولكنه – فى اليوم الرابع بعد امتصاص دم المريض – شاهد فى بعض البعوض جسيمات مستديرة سوداء • غير ان الحر المزهق للأنفاس جعله يرجىء تشريح البعوضة الاخيرة الى اليوم التالى •

هكذا تنتقل عدوى « الملاريا »

◆ **وكان** الحظ هو الذى أوحى اليه ان يفعل ذلك • فلما شق بطن البعوضة الباقية – فى اليوم التالى – كشف له المجهر عن ان البقع السوداء عادت الى الظهور بعدد أوفر وحجم أكبر ، وأيقن انها ليست سوى ميكروب الملاريا •• وراح يصيد – مع تابعه « محمد بكس » – كل ما يستطيعان من ذلك النوع من البعوض ، فلم يجدا للميكروب من أثر الا فى الاناث دون الذكور •

وانتقل « روس » بأبحاثه خطوة أخرى • فقد عرف ان الطيور تصاب بالملاريا ، فأحضر عددا من مرضاها ، وأطلق عليها بعض البعوض الذى لم يمتص دماء من مرضى البشر ، فلم تنقض أيام حتى ظهرت النقط السوداء على جدران بطون البعوض •• وفى هذه المرة ، سجل « روس » طريقة نمو الميكروب وتكاثره فى البعوض ، يوما بعد يوم • **وكشفت تجاربه عن ان الطيور لم تكن تصاب بالملاريا ، الا اذا امتصت دماءها أناث البعوض التى تكون قد امتصت من قبل دماء المريضة • كما اكتشف ان الميكروب ينتقل من البعوضة الى الجسم عن طريق فمها •**

وكانت هذه بداية شهرة واسعة لرونالد روس • ولكنه لم يكن من الباحثين الراسخين ، فاكتفى بما أصاب من مجد ،

وترك بقية البحث الى ان ساق القدر البحاثة الايطالى « **جيوفانى باتيستا جراسى** » ليتمه . . ولم يكن « جراسى » قد سمع كلمة واحدة عن « روس » ، ولكن « الملاريا » كانت تفتك بآلاف من مواطنيه ، ولاحظ أن فى ايطاليا بقاعا مليئة بالبعوض ، ولكنها غير موبوءة بالملاريا . فى حين ان ثمة بقاعا أخرى بها بعوض وملاريا معا . وانتهى الى ان ثمة نوعا معينا من البعوض هو الذى ينقل الحمى .

« جراسى » يبحث عن بعوضة « الملاريا »

◆ **ولما** كان « جراسى » أستاذا لعلم الحيوان بجامعة روما ، فقد انتظر حتى انتهت السنة الدراسية ، وبدأت الاجازة الصيفية ، فجمع معداته وذهب الى منطقة المستنقعات التى فر منها الناس . وكان ـ على نقيض « روس » ـ خبيرا بأنواع البعوض الموجود فى ايطاليا . **وكان واثقا ان بحوثه ستكلل بالنجاح العاجل اذا هو قصر تجاربه على البعوض الذى يمتص الدماء .**

وفى المناطق الموبوءة وجد بعوضا مشهورا باسم «الزانزورين» وبالملاحظة والدراسة ، تبين ان هذا النوع متوفر فى كل المناطق الموبوءة بالمرض ، ولم يجده فى سواها .. **ذلك هو النوع المعروف باسم « الانوفيل » ، الذى يعيش فى المستنقعات ، ويحصل على طعامه من المدن سواء من الناس أو حيواناتهم .**

وبعد عدد من التجارب البارعة ، أثبت « جراسى » ان أناث بعوض « الانوفيل » هى التى تنقل مرض الملاريا من المرضى الى الاصحاء . فسجل تاريخ حياة هذه البعوضة ، ووضع أسس القضاء عليها .

« ريد » يحارب الحمى الصفراء

◆ **وكان** الصراع ضد الحمى الصفراء لونا جديدا لا يجد فيه الباحث المخلص مفرا من ارتداء ثياب القتلة . ذلك لأن

الحمى الضارية لا تصيب الا الناس ، والعامل الناقل لهـا فيروس لا يمكن رؤيته بأقوى الميكروسكوبات ، وأبرع الحيل . **وكان الأمل الوحيد فى النجاة من الاصابة بالمرض الفتاك هو الهرب من المدينة كلهـا بمجرد ظهور اصابة واحدة فيهـا .** فان الحمى لا تفرق بين غنى وفقير ، أو نظيف وقذر ، بل تفتك بكل من يعترض سبيلها ، وبطريقة معجزة تخترق كل السدود والحواجز ، وتهبط ، وتنقشع بطريقة كان العلم يجهلها كل الجهل .

كان هـذا هو الموقف حين سرى وباء الحمى الصفراء فى (سان كريستوبال) بكوبا فى عام ١٩٠٠ . وهنـاك تساقط آلاف من الجنود الامريكيين ، بعد ان ساد بشرتهم ذلك اللون الاصفر ، وانتابهم الفواق (الزغطة) ، والقىء الاسـود ، والعيـون الحمراء . فكانوا يموتون فى كل يوم بالعشرات . حتى ضباط أركان الحرب الذين اشتهروا بالنظافة ، وأحيطوا بأشـد ألوان العناية ، تسـاقطوا بأعداد وافرة أثارت جزع السلطات .

وفى ٢٣ يونيه ، عين الدكتور « **والتر ريد** » رئيسا لبعثة هدفها دراسة المرض ، وانقاذ الجنود من فتكه . وقدم «ريد» مع مساعديه الدكتور « جيمس كارول » و « جس لازيار » ، وضم الى بعثته « ارسـتيد أجرامونت » أحـد أهالى كوبا . واندفع الأربعة يفحصون جثث الضـحايا ، ويشرحونها . وقضوا شهرا يحاولون العثور على الميكروب ، أو اكتشـاف طرق العدوى .. دون جدوى !

ولم يجد « ريد » مفرا من الالتجاء الى أقوال النـاس لعل فيهـا ما ينير له الطريق . **وكان أكبر مرشديه طبيب كهل يدعى « كارلوس فينلى » . وكان من أهـل كوبا ، فلم يجـد انسانا يصغى اليه ، وهـو يردد فى اصرار أن الحمى الصفراء**

تنقل من فرد الى آخر بواسطة البعوض . وأخيرا ، أصغى اليه « ريد » ، اذ رأى أدلته على صحه نظريته ، وتناول منه عددا من البويضات المستطيلة - التى أكد انها ستتحول الى البعوض الناقل للحمى الصفراء - فوضعها « لازيار » فى جو دافىء ، واذا بها تتحول الى بعوض جميل المنظر ، ويحمل على ظهره خطوطا فضية . والواقع ان حديث « فينلى » لم يكن جديدا على « والتر ريد » ، بل انه داعب عقله بعد أيام من وصوله . كان يرقب الممرضات وهن يتلوثن من بقايا الجثث ، ومع ذلك فان أيا منهن لم تكن تصاب بالمرض . وكان يرقب الاصابات بين الناس ، فيرى واحدة تظهر فى منطقة ، فلا ينقضى أسبوعان أو ثلاثة حتى تظهر فيها عشرات الاصابات التى لا تلبث ان تقفز الى الاماكن المجاورة . وأمام هذه الملاحظات لم يجد مفرا من التفكير فى أن « الفيروس » ينمو فى احدى الحشرات التى تقفز به من مكان الى آخر ، وانه يحتاج الى وقت حتى يكمل نموه وتكاثره ، ويصلح لاظهار أعراض المرض على الناس . وكل هذا يرجح ان « فينلى » على صواب !

مرض لا يصيب الا الانسان

◆ **وكان** الاستنتاج سهلا ، ولكن كيف يمكن اثباته ، وقد فشلت كل الحيل فى نقل المرض الى أى الحيوانات ، بعد ان ثبت ان الانسان وحده هو الذى يصاب به ؟.. **وكان نقل المرض الى أى انسان جريمة قتل لا يبررها طب أو بحث** .. وأرقام الوفيات خير دليل على ان أمل النجاة ضعيف ، فالمرض يفتك بنصف المصابين فى أهون الحالات . وأمام فيض الوفيات الدافق ، لم يجد « ريد » مفرا من الاقتناع بأن تضحية عدد قليل من الناس هى السبيل الوحيد لانقاذ المئات من الآخرين .. وكان قراره بمثابة حكم بالاعدام على أعضاء بعثته ، فهم أول فوج يجوز ان تجرى عليه التجارب القاتلة ، وهم أول

قربان يقدم للبعوض المسمن على دماء المصابين بالمرض الفتاك ٠ وتبادل الجميع النظرات ، فأبدوا اســـتعدادهم لتلقى لدغات البعوض ٠

واستدعى « والتر ريد » الى (وشنطن) ، فأصدر تعليماته السرية الى أتباعه ٠ وبعد أيام أطلق « لازيار » أناث البعوض ـ الفضى الاشرطة ـ على المصابين بالحمى الصفراء ، ثم جمعها فى القوارير ٠٠ وانتظر أسبوعين، جمع خلالهما بعض المتطوعين من أهالى (كوبا) ، ثم أطلق عليهم البعوض ٠٠ ولـكن واحدا منهم لم يصب بالمرض القتال ، ممـــا جعله يرتاب فى صحة النظرية ٠ ولم يؤخذ « جيمس كارول » بالنتيجة الفاشلة ،بل طالب بأن يتغذى البعوض بعدة حالات ـ منها الخطرة ، ومنها البسيطة ـ وان تتغذى البعوضة الواحدة على أكثر من حالة ٠

واختار بعوضة امتصت دماء أربع حالات ، فوضـــعها على ذراعه ، وأحس بحمتها وهى تنغرس فى جلده ، ورأى جسمها، وهو ينتفخ من دمه ٠ ومضى يومان ، فأحس بالتعب ، وعـــدم القدرة على زيارة عنابر المرضى ، وفى المساء تحولت عيناه الى لون الدم ، واحتقن كل وجهه ، وأصيب بالصداع ٠ وتكررت التجربة على جندى آخر ، فأصيب بالاعراض ذاتهـا ٠ وعاش الاثنان فترة على حافة الموت قبل ان يتم لهما الشفاء ٠

٠٠ وقتلت الحمى « لازيار »

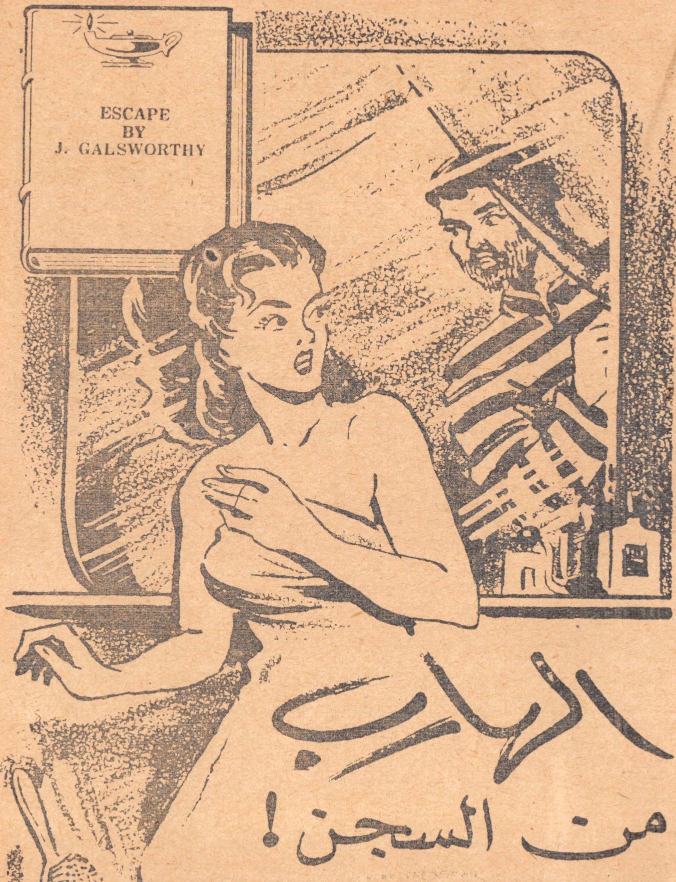
◆ **على ان** هــــذه النتائج لم ترض « لازيار » ، فان كلا من المتطوعين كان يكثر من زيارة المنـاطق الموبوءة بالمرض ، فمن الجائز أن تكون العـــدوى قد انتقلت اليهمـــا بغير لدغـات البعوض ٠ وواصل تجاربه لتغذية أناث البعوض بدم المرضى، الى أن كان يوم ١٣ سبتمبر ، حين وقفت على يده بعوضـــة شاردة استهان بأمرها ، وتركها تأخذ نصيبها من دمه ، فكان في هذه الاستهانة كارثة له ٠ اذ لم تنقض خمســة أيام حتى

أصيب بالمرض . **وكانت حالة قاسية ، لم تفد فيها أية عناية ، فلم يلبث ان مات في ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٠٠ .**

وأثارت الحالة اهتمام الجنرال « وود » - قائد الجيش الامريكى فى كوبا - فلما عاد « ريد » من وشنطن ، أعد له القائد كل التسهيلات حتى يوقن من ان البعوض هو الناقل للمرض ، كما رصد مبلغا من المال لاغراء المتطوعين على السماح للبعوض بأن يلدغهم .. وبهذا المبلغ أنشأ ريد « معسكر لازيار » فى بقعة منعزلة ، ضمن فيها أن لا يتأثر الناس بالعوامل الاخرى التى قد تكون سببا فى الاصابة بالمرض . وهناك أقيمت أكواخ لا تسمح للبعوض الشارد بالدخول اليها . وحاول ان يجرب على نفسه ، ولكنه أقنع بأنه تجاوز الخمسين من عمره ، وان اصابته ستكون خطرة .

وفى ذلك المعسكر ، أجرى عشرات التجارب البارعة التى أثبتت ان الحمى الصفراء لا تنتقل من شخص مريض الى آخر سليم الا عن طريق لدغ البعوض . ففى أحد هذه الاكواخ ، نام عدد من المتطوعين عراة فى فراش ملوث كل التلوث ببقايا من قتلهم المرض .. ومع ذلك لم يصب واحد منهم ، لأن البعوض كان بعيدا عنهم !.. أما حين تعرضوا للدغات البعوض ، فان نقمة المرض سرعان ما حاقت بهم .

وتمت تجارب « والتر ريد » وزملائه ، فدوت نتائجها فى العالم أجمع ، وعرف كل انسان ان فى القضاء على البعوض المعروف باسم « ستيجوميا » قضاء على الحمى الصفراء .. **على ان « ريد » لم يعش ليرى انتصاره الباهر ، ففى عام ١٩٠٢ أصيب بالزائدة الدودية ، وأجريت له جراحة كانت خاتمة حياته .**



تمثيلية اجتماعية للكاتب الانجليزى المعروف:

جون جالسورثى

قصة رجل اهتدى الى نفسه !

◆ عرف عن الكاتب الانجليزى المبدع ((جون جالسويرثى)) ولعه بمعالجة المشكلات الاجتماعية الناشئة عن سوء فهم المجتمع للعدالة .. لذلك كانت معظم مسرحياته تدور حول « السابقة الأولى » لمن يسوقه الحظ الى السجن ، وحول سوء المعاملة فى السجون ، وعواقب نزمت القضاة والمحلفين فى تطبيق نصوص القانون .. والمسرحية التى نلخصها لك اليوم ، من هذا القبيل : لقد فر سجين من سجنه ، لأنه كان يؤمن بأن العقوبة التى قضى بها عليه أكبر من ذنبه .. وأوشك أن ينجو أخيرا من مطارديه ، لولا ان اهتدى الى نفسه .. الى ضميره !

ان الموضوع طريف ، وأطرف منه ان ((جالسويرثى)) اتبع فى الكتابة منهجا فنيا جديدا .. فقد جعل المسرحية من « تمهيد » وفصلين ، تضمنت تسعة مشاهد متتابعة ، مما يجعل المسرح فى حركة وتغير وتنوع باستمرار ، طيلة المدة التى تستغرقها المسرحية .

متنزه (هايدبارك) بلندن ، فى احدى أمسيات الصيف .. فتاة تجلس على أحد المقاعد العامة ، ينم مظهرها عن انها من بائعات الهوى .. واذ تضيق بهذا الجزء من المتنزه ، لخلوه من الرواد ، وتهم بمبارحة مكانها ، يفد ((مات دينانت)) ، وهو شاب رياضى ، لاح من ثيابه انه كان يشهد سباق الخيل . فتحاول الفتاة ان تتصيده ، وتسأله ثقابا لتشعل سيجارة ، وتستدرجه الى الحديث ، فيستجيب فى غير اكتراث :

مات : ألا تحبين الخيل ؟.. انها أبدع مافى الدنيا !

الفتاة : أبدع من النساء ؟

مات : فيما عداك !

الفتاة : أصادق أنت ؟.. يبدو أنك لا تحب النساء

مات : لست أحبهن كثيرا .. واذا شئت الحق ، ففيهن كثير من الرذيلة اذا قستهن بالخيل !

الفتاة : ومن الذى يبث الرذيلة فيهن ؟

مات : كلكن تتهمن الرجال ، ولكن ٠٠ هل تصدقين ذلك ؟
الفتاة (متضاحكة) : الا يبث الرجال الرذيلة ٠٠ حتى فى الجياد ؟

مات : ما رأيت أشد تمردا من جواد غير ذلول
الفتاة : ليس هناك ما هو أشد جموحا من امرأة غير ذلول !
مات : ليس للنساء ما للجياد من عذر ، فقد اعتدن ان يكن أليفات منذ كانت « حواء » تقدم الشاى الى « آدم » !

وتحاول الفتاة ان تحمل الشاب على أن يصحبها الى بيتها ، فيعتذر ، وينصرف٠ واذ ذاك ، يفد أحد رجال البوليس السرى محاولا القبض عليها بتهمة محاولة استدراج الشاب ٠ ولكن الشاب يمر بالمكان ثانية ــ فى تلك اللحظة ــ فتستشهد به الفتاة ٠ ويدافع الشاب عنها ٠

رجل البوليس السرى : لقد رأيتها تغويك ٠٠ كما رأيتها تغوى غيرك من قبل
الشاب : لا شأن لى بما سبق ، ولكنك لم تر اغواء فى هذه المرة ، فهلا تركت الفتاة ؟ .. انك تتجاوز واجبك

رجل البوليس السرى : وما أدراك بواجبى ؟٠٠ اذا لم تشأ الانصراف ، فاتبعنا الى قسم البوليس !
الشاب : أليس من حق الناس ان يكلم بعضهم بعضا ؟٠٠ أقسم بشرفى ان هذه السيدة لم تضايقنى !
رجل البوليس السرى : اذا لم تكف عن التدخل فى واجبى ، فسأطلب نجدة ٠٠ لقد كانت هذه المرأة تمارس مهنتها هنا ، وقد ظللت أراقبها ثلاث ليال !

وينفخ المخبر فى صافرته مستنجدا ، ويترك ذراع الفتاة ، ليمسك بذراع « مات » ، فيهيب هــذا بها ان تهرب ٠ واذ

تشتد المقاومة ، يوجه « مات » لكمة قوية للمخبر ، فيقع هذا ويرتطم رأسه بالسياج الحديدى ٠٠ ويرتبك الشاب والفتاة ، اذ يكتشفان انه قد توفى

الفتاة : أسرع ، قبل ان يأتى أحد !

مات : لا يسعنى ان أترك هذا المسكين اللعين هكذا ٠٠

الفتاة : بل هيا !٠٠ هب انه مات !

ويصر الشاب على أن يحاول اسـعاف المخبر ٠ وفى تلك الاثناء ، يقبل اثنان من الشرطة ، فيسرع أحدهما لاستدعاء سيارة الاسعاف ، ويصر على ان يستبقى « مات » معه

* * *

وترفع ستار المشهد الأول من الفصل الأول ـ فقد كان كل ما سبق مجرد تمهيـد للمسرحية ـ عن المزرعة الملحقة بسجن (دارتمور) بعد الحادث بعام ٠٠ **وثمة ضباب كثيف ٠٠ و ((مات)) يعمل مع سجين آخر ، وهما يتحدثان بصوت خافت**

مات : وتوفى المخبر المسكين ، فقضى على بالسجن لخمس سنوات ٠٠ ولقد وقفت الفتاة الى جانبى موقفا مشرفا !

السجين : قليل منهن من يفعلن ذلك ٠٠ وكم تبقى من المدة ؟

مات : ثلاث سنوات ، اذا أحسنت السلوك ٠٠ ثلاث سنوات أعيشها ككلب !

السجين : أما أنا ، فلا تزال أمامى أربع سنوات !

ويوحى الضباب الى « مات » بمحاولة الهرب ، ولكن السجين يصور لمات ما فى ذلك من مخاطرات وصعاب

مات : لقد استطعت أن أهرب من ألمانيا ، فى الحرب ٠٠ ارسم لى معالم المنطقة بعصا على الارض !

ويعين له السجين موقع منطقـة المستنقعات القريبـة من

السجن ، والطريق العامة ، ومدينة (تافيستوك) ، والجسور التى تتخلل الطريق اليها ، فيتفرس « مات » فى الرسم ٠٠ وتسودهما فترة صمت

السجين : انك مجنون ياسيد ٠٠ سيطلقون عليك النار اذا رأوك ٠ فان لم يروك ، فلن يلبثوا أن يفطنوا الى غيابك

مات : لا بأس ياصديقى ٠٠ ان الرصاصة قد تتيح لك لونا جديدا من الحياة !

السجين : انهم يسرعون الى اعادتنا الى السجن عندما يشتد الضباب ..

ويبتعد « مات » ، ثم يحنى قامته ويندفع جاريا كقطة نشيطة ٠ وان هى الا دقيقة ، حتى يختفى ٠٠ وتهبط الستار، لترتفع ثانية ، اشارة الى انقضاء سبع ساعات ٠٠ ونرى الحراس يجوسون خلال المنطقة المحيطة بالسجن ، بحثا عن الهارب ، فلا يبوءون بغير الفشل ٠٠ ثم تهبط الستار من جديد ، لترتفع عن المشهد الثالث من الفصل ، فاذا اثنتان وثلاثون ساعة قد انقضت ، **واذا أمامنا مخدع فى فندق ريفى على الجانب الآخر من منطقة المستنقعات ٠ وخيوط من ضوء النهار تنساب الى الحجرة لنرى عليها ثياب امرأة على مقعد بجانب الفراش الذى شغلته سيدة ٠ وتنبعث طرقات على الباب ، فتستيقظ السيدة ٠٠ وتدخل احدى خدم الفندق ، تحمل ماء ساخنا ٠**

السيدة (بصوت ناعس) : كيف حال الجو ؟

الخادم : لا يزال الضباب كثيفا ٠٠ أتستحمين ياسيدتى ؟

السيدة : أجل ٠٠ آه ، سيأتى زوجى مساء اليوم ، فلابد من ان أنتقل ثانية الى الحجرة ذات السريرين ٠

الخادم (وهى تزيح الستائر عن احدى النوافذ) : انهم لم يعثروا على السجين الهارب ٠٠ يقولون انه شاب قتل أحـــد المخبرين فى (هايد بارك) ، وأثارت قضيته ضجة ٠

السيدة : آه ، أذكر ذلك ٠٠ الكابتن دينانت !

الخادم : لابد من أن يعثروا عليه ، اذ انه لن يستغنى عن طعام وملابس ٠٠ انهم دائما يستعيدون الهاربين !

وتخرج الخادم ، فتسير السيدة الى الحمام ٠ وما ان تخلو الحجرة ، حتى يبرز « مات دينانت » من وراء ستار الشرفة ، وهو مشعث الهيأة ، مبلل الثياب ، ممسك بحذاءيه فى يده ٠ ويلعن حظه اذ يتبين ان شاغلة الحجرة سيدة ٠ وفجأة ، تعود هذه فتلمحه ، ويستولى عليها الذعر ٠

مات : صه !٠٠ لا تخشى بأسا !٠٠ شد ما أنا آسف !

السيدة (تدرك من ثيـابه انه سجين هارب) : اذن فأنت الهارب ؟!٠٠ ما الذى حملك على المجىء الى هنا ، وكيف دخلت؟

مات : لقد كنت تحت السرير ساعات طويلة ٠٠ وما كنت أعرف ان شاغلة الحجرة سيدة ، ولو عرفت ٠٠ **(يصمت)**

السيدة : لا بأس ، ما دمت سيدا مهذبا ٠٠ ألن تنصرف ؟

مات : لست أبغى سوى هـــذا ، ولكن الى أين ؟٠٠ وماذا يفعل المرء وهو فى مثل هذه الثياب ؟

السيدة : أتتوقع أن أعيرك ثيابا ؟

مات : ما أظن ٠٠ ولكنى أظل مدينـــا لك الى الأبد ، اذا منحتنى ما آكله !

وتقدم له السيدة قطعـة من « الشيكولاتة » ، فيلتهم جزءا منها ، ويدس الباقى فى جيبه ٠ ثم يستأذن السـيدة فى أن يشرب من صنبور حوض الغســيل ٠ وهنـــاك يلمح موسى للحلاقة ٠

السيدة (منفعلة) : انها موسى زوجى ٠٠ لا تأخذها !

مات : ما أظنك تعارضين فى أن أزيل لحيتى ، فليس أقبح من مظهر الرجل بلحية أهملت ثلاثة أيام ! **(ويبادر باستعمال الموسى)** كدت أقع فى أيديهم ثانية ٠٠

ويذكر لها انه تسلل من المستنقعات ـ فى باكورة المساء السابق ـ وتسلق الشرفة ، ثم اندس تحت الفراش ،وسرعان ما غشيه النعاس

السيدة : اذن فقد نمت تحت سريرى ؟

مات : بكل أسف ! .. فما كانت ثمة حيلة أخرى !

السيدة : قل لى يا كابتن ٠٠ لقد اعتاد أخى أن يتحدث عن بطل للجرى يدعى « مات دينانت » ٠٠ ألم تكن معه فى مدرسة هارتشيستن ؟

مات : كم زاملت من أشخاص فى الدراسة !٠٠ ما اسمه ؟

السيدة : ما ينبغى أن أذكره !

مات : أنت على حق ، فما ينبغى أن تذكرى لسجين شيئا يستطيع ان يستغله !

السيدة : لست أدرى كيف أساعدك ٠٠ لقد قرأت محاكمتك !

مات : وظننتنى رجل سوء ٠٠ أتعرفين كيف قضيت معظم وقتى فى السجن ؟ ٠٠ كنت أعقد محادثات مع شخصيات محترمة أتصورها فى خيالى !٠٠ اننى أوقن من ان معظم الناس يخالوننى مفسودا !٠٠ على أية حال ، لست أريد ان أثقل عليك ، ولكننى لن أستطيع مبارحة هذا المكان بشيابى هذه !

ويشير الى النافذة ، فترى جنديا مرابطا أمام الفندق ٠

السيدة : وماذا تعتزم ان تفعل ؟

مات : سأنتظر حتى يشغل عن النظر فى هذا الاتجاه ،وأسرع الى الهبوط عن الطرف الأقصى للشرفة ، وأنطلق جاريا ٠٠ من جديد ! (**يبسط يده ليصافحها**) وداعا !

السيدة (تتجاهل يده ، وتخرج زجاجة كونياك من أحد الادراج ، فتدفعها اليه) : أرجو لك حظا سعيدا !٠٠ خذ هذه ، فاذا رأيت أحدا ينظر اليك ، فاشرب ، اذ ما من شىء يبعث الاطمئنان الى رجل أكثر من رؤيته وهو يشرب ! (**تتناول من حقيبتها جنيهين وتقدمهما له**) هذا كل ما لدى هنا !

مات : الحق انك قديسة !٠٠ ولو اننى وقعت فى أيديهم ، فسأزعم اننى سرقت المبلغ والزجاجة !

* * *

وترتفع الستار عن الفصل الثانى ، الذى تقع أحداثه بعد سبع ساعات ٠٠ فنرى « مات » وقد أخفى ثياب السجن تحت معطف رث ، وجلس فى بقعة عالية الأعشاب ، على ضفة نهر (دارتميت) ، وقد اصطاد ثمانى سمكات صغيرة ، فتحول يأكل ما تبقى من قطعة الشيكولاتة ، ويتظاهر بالشرب من الزجاجة التى فرغ ما كان فيها من شراب ٠ **ولا يلبث ان يقترب منه سيد كهل ، فيروح يجاذبه أطراف الحديث ، حتى يتطرقا الى موضوع فرار « الكابتن مات دينانت » من السجن٠**

السيد الكهل : لقد كان المخبر يؤدى واجبه بلا ريب ! (**يقدم سيجارا لمات ويشعل لنفسه آخر**) أحسب ان المرء قد يصادف ذلك السجين فى أية لحظة ، ولسوف يكون ذلك أشبه بلقاء ثعبان ، اذ انه لن يبتغى سوى ان يفر منك ٠٠ ومع ذلك فهو قد يلدغ كلبك اذا لم تقصم ظهره !٠٠ انه واجب فيما أحسب ، فما رأيك ؟

مات : ربما ٠٠ ولكننى لا أؤدى واجبى دائما !

السيد الكهل : آه !٠٠ يسرنى هذا ، فكذلك أنا !

مات : أفتعرف ذلك السجين ؟

السيد الكهل : لا ٠٠الواقع اننى ابتليت بارسال عدد كبير من الناس الى السجن ، فى حياتى ٠٠وكنت أزور السجون من آن لآخـــر ، وكم دعوت المحلفين الى أن يزوروها لـيروا بنى جلدتهم ، ولكن ٠٠ من السخرية حقا ان أحدا لم يذهب منهم !

مات : لخير لى أن أزور « المشرحة » عن ان أزور سجنا ، فان الاجسام لا تكون حية هناك ٠٠ على أية حال !

السيد الكهل (وهو يتفرس فيه) : يقولون ان السجون قد تحسنت ، ودخلها شعور انسانى ٠٠ وأعتقد انهم لم يعودوا يحلقـــون رؤوس المسجـــونين ! **(يتململ مات)** هب أن ذلك السجين الهارب ظهر هنـــا ٠٠ **(يهز اصبعه نحوه)** فمـــاذا تفعل ؟

مات : أجرى كالأرنب ! **(يمر بيده على جبينه فجأة)**

السيد الكهل : ماذا بك ؟

مات : أرانى مضطرا الى أن أتخلى عن سيجارك الفـــاخر ، لقد استمتعت به ، ولكننى أدخن ومعدتى خاوية !

السيد الكهل : مسكين ! **(يرمقه ثانية بنظرة فاحصـــة)** أعتقد ان التبغ ولابد فى مقدمة المحرمات فى السجن !

يتأهب « مات » للانصراف ، وقد اشتد توجسه من السيد الكهل ٠ فينهض هذا متأهبا للانصراف هو الآخر ٠

السيد الكهل : مع السلامة يا ٠٠ كابتن دينانت **(يجفل مات)**

مات (محملقا فيه) : هـــل تسمح بأن تخبرنى كيف

اكتشفت حقيقة شخصيتى ؟

السيد الكهل : أولا ، الطريقة التى كنت تنظر بهـــا الى صـــيدك من السمك ٠٠ كذئب نهم !٠٠ وشىء آخر ، هـــو اشفاقك البادى على نفسك !

مات : هذه عادة اكتسبتها من السجن ، فليس من المسموح لك هناك ان تعطف على الآخرين ، خشية ان تصمهم بوصمتك !

وينصرف الرجل وهو يتأمل دخان سيجاره ، وكأنه نسى كل شىء عن « مات » الذى يبدو متأثرا بهذا العمل الكريم ٠٠

وتهبط الستار ، لترتفع مؤذنة بانقضاء ساعة ٠ ونرى «مات» يلتقى برجلين وامرأتين خرجوا لنزهة خلوية ، ويلوح ان أحد الرجلين بدال ، واحدى المرأتين زوجته ، والاخرى أخته ، فى حين ان الرجل الآخر ضابط بحرى ٠ **واذ يلمح «مات» اعجابهم بالسمك الذى اصطاده ، يقدمه للزوجة هدية ، بعد ان سألهم عن الطريق الى (بوفى) ٠**

مات : هل سمعتم شيئا عن السجين الهارب ؟

واذ يبدو أنهم لم يسمعوا عنه شيئا ، يذكر لهم ان سجينا هرب فى أطواء الضباب ، فى الليلة قبل الســـابقة ٠٠ ولا يكف ـ طيلة الوقت ـ عن ان يرمق رغيفا بين متاعهم ، فيظل يتحرك ليصير قريبا منه فيسرقه !

البدال : أرجو أن يعمل كل امرىء على القبض عليه !

الزوجة (تتناول من متــاعهم صحيفة وتبحث عن النبأ) : أليس هو الرجل الذى قتل المخبر المسكين فى (هايد بارك) ! ٠٠ انه وغد ، شرير !

الأخت (بلهجة لاذعة) : أعتقد ان بعض النـــاس يعطفون عليه !

مات : اذا لم تروا هذا عجيبا ، فأنا أعطف عليه !

البدال : أنت !٠٠ لماذا ؟

مات : لأننى أعتقد انه منى بحظ لعين للغاية

الزوجة : كيف ؟٠٠ لقد قبض المخبر على احدى « أولئك النساء » جالسة مع الشاب ٠ ولو انه كان سيدا مهذبا لما ضرب المخبر على رأسه وقتله !

مات : لقد تبين المحلفون انه لم يكن يبغى الفرار من المخبر، ولكنهما تشاجرا ، فوقع المخبر ، وارتطمت رأسه بالسياج الحديدى !

البدال : لو لم يضرب الشاب المخبر ، لما وقع هذا ٠٠

مات : بديع ! ولكن ، لو لم يمسكه المخبر لما ضربه !

البدال : مهما يكن الامر ، فقد كنت خليقا بأن أشنقه لاعتدائه على موظف أثناء أداء واجبه ، ولجلوسه مع امرأة فى متنزه عام

الأخت : وهل عاقبوا المرأة ؟٠٠ لو كنت أملك سلطانا لسجنت كل امرأة من هذا الصنف ، لأنهن يغوين الشبان !

ويستطيع مات ان يسرق بضع لقم من الخبز ، ثم ينصرف٠ فيتأهب المتنزهون لركوب سيارتهم ٠ وقبل ان يبلغوها ، يكون « مات » قد قفز اليها ، وانطلق بها ٠٠ ويجرى الرجلان وراءها فلا يلحقان بها ، واذ ذاك يجلس الضابط البحرى ، ويغرق فى الضحك

الأخت (للزوجة) : انك السبب ، اذ أخذت سمكه ٠٠ كان خليقا بك ان تدركى انه لص !

الزوجة : كفى ! ٠٠ ترى كيف نعود الى البيت ؟

الأخت : ومع ذلك فقد كنا نتحدث عنه طيلة الوقت ٠٠ انه السجين الهارب !

الزوجة (لزوجها) : أنت السبب ٠٠ لو لم تصـــفه بكل سوء ، وتقول انك كنت خليقا بأن تشنقه ، لما سرق السيارة !

وتهبط الستار ، لترتفع عن المشهد الثالث من الفصـــل الثانى ٠٠ بعد نصف ساعة ٠٠ رجـل وزوجته يتنزهان فى الخلاء ، ولا تلبث أن تظهر السيارة ، ويهبط منها ((مات)) فيسألهما عن الطريق الى (بوفى)

الزوج : اننا غريبان عن المنطقة ٠٠

الزوجة : امض الى أعلى التل ، ثم عرج يمينا ، ثم يسارا ، تبلغ بوابة ٠٠

مات : ثم أسأل هناك ؟! ٠٠ **(يتهيأ للانصراف)** شكرا !

وينطلق ، فيتابعه الزوجان بأنظارهمـــا ٠٠ ولا يلبث ان يظهر شرطى على دراجة ، فيسألهما : « هـــل رأيتما سجينا يمر بهذا المكان ؟ »

الزوج (بدهشة) : سجين ؟ ٠٠ لا ٠ انما رأينا سيارة ، فيها سيد .

الكونستابل : وكيف عرفتما انه سيد ؟

الزوج : من صوته ٠٠ فقد سألنا عن الطريق الى (بوفى)

الكونستابل (يمسح وجهـــه بيده) : بوفى ؟ ٠٠ لقـــد أرشدتما السجين الهارب

الزوجة : لقد كان لطيفا جدا !

الزوج (يجـزع) : أحقـا ؟ .. ولكنه .. ألا يحسن أن تتصل ببوفى تليفونيا ؟

الكونستابل (ساخرا) : بوفى ! ٠٠ انه ما قال ذلك الا لكى يضللنى ! ٠٠ لقد سرق السيارة منذ نصف ساعة ٠ لابد لى — على كل حال — من ان أنصرف ، وان أتصل تليفونيا ! **(ينطلق)**



الزوج (لزوجته) : لو أننى عرفت .. ولـكن ، ها هو ذا عائد !

تظهر السيارة، ويقف «مات» ليقول أن السيارة لم تقو على صعود التل ، ومن ثم فسيبيهم شطر القرية القريبة .

الزوج : أخشى .. أن .. اننى يجب ..

الزوجة (تسرع مقـاطعة زوجهـا) : ان زوجى يريد أن ينبئك أن فى القرية «كونستابل» !

الزوج : جوان ! .. لقد تحدث الكونستابل الينا ياسيدى ، وقال ان السيارة ليست ملكك ، لذلك فسآخذها منك !

مات (متراجعا) : هذا صحيح . ولكنها .. ليست ملكك أنت الآخر !.. اسمع ، تعال نذهب الى القرية معـا ، فى السـيارة . فاننى سأجتاز القرية بأمان اذا كنتما معى ، ثم أودعكما عند نهايتها

الزوج : ولكن .. ماذا ؟.. لا ..

مات : واذا خدعتنى فلن تملك شيئا اذا أنا انطلقت بأقصى سرعة ، وقذفتك من السـيارة . اننى لا أريد بك سـوءا ، فيجب أن لا تبغى بى سوءا .

الزوج : ولكننى عرفت حقيقتك ، وأنا ضد مساعدتك .

الزوجة (لمات) : سـآتى معك ، ولن يرتاب أحـد فى أمرك ، اذا كانت معك سيدة !

ويغلب الرجل على أمره ٠٠ ثم تسدل الستار ، لترفع مؤذنة بانقضاء ساعة ، و « مات » ، نائم بين حشائش عالية ، فى انتظار هبوط الليل ٠٠ واذا باثنين من العمال الزراعيين يفاجئانه ، ويعربان عن ارتيابهما فى انه السجين الهارب

مات : لابد لى من ان أقابل صاحب المزرعة التى تعملان فيها ، فلست أحب أن أوخذ على اننى سجين هارب

أحد العاملين : اذهب ياجورج فادع السيد براونينج ٠٠ **(يتحول الى مات ، بعد انصراف زميله)** ٠٠ لقد سرق الهارب سيارة ، وقد وجدناها على جانب الخندق !

مات : وما شأنى بالسيارة ؟٠٠ أترانى أبدو كسجين هارب ؟

ينهض فجأة ، فيرفع العامل مجرفة فى يده ٠ وفى تلك اللحظة يظهر العامل الآخر ، ومعه فتاة فى الثالثة عشرة ، وصاحب المزرعة ٠

مات : أأنت السيد براونينج ؟٠٠ ان اسمى الكابتن ماتيو ٠

ولكن صاحب المزرعة يتشبث بشكوكه فى اصرار ٠ ويتظاهر « مات » بالاستسلام ، حتى يطمئن الجميع ، ثم اذا به يقفز فجأة ، ويجرى فى خط متعرج ، ويجرى وراءه الرجال ٠ ويصل « الكونستابل » فينضم اليهم ، ولكن «مات» يختفى عن الانظار

* * *

وتهبط الستار ، لترتفع من جديد مؤذنة بمضى بضع دقائق ٠٠ والمشهد الجديد يمثل حجرة الجلوس فى كوخ أنيق ، تجلس فيه آنستان من العوانس : « مس جريس » — فى السابعة والاربعين — منهمكة فى اعداد الشاى ، و « مس دورا » ، تقف فى النافذة ، وهى فى ثياب تنم عن انها عائدة

لتوها من الصيد .. وهى أصغر من الاخرى سنا .

مس دورا : كل امرىء كان يبحث عن السجين الهارب .. يا للمطارد التعس !

مس جريس : كل عطف على أمثاله يذهب بددا

مس دورا : انه ليس سجينا عاديا . انه الكابتن دينانت ، أتذكرين قصته ؟

مس جريس : وأذكر كيف تشاجرنا بسببها !

مس دورا : انك قاسية يا جريس ..

يندفع « مات » فجأة ــ خلال باب الشرفة ــ وهو يلهث ، بادى الارتباك ، ويشير بيده فى رجاء ، ثم يختفى وراء ستار الشرفة . ولا يلبث صاحب المزرعة ان يظهر .

صاحب المزرعة : أين ذهب الهارب ؟.. لقد تسلق سياج كوخكم .

مس دورا : آه ، لقد لمحته .. عبر الحديقة ، وقفز ثانية فوق السياج ــ خلف الكوخ ــ الى الخارج .. اسرع !

وينصرف الرجل ، ويتلاشى الضجيج . واذ ذاك يخرج « مات » من مخبأه ، فيشكر « مس جريس » .

مس جريس : لست أنا (**تتحول الى مس دورا**) ما أبشع أن تكذبى هكذا .. ومن أجل سجين !

مس دورا : هل لك فى قدح من الشاى ياسيدى ؟

يجلس ويتناول القدح شاكرا ، بينما تحملق مس جريس فى استنكار .

مس دورا : لابد ان الفرار أرهقك .. ألم يكن جنونا ان تهرب ؟

مات : لست أرى ذلك ، فقد أرتنى محنتى مدى طيبة الناس .. سأنصرف !

فتسأله ان ينتظر ، وتغيب فى حجرة أخرى ، فتنتهز مس جريس الفرصة لتؤنبه اذ يستغل ما لأختها من عطف انسانى، ويشجعها على ان تزج بنفسها فى موقف حرج ٠ ولا تلبث ان تعود مس دورا لتقول لمات انها ستتيح له مخبأ ٠٠ وتتجادل الأختان ٠

مس دورا : انه بيتى كما هو بيتك ، ولست أطيق ان أرى جنديا وسيدا مهذبا ، تطارده ثلة من الأوباش !٠٠ فاذا لم تقرى هذا ، فاصعدى الى الطابق الثانى ، وسأقول انك لم ترى شيئا !

ولكن « مات » يكون فى تلك الاثناء قد تسلل وغادر الكوخ، ليدع لهما وئامهما ٠ ولا يلبث ان يعود المطاردون ، فيفتشون الدار ، والشك يراودهم ، ولكنهم لا يعثرون له على أثر ٠٠ وتهبط الستار لترفع ثانية عن حجرة الثياب فى كنيسة القرية ـ تضيئها فتيلة تشعل بالزيت ـ والقس منهمك فى نقل بعض الاشياء ٠٠ **وفجأة ، يظهر « مات »**

مات : اننى ألوذ بحمى الكنيسة ياسيدى !

القس : ماذا تعنى ؟٠٠ من أنت ؟ **(يكشف مات تحت سترته عن ثياب السجن)** آه ، السجين الهارب ؟٠٠ ما كان ينبغى أن تأتى الى هنا !

مات : والى أين ألجأ اذن ؟٠٠ لقد كانت الكنيسة فيما مضى ٠٠

القس : فيما مضى ٠٠ أما اليوم ، فهى تتبع الدولة !٠٠ أظننى قرأت انك كنت الكابتن دينانت الذى ٠٠

مات (ينظر اليه فى صمت برهة) : أجل ٠٠ ان الموت لدينا ـ نحن الذين خضنا الحرب ـ ليس كما يبدو لك

القس : كنت أنا الآخر فى الحرب. أتنشد حماية الكنيسة ؟ !

أتمنى ـ أحيانا ـ لو كنت تابعا للكنيسة الرومانية ٠٠ هذا موقف لم أجربه من قبل

مات : لقد أوشكت قواى ان تخور ياسيدى ، ولو سمحت لى ان أستريح قليلا ، فهذا جل ما أبغى ٠

القس : اجلس ياعزيزى (**يغلق البـــاب**) انهم لن يروا ما بداخل الحجرة ٠٠ وما أحسبك الا جائعا ؟

مات : لا ، شكرا ٠٠ (**فجأة**) ما رأيك فى ان تسلمنى اليهم أيها الأب ؟

القس : الأب ! (**يتحرك متأثرا ، ويواجه مات**) ومن أكون حتى أسلمك ؟٠٠ اننى انسان مسكين مثلك ، وقد لا أملك ان أساعدك ، ولكن ٠٠ استرح ، اذا شئت ان تستريح

مات (**على غرة**) : ترى ماذا كان يفعل المسيح ؟

القس : هذا أعوص سؤال يا كابتن دينانت ، فما من أحد يعرف ٠٠ كلما قرأت ما كتب عنه ، تبينت ان من العسير ان تحدس تصرفاته ، فقد كان نابغة ، ومن الصعب علينـــا ان نحذو حذوه !٠٠ هل برح بك التعب ؟

مات (**وقد جلس مسندا مرفقيه الى ركبتيه ، ومسـلما رأسه الى راحتيه**) : ما ظننت ان المرء يستطيع ان يحتمل كل هذا التعب ٠٠ وما شعرت ـ حين فررت من ألمانيا ـ بنصف ما أعانى الآن !

القس : ومن الذين يطاردونك ؟٠٠ أهـــل القرية ؟٠٠ رعيتى ؟

مات (**يقف**) : يا لله !٠٠ حقا أيهـــا الأب !٠٠ يجب ان أنصرف !

القس (**يضغط بيده على كتفه حتى يجلسه**) : لقـد طلبت الحماية ، وما أدرى ان من حقى أن أطردك من هنا (**يقدم له بعض الشراب**) قل لى ، ما الذى حملك على الهرب ؟



مات : احبس قطا بريا فى قفص ، ثم اترك الباب مفتوحا عن سهو ، وانظر ما يحدث ! (**يتأمل وجه القس**) آه ، أفهم ما تعنى .. ولكننى دفعت ثمن حماقتى منذ أمد طويل . صحيح انه لم يكن ينبغى أن أضرب المخبر ، فهذه خطيئة ، ولكن عقوبة الضرب العادى ستة أسابيع على الاكثر ، أما أنا فقد قضى على بالسجن لاربعة أعوام لقاء ارتطام رأسه بالسياج الحديدى ..

القس : اذا كنت مرتاح الضمير ، فهذا هو كل ماينبغى !.. لست أحفل بما لقيصر ، فقد اعتاد قيصر أن يعنى بشئونه ، انما الذى أحفل به هو طمأنينة النفس والضمير ، و .. راحة الفكر ، بحيث لاتظل تعاودك أفكار معينة . **وعندما ترحل ، أترى من حقى أن أظل صامتا دون أن أخبر رعاياى بأننى كتمت أمرك ؟.. هل من حقى ان أقعد عن مساعدة « القانون » دون أن أطلعهم على ذلك** ؟.. وهل أستطيع ــ اذا أطلعتهم ــ أن أحتفظ بما لى من نفوذ قليل عليهم ؟.. هذه مشكلتى يا كابتن دينانت !

يعالج أحدهم الباب من الخارج ، فيخف اليه القس .

القس (من وراء الباب) : من هناك ؟.. اننى مشغول يا توماس ، ولا أسمح لأحد بالدخول الى أن يحين موعد القداس . (**يقف لحظة منصتا ، ثم يعود الى وسط الحجرة** ،

ويقول لمات) : هذا قارع الاجراس !

مات (بصوت واهن) : لن أنسى اننى فى ضيافة الله أيها الاب ، ولكننى لا أريد أن أثقل على ضميرك . سأنصرف .. ألا ليت لى جناحين !

القس : سأعقد قداسا فى منتصف السابعة ، ولكن لن يكون ثمة سوى واحد أو اثنين ، فيما أحسب ، فكن الثالث.. وبوسعك أن تحظى بقسط من الراحة أثناء الصلاة

ولكن « مات » يؤثر الانصراف ، فيسأل القس ان يباركه. وفى تلك اللحظة يدوى طرق شديد على الباب ، فيسرع «مات» الى الاختفاء بين الاثواب المعلقة ، وهو يقول : « لقد وقعت ! يا الله » !..ويفتح القس الباب فى قنوط ، فاذا قارع الاجراس و « الكونستابل » وصاحب المزرعة والعاملان .

قارع الاجراس : ان الكونستابل يعتقد ان من حقك ان تعرف اننى رأيت رجلا يدخل المكان منذ قليل

الكونستابل : انه السجين الهارب ياسيدى **(يشرح قصة العثور عليه ومطاردته)** ،هل أنت هنامنذ زمن طويل ياسيدى ؟ .. ان الباب الأمامى مغلق ، ولكنا نريد التأكد من خلو الكنيسة

القس : اننى هنا منذ ساعة **(يتقدمهم نحو باب الكنيسة)** لست أدرى ان كان من حقكم أن تفتشوا مكانا مقدسا ، ولكن .. تفضلوا !

يبقى قارع الاجراس ، فيرسم القس له علامة الصليب ، ويدعوه للانصراف . ويبدو عدم الارتياح فى نظرات الرجل وحركاته .ويعود صاحب المزرعة معلنا انهم لم يعثروا على أحد. **ولكن عينيه تتفرسان فى وجه القس فى شىء من الريبة ، فيحاول القس الابتسام .**

صاحب المزرعة : انه لثعلب مستميت فى المراوغة . ولكن

ما الذى وراء هذه الاثواب ؟

يتحرك القس نحو الاثواب ، وفى تلك اللحظة يعود « الكونستابل » والعاملان الزراعيان ، فينحون باللائمة على قارع الاجراس لانه زعم انه لمح شخصا يلج المكان . ويهم الجميع بالانصراف

صاحب المزرعة (فجأة) : لحظة واحدة .. **(للقس)** معذرة ياسيدى ، ولكن .. أواثق أنت من انك لم تر ذلك المخادع ؟ .. هل تقسم بشرفك كسيد مسيحى محترم بأنك لم تر السجين الهارب ؟

يسود المكان صمت ثقيل .

القس : اننى ..

مات (يظهر من مخبأه ، وقد خلع المعطف الذى كان يخفى ثوب السجن تحته) : يقينا انه لم يرنى . معذرة ياسيدى ، فقد كنت مختبئا هنا . اننى أسلمك نفسى أيها الكونستابل **(يقدم له يديه)**

ينطلق صاحب المزرعة فى السباب .

القس : الزم الهدوء فى هذا المكان ، وانصرف .. فانك تلحق بالله عارا !

ينصرفون تباعا ، وقد أدهشهم غضب القس ، ويبقى ((مات)) فى قبضة الكونستابل

مات (للقس) : اغفر لى ياسيدى ! ما كان ينبغى أن آتى الى هذا المكان !

القس : لا ، لا !.. لقد فعلت ما كان ينبغى !

مات : ان المرء لا يستطيع ان يهرب من نفسه ..

القس : هذا صحيح.. **(بصوت خافت)** فليحفظك الرب !

يرقب « مات » وهو ينصرف مع الكونستابل .. وتدق الاجراس مؤذنة بموعد القداس .. وتسدل الستار .


MILK & HONEY
ISRAEL EXPLORED
BY
GEORGE MIKES
اعرف عدوك على حقيقته!
المن والسلوى!
صور من الواقع عن اسرائيل
للكاتب الانجليزى المجرى الأصل جورج مايكس

اعرف عدوك .. لتضمن الانتصار !

◆ اذا شئت أن تطمئن الى انتصارك على عدوك ، فاعرفه على حقيقته .. وخير المعرفة هى التى تأتى عن طريق شخص يحاول جاهدا أن يكون صادقا فى حياده ، نزيها فى تسجيلاته . وهذا ما يحاوله « جورج مايكس » . وهو كاتب مجرى الأصل ، نزح عن بلاده فى سنة ١٩٣٨ ، وتجنس بالجنسية الانجليزية ، وكتب عن انجلترا وحياة أهلها كتابا أسماه : « كيف تكون أجنبيا ! » ، ثم زار أمريكا وكتب عنها : « كيف تناطح السحاب ! » ، فأثار الكتابان ضجة كبيرة ..

والكتاب الذى نقدمه لك اليوم « لبن وعسل » - أو « المن والسلوى » كما أسميناه - نتيجة رحلة استغرقت شهرا فى الدويلة المزعومة (اسرائيل) . ومن الطبيعى أن لا تكفى مدة كهذه لأن يتعمق الكاتب فى أغوار الأوضاع هناك ، ولكنه حرص على أن يكون دقيقا فى نقل صور لمشاهداته ، تكفى لأن نتبين ما عليه المجتمع والكيان السياسى لاسرائيل من تداع .. انها صورة تمثل الد عدو للعرب ، فخليق بك ان تلم بها ، كى .. تعرف عدوك !

حيلة قذرة تسمى : « انشاء دولة » !

• **عندما** كنت فى السادسة من عمرى ، تلقيت فى المدرسة الابتدائية - باحدى المدن المجرية الصغيرة - أول درس عن غزو عشائر « المجر » للبلاد التى أصبحت تعرف باسمها .. ولم يكن الغزو يسمى غزوا ، وانما كان يسمى « انشاء دولة » . وكان المؤسس يسمى « أبانا ارباد » . فقد وصل أبونا « ارباد » مع عشائره الرحالة الى حوض (الدانوب) فى القرن التاسع .. وكانت تقيم فى أراضى هنجاريا عشائر تدعى « أفار » ، فأرسل أبونا ارباد الى حاكمها بعض الهدايا الرخيصة ، وسأله فى مقابلها قطعة من الارض ، ودلوا من الماء ، وبضعة فروع من العشب . **فلما أجيبت مطالبه المتواضعة ، زعم أن ملك الافار قد نزل له عن بلاده ، وان استجابته للمطالب الثلاثة انما كانت**

رمزا لتسليم الارض والانهار والمراعى .. ولم يرتض أبونا ارباد جدلا ، بل أخذ البلاد عنوة وطرد أهلها !

ولم أتبين أن عمل أبينا « ارباد » حيلة قذرة ، الا بعد سنوات . على أن عبارة « انشاء دولة » رسخت فى خيالى ، ولم أتوقع قط أن ارى عملا من هذا القبيل فى حياتى . **فلما قامت (اسرائيل) على غير توقع ، اعتبرت قيامها مجرد حظ ، ولم يخطر لى أن أقارنه بما فعله أبونا ارباد حتى زرتها أخيرا ورأيت ما جرى ..** ويحسن بى أن أوضح ــ من البداية ــ اننى لست خبيرا بشؤون الشرق الاوسط عامة ، ولا بشؤون فلسطين والصهيونية خاصة ، ولا بالعلاقات بين انجلترا والعرب ، ولا بالقضية العربية .. وانما أنا أصف (اسرائيل) واليهود الذين يسمون أنفسهم اسرائيليين ، كما رأيتهم !

بين اليهودية والصهيونية

• **كنت** أجلس فى « بار أمريكى » فى القدس مع ثلاثة من الصحفيين : انجليزى ، وأمريكى ، واسرائيلى .. وقلت أرد عن سؤال للصحفى الانجليزى عن شعورى نحو انجلترا : « انه هكذا : عندما وفدت على انجلترا منذ أحد عشر عاما ، كنت أعجب بالانجليز ، ولكنى لم أكن احبهم .. اما الآن ، فقد كففت عن الاعجاب بهم ، ولكنى أحبهم جدا ! »

وهنا صاح الامريكى : « وجدتها ! .. وجدت الاجابة عن السؤال الذى لم أفتأ أوجهه الى نفسى منذ أمد طويل ، عن شعورى نحو هذه البلاد : **عندما جئت الى هنا ، كنت ميالا لليهودية ، معارضا للصهيونية .. أما اليوم فأنا معارض لليهودية ولكنى صهيونى متحمس ! »**

فسألته : « وهل بوسعك أن تكون معارضا لليهودية ومتحمسا للصهيونية ؟ »

ــ بسهولة ! .. أنظر الى أغلبية سكان اسرائيل !

والواقع أن الامر فى (اسرائيل) محير للغاية . ان الفكرة الشائعة فى الغرب - فى أوربا الوسطى والشرقية - عن اليهود مغايرة للواقع . فهم يعتقدون أن اليهود تجار حاذقون ، ومع ذلك فان أصحاب الحوانيت فى (تل أبيب) لا يستحثونك على الشراء ! .. **ولقد اشتهر اليهود بأنهم بارعون فى المسائل المالية ، ولكن الدولة الجديدة أكثر افلاسا من أية دولة كبرى وامبراطورية قديمة !**

والفارق الحقيقى بين اليهود وشعب اسرائيل لا يتمثل فى اختلاف السحنة والصفات ، ولا فى أن اليهود يخشون احتمال قيام اضطهادات عنصرية جديدة ، فى حين أن الاسرائيليين يشعرون بأمن وطمأنينة .. **بل أن فكرة الاضطهاد العنصرى لا تخطر ببال اليهود فى كثير من الدول ، فى حين أن كثيرا من الاسرائيليين لا يقنعون بما توفره لهم دولتهم من أمن ! ..**
والواقع أن المشكلة تتمثل فى أنه من العسير ان نحدد اين ينتهى اليهودى ، واين يبدأ الاسرائيلى . فالذى يحب أن يبدو اسرائيليا قحا ، يرتدى سروالا قصيرا « شورت » من الخاكى ، وقميصا من الخاكى ، وجوارب طويلة من نفس اللون - تصل الى ما دون الركبتين - وحذاءين ضخمين !!

واذا كان ثمة من يعتقد أن اليهود مكروهون فى كل مكان الا فى اسرائيل ، حيث يحب كل واحد الآخر ، فهو مخطىء أشنع الخطأ .. بل اننى لاذهب الى القول بأن ثمة اسرائيل يهودية واسرائيل اسرائيلية . وقد قالت لى سيدة نزحت من ليتوانيا ، وأقامت فى تل أبيب : « لقد كنت فى ليتوانيا يهودية ، أما فى اسرائيل فقد اصبحت ليتوانية .. وعندما اكون بين المتزمتين الدينيين - من اليهود - أشعر كما لو كنت مسيحية » !!

اسرائيل اليهودية : المجذوبون والمطرودون !

• **عندما** تتكلم عن الامريكيين أو البولنديين ، يبدو لك أنك



تتكلم عن فريق معين من الناس . ومع أن اليهودى فى اسرائيل خليق بأن يصبح اسرائيليا ، الا أنك حين تتكلم تضطر الى أن توضح ما اذا كان الذى تتكلم عنه يهوديا أو هو اسرائيلى . **فمن الخطأ أن تشعر اذا تكلمت عن الاسرائيليين أنك تعنى صنفا واحدا من الناس .. بل أننا نستطيع أن نتبين عدة جماعات من الناس فى اسرائيل** . فالصابرة ــ وهم اليهود من أهل فلسطين السابقين ــ يشعرون أنهم اسرائيليون بحكم المولد والموطن .. ومع ذلك فان اليهودى القديم يعتبر مجرد اسرائيلى حديث ــ بحكم حداثة عهد اسرائيل ــ وهذا كفيل فى حد ذاته بأن يجعل موقفه مختلفا عما يتصور . ومشكلات البلاد تحتل المقام الاول من ذهن يهودى « الصابرة » ، فهو عنيف فى شعوره الوطنى ، لا سيما وأن دولته الحديثة المولد لا تزال فى حرب . وان عقليته لتشبه ــ الى حد كبير ــ عقلية الشاب الفرنسى الذى عمل فى «المقاومة» ــ أثناء احتلال النازى لفرنسا ــ فلما بعثت دولته من جديد ، أصبح من المرتقب أن يعيش حياة عادية ، ويغدو مواطنا خاضعا للقانون . وفى هذا الوضع الجديد قد يواجه كثيرا من المشكلات الاقتصادية والنفسية الشخصية ، ولكن فرنسيته تظل أمرا مسلما به .

ولقد جاء كثير من المهاجرين القدامى فى العقدين الاولين من القرن الحالى ، وهم ممتلئون بالحماس . وقد تحقق الآن معظم هدفهم ، فلم يعد أمامهم الكثير الذى يشغلهم .

والواقع ان تحقق أحلام القوم اقترن بكثير من الامور التى تشعر بخيبة الآمال. وهذه ظاهرة واسعة الانتشار فى اسرائيل . لان المهاجرين الاوائل لم يتركوا شيئا لمن جاءوا بعدهم كى يعملوه ، ولكنهم — فى الوقت ذاته — لم يألفوا حياة الدعة والاستقرار ، فهم يشعرون بالقلق والتحفز ، دون أن يدركوا لذلك سببا .

ولقد كان المهاجرون الاوائل هم الذين وفدوا على فلسطين لانهم كانوا تواقين الى الاقامة فى فلسطين . ولكن سواهم جاءوا الى فلسطين لانهم لم يستطيعوا الحياة فى أى مكان آخر . وكان بعض هؤلاء صهيونيين ، ولكن معظمهم أصبحوا صهيونيين بعد أن أقاموا فى البلاد . والى هذا الفريق ينتمى المهاجرون غير الشرعيين الذين أرادوا — قبل الحرب العالمية الثانية وخلالها — أن ينقذوا أنفسهم وأبناءهم ، بينما كان دخولهم فلسطين غير مشروع . وبعض هؤلاء غير واثق من وضعه ، ولا مطمئن الى حاله .

* * *

ومن ناحية أخرى ، نرى أن المهاجرين الحديثين يتباينون فى تصرفاتهم وشعورهم — بعضهم عن بعض — تباينا كبيرا . فان معظمهم وفدوا من بريطانيا والممتلكات البريطانية والولايات المتحدة وبلاد أخرى تعيش فى رغد الى درجة كانت تجعلهم فى غنى عن مبارحتها ، ولكنهم كانوا مجذوبين الى اسرائيل .. فاذا سألتهم : « أنادمون أنتم ؟ » ، أجابوا : « لا .. ولكن الحياة كانت انعم حالا فى مؤسسة أبى فى متشيجان » مثلا !.. ذلك لانهم وصلوا متأخرين عن مغامرات البطولة والتضحية !

وفى الطرف الآخر من هذه الصورة تجد اللاجئين الذين وفدوا على اسرائيل لانها الدولة الوحيدة التى كانت مفتوحة الابواب لهم ، ولو أنهم وجدوا أى بلد آخر يستقبلهم لذهبوا اليه . ولسوف يتأقلم بعضهم ويستقر ، ولكن بعضا آخر

يكره وضعه ، كما يكرهه الآخرون . ويرجع ذلك الى أنهم ما دخلوا اسرائيل الا لانهم لم يشاءوا أن يقيموا خلف القضبان الحديدية — فى معسكرات الاعتقال — ولا خلف الستار الحديدى ، ومن ثم فان اقامتهم مجرد رضوخ لحكم الضرورة !

ومن العسير أن تفرق بين المهاجرين الذين جاءوا مجذوبين الى اسرائيل ، وبين أولئك الذين جاءوا مدفوعين اليها .. مطرودين . ومع ذلك فان الاغلبية الساحقة من المهاجرين الاوائل لم يأتوا الى فلسطين الا لانهم كانوا مضطهدين فى روسيا وبولندا وغيرهما ، قديما . وهم يكرهون فى اسرائيل عدم اعتراف أهلها بما كان لهم فى بلادهم الاصلية من مراكز ، فهم فيها شخصيات مغمورة . ومن ثم فهم — فى الواقع — مصدر مشكلات للدولة . ولا حديث لهم سوى وسائل الحصول على تصاريح لدخول شيلى وأمريكا والارجنتين ! .. **ومنهم من يشتهى العودة الى البلاد التى أقبل منها ، على أن تكون فيها الاوضاع السياسية القديمة السابقة على النازية والشيوعية .. فهم يغرمون بأشباح فى دنيا نصف ميتة !**

ولا تكاد مسأله الجنسيات تذكر فى المناقشات العامة . ولكنها الموضوع الرئيسى فى الاجتماعات الخاصة . فان اليهود حريصون على التظاهر بالوحدة أمام العالم الخارجى . . واليهود القدامى ، الذين استقروا فى فلسطين من زمن طويل ، يقولون : « لقد جئنا الى هنا قبل أى فرد آخر . كنا هنا عندما كان الذين تبعونا فى بلادهم السابقة ، يحاولون جاهدين أن يندمجوا فى أهلها .. فنحن الذين بنينا الدولة .. كنا نقتطع الاحجار ونستصلح الارض . أما الباقون فجاءوا بعد أن شيدنا البيت ! »

.. ويجيبهم اللاجئون على ذلك بقولهم : « أنتم الآخرون لم تأتوا الا لانكم كنتم مضطهدين فى أوطانكم السابقة . كل ميزتكم هى أن حركات اضطهاد اليهود فى روسيا سبقت مثيلاتها فى ألمانيا بثلاثين عاما . وبينما كنتم تقطعون الاحجار هنا — أثناء

الحرب العالمية الثانية – كنا نتعذب فى معسكرات الاعتقال . ثم ان حجتكم فى بناء الدولة كانت تستند الى أن أخوتكم المشردين محتاجون اليها .. وها نحن أولاء قد جئنا نحقق حجتكم ! »

* * *

ولقد كانت الاغلبية الساحقة من المهاجرين الاوائل من يهود روسيا (وكانت اذ ذاك تضم بولندا) . وكان يهود روسيا – قبل نهاية الحرب العالمية الاولى – لا يندمجون مع أهل بلادهم ، كما كانت حال اليهود فى الدول الاوربية الاخرى .. أى أنهم كانوا مجرد يهود يقيمون فى روسيا ، ويشعرون بأنهم فى بلاد غير بلادهم الحقيقية ، تصليهم شواظ العداء . وكان معظمهم منحطين فى مستواهم الثقافى والاجتماعى ، يعانون الفقر حتى الموت . أما الذين كانوا ميسورى الحال منهم ، فكانوا يعتزون بيهوديتهم ، ويتشبثون بها رغم أنها لم تكن تجلب عليهم سوى الشقاء والعناء .. **ورأى كثير منهم أن عذابهم جزء من المصير المحتوم على يهود العالم ، فمالوا الى الحركات الثورية . أما الباقون فقد انجذبوا الى الصهيونية بمجرد أن انتظمت كحركة سياسية .** وقد سارعوا الى فلسطين ، فكان الروس هم الطلائع حقا . وكانت هذه الطلائع من خيرة يهود روسيا وأكثرهم اقداما . وهم يعتبرون « ارستقراطيى » الدولة الجديدة ، اذ اغتنى كثير منهم ، وشغلوا أرقى مناصب هذه الدولة بما فيها الرئاسة . وبينما يقول الكثيرون أن « بن جوريون » هو أصلح من يتولى رئاسة الوزارة ، تجدهم يقولون – فى الوقت ذاته – انه ما كان ليصبح رئيسا للوزارة لو لم يكن من يهود روسيا !

وهناك اليهود الالمان ، وبينهم وبين الروس فوارق ، فهم – بحكم ألمانيتهم – يعيشون على النظام المتزمت .. وهم رغم ثقافتهم جامدو العقول .. انهم مفعمون بالافكار العملية ، وان

كانت تعوزهم سعة الخيال والافق . **فالالمان يؤدون الواجب، ولكن الروس هم الذين يحددون لهم هذا الواجب ! .. وبينما يقوم الالمان بدور رئيسى فى الايام العادية ، نجد أن الروس هم الذين تمس اليهم الحاجة فى الضائقات والطوارىء ..** على أن الخلاف يذهب الى أبعد من هذا ، فان اليهود الروس يسخرون من اليهود الالمان ويقولون أنهم حاولوا أن يندمجوا فى الشعب الالمانى ، ولكن هتلر أفسد عليهم ذلك . ولا يملك الالمان دفاعا ضد هذا الهجوم ، فليس بوسع أحد أن يدافع فى اسرائيل عن اندماج اليهود فى الشعوب الاخرى !

لذلك نجد أن الالمان قلة فى المراكز العليا فى الدولة ، وليس منهم أحد فى المناصب الحكومية . والمشكلة هى أن الالمان أوربيون ، ولكن الروس هم اليهود الحقيقيون .. **واسرائيل دولة يهودية فى آسيا ، ولكن أهلها يسعون الى جعلها دولة يهودية أوربية فى آسيا ، ولا يفطنون الى أنهم انما ينشئون دولة أمريكية يهودية فى آسيا ! ..** ذلك لان اسرائيل مثال مصغر لما جرى فى الولايات المتحدة . والرواد الاوائل من اليهود الروس ، أشبه بالرواد الاوائل من « الانجلو ساكسون » فى أمريكا ، فهم أهل خشونة وغلظة ، مزهوون بما عملوا ، متطرفون فى معتقداتهم ومثلهم العليا . وهذا هو السر فى أن بين الجيل القديم والجيل الحديث ـ أى بين اليهود والاسرائيليين ـ هوة واسعة .. وهذا هو السر كذلك فى أن (تل أبيب) بطابعها الخشن القبيح ، وبالسرعة التى تسود أهلها ومواصلاتها ، ذات طابع أمريكى .. واسرائيل حافلة بالثقافات الاجنبية المستوردة ، ولكنها لاتقنع بها ، وانما تحاول أن تخلق لنفسها حياة ذات طابع اسرائيلى ، كما خلقت أمريكا لنفسها حياة ذات طابع أمريكى .. **يضاف الى هذا أن الامريكيين هناك يسعون الى أن يجعلوا (تل أبيب) معقلا ، أو مركزا أماميا للحضارة الامريكية !**

بقيت كلمة عن اليمنيين اليهود ، فقد هاجر أجدادهم الى (اليمن) قبل هدم المعبد الاول (سنة ٥٨٦ قبل ميلاد المسيح) . وعندما سمعوا بأمر الدولة اليهودية الجديدة ـ فى سنة ١٩٤٧ ـ نزحوا اليها سيرا على الاقدام . وهم متدينون ، ولكنهم فقراء وجهلة ، يعملون فى أحط أبواب العمل فى اسرائيل . على انهم ذوو عصبية وولاء ـ بعضهم لبعض ـ وقد أنشأوا حزبا سياسيا للدفاع عن مصالحهم ، ولارسال نواب عنهم فى « الكنيست » .. البرلمان الاسرائيلى . **وهم يفدون فى جماعات كبيرة ، ويتناسلون بغزارة ، حتى ليخشى الكثيرون أن يصبح اليمنيون ويهود شمال أفريقيا اغلبية فى اسرائيل !** .. ويعمل الكثيرون من الاجناس الاخرى على ابقائهم فى وضعهم الحالى، فهم يرفضون مصاهرتهم والتزاوج معهم .

اسرائيل الاسرائيلية : مركبات نقص وعقد نفسية !

• **اذا** أردت أن يرضى عنك الاسرائيليون ، فامتدحهم فى وجوههم ، واطنب فى المديح ، ولا تدع مجالا للاستدراك . فهم فخورون بكل مافعلوه وأنشأوه ، رغم التقشف والقيود المالية والاقتصادية التى يرزحون تحت وطأتها . والانتقاد غير مقبول لديهم ، فاذا كان ثمة نقص أو عيب لاسبيل الى انكاره، زعموا أنه من مخلفات عهد الانتداب ، وأنهم لم يجدوا بعد الوقت لاصلاحه .. **وكل اسرائيلى لسان ناطق بالدعاية ، ولكنه عادة لايحسن الدعاية !**

ولا تنس أن الاحداث الكبرى فى العالم ، هى أحداث الشرق الاوسط . والدول الكبرى وصراعها تتخذ كبيادق الشطرنج فى السياسة الخارجية لاسرائيل ، فهم يحاولون استغلالها لمصلحتهم وللدعاية لدولتهم !

واليك مثل : عرض على فريق من الفتية والصبية

الاسرائيليين فيلم اخبارى عن معسكرات الاعتقال ، وما كان اليهود يلقونه فيها . حتى اذا انتهى العرض ، سئلوا عن رأيهم فى الفيلم ، فقالوا أنه غير صحيح ولا حقيقى . وعبثا حاول الكبار اقناعهم بالعكس . واستدرجت — مع صديق صحفى أمريكى — اثنين من الصبية على حدة ، وسألناهما عما دعاهما الى الاعتقاد بأن الفيلم غير حقيقى ، فأجاب أحدهما : « **لانه لايمكن أن يكون حقيقيا .. لقد كان هؤلاء القوم يضربون ويعاملون كالكلاب ، فلم يناضلوا أو يدفعوا عن أنفسهم تلك المعاملة ! » . وهكذا أخفقت دعايتهم فى التأثير .. حتى على ابنائهم !**

والاسرائيليون من الشعوب القليلة فى العالم التى لا تتحدث الا عن المستقبل ، فى حين أن الناس فى بريطانيا وبلجيكا والمجر وفرنسا واليونان ، لا يكفون عن الحديث عن أمجاد الماضى ، وأيام الماضى السعيدة ! ولقد سمعت فى (تل أبيب) عشرات المرات ، هذه العبارة : « أن يهودنا لم يؤتوا السحنة اليهودية اطلاقا ! » .. فلماذا يتمنى اليهود أن تكون شعورهم صفراء ، وعيونهم زرقاء ، مع أن هذه هى سيماء الالمان .. سيماء العنصر « الآرى » الذى اضطهدهم ؟ .. **لعله مركب نقص !**

على أن هناك كثيرا من المهاجرين الذين وفدوا من مختلف دول الستار الحديدى ، والذين لايبدو عليهم أنهم يهود . ولدى شك مبهم يحملنى على أن أعلل ذلك بأنهم ليسوا يهودا . ففى أثناء الحرب العالمية الثانية ، اضطر كثير من اليهود — فى أوربا الهتلرية — الى أن يبتاعوا وثائق مزورة تثبت أنهم من الجنس « الآرى » . وفى دول الستار الحديدى — فى عهد ستالين — كان الكثيرون من الآريين يبتاعون وثائق مزورة ليثبتوا أنهم يهود حقيقيون ، حتى يتسنى لهم أن يستوطنوا اسرائيل ! .. ترى هل أصبت التعليل ؟

وهناك شىء يبدو غريبا لمن يزور اسرائيل لاول مرة . ذلك

هو أن الاماكن ذات القداسة الدينية ، فقدت طابعها القدسي في غمرة الحياة اليومية . فالزائرينظر الى (بيت لحم) كمسقط لرأس المسيح ، فى حين أنها ـ لمن يقيم على مقربة منها ، من اليهود ـ ليست سوى قرية فى أيدى العرب .. و (الناصرة) فى نظرك هى المكان الذى كانت السيدة مريم تقيم فيه حين حملت ، أما فى نظر أى يهودى فى (تل أبيب) ، فهى ليست سوى مكان يستطيع ان يبتاع فيه عصير البرتقال بأرخص ثمن .. و (بيرسبع) هى موطن النبى ابراهيم ، ولكن أهميتها لدى « موشه كلوج » ـ مثلا ـ هى أنها المكان الذى يقيم فيه أخوه ! .. ومن ناحية أخرى ، ترى أن العبارات التى وردت فى الكتب المقدسة تستخدم فى الاعلان عن الثياب الداخلية للنساء !

أزمة المواصلات فى اسرائيل

• **من** الظواهر التى تسترعى انتباهك فى الايام الاولى لاقامتك فى (تل أبيب) ، أن ترى الناس يقفون على الارصفة، بالقرب من مواقف الحافلات « الاوتوبيس » عادة ، وهم ينادون سائقى « التاكسيات » ويوجهون اليهم كلمات غريبة باللغة العبرية . وقد تحسبهم راغبين فى أن يستقلوا « تاكسيات » ، ولكنك تحتار فى أمرهم حين تلاحظ أن « التاكسيات » الخالية لا تقف لندائهم ، بينما تستجيب لهم « تاكسيات » تبدو مزدحمة ـ فوق سعتها ـ بالركاب ، فلا يلبث بعض هؤلاء الوقوف أن يصعدوا اليها ، رغم ازدحامها !

ذلك لان الاجر العادى للحافلات عن « المشوار » الواحد ، يعادل ١٥ مليما ، فى حين أن الاجر العادى للتاكسى مرتفع جدا .. وبين الامرين ، راج استعمال « التاكسى الجماعى » .. وهذا النوع من « التاكسيات » يجرى على خطوط معينة ومصرح بها من السلطات ، ويقف عندما يناديه أحد المارة أو

الركاب ، ويتقاضى مايعادل خمسة قروش من الراكب ، مهما تكن المسافة طويلة أو قصيرة .. وهذه الوسيلة من وسائل الانتقال فى (تل أبيب) رخيصة نسبيا ، وأسرع من الحافلات .. **وهى مريحة اذا قدر لك أن تجلس الى جوار السائق ، أو اذا لم يقدر لك أن يجلس راكب آخر فوق رأسك ! .. وحتى فى هذه الحال ، ستجدها ارحم من الحافلات !**

انه نظام لا بأس به ، ولكن من المستحيل استخدامه هنا .. فى (لندن) . فان هذا سيبدو فى أعين «حزب المحافظين» اشتراكية صريحة، لانه سيؤدى الى تقليل عدد «التاكسيات» للاستخدام الفردى .. وهو سيبدو ـ فى الوقت ذاته ـ دسيسة رجعية فى نظر الاشتراكيين ، لانه سينافس ادارة النقل المؤممة فى لندن ، ويفتح الباب للمشروعات الخاصة .. فضلا عن أننا ـ معشر البريطانيين ـ متعجرفون ، نأبى أن نستورد العادات الاجنبية من الخارج ، لاسيما اذا كان هذا « الخارج » هو .. اسرائيل !

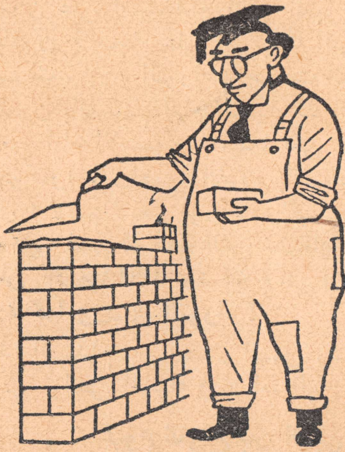
والوسيلة الاخرى للمواصلات فى (تل أبيب) هى « الاوتوبيسات » ، وهى صغيرة الحجم ، مزدحمة دائما فوق طاقتها حتى يصعب أن تتحرك . ويتولى السائق بنفسه تحصيل الاجر من الركاب، كما هى الحال فى الولايات المتحدة الامريكية، **فيستغرق وقتا طويلا فى اعطاء « الفكة » للركاب ، وصرف التذاكر ، والتشاجر . فاذا ما منح قيادة السيارة بعض دقائق من وقته ، أبت السيارة أن تتحرك !** .. ومع ذلك فان هذا النظام أحسن من النظام المتبع فى (لندن) ، لانك حين توقن من أن السيارة لن تتحرك بك ، تستقر فى مكانك وتطمئن الى أن فى الجلوس راحة ، فهو أفضل من الوقوف فى الصفوف الطويلة ـ المعهودة فى محطات « الاوتوبيس » فى لندن ـ فى انتظار دورك للركوب !

أساتذة جامعيون يشتغلون عمالا

• **ومعظم** الايدى العاملة فى اسرائيل ، ممن كانوا ـ قبل هجرتهم من بلادهم الاصلية ـ من الاساتذة الجامعيين والاطباء والمحامين . فقد لاحظوا عند وصولهم أنهم اذا أرادوا أن يعيشوا فلا بد لهم من ان ينتزعوا من الطبيعة كل شبر من الارض يستطيعون اليه وصولا . ومن ثم كانت البلاد أكثر حاجة الى العمال الذين يقتطعون الصخور منها الى ذوى الثقافة الرفيعة . **فلم يلبثوا أن أحرقوا شهاداتهم ودرجاتهم العلمية، وانخرطوا فى سلك العمال ..** وهناك نكتة شائعة فى اسرائيل ، مؤداها أن امرأة ذهبت الى أحد مكاتب الزواج ، وقالت ان لديها ألف جنيه ، وانها تنشد زوجا . فقال لها وكيل المكتب : « لدى صاحب حانوت صغير » . فصاحت المرأة : « شكرا ، لا أريد صاحب حانوت » . فقال الوكيل : « لدى طبيب شاب .. » ، ولكنها لم تدعه يتم حديثه بل صاحت : «لاأريد طبيبا » . فتطلع اليها الرجل وقد فقد صبره ، وصاح : **« ما الذى يدور بخلدك يا سيدتى ؟ .. أتظنين انك بهذه الجنيهات الالف تطمعين فى الزواج من عامل ؟ »**

ذلك لان العامل يحصل على أجور عالية .. ولعل ذلك رد فعل لما كان فى حياة الافراد من قبل . فان كثيرين ممن وفدوا على اسرائيل ، جاءوا من بلاد ظلوا يجدون ويجتهدون فيها حتى حصلوا على درجات علمية رفيعة ، ثم لم يسمح لهم بالافادة منها . فلم تكن شهاداتهم سوى قصاصات من الورق سرهم أن يحرقوها ـ عند وصولهم الى اسرائيل ـ اذ وجدوا أن الطلب على الايدى العاملة والعمال الزراعيين كان كبيرا ، فى حين أن الحاجة لم تكن ماسة الى وكلاء التأمين ، وأساتذة الرياضيات ، والمحاسبين القانونيين ! .. وهكذا استطاع هؤلاء أن يرقوا فى ميدان العمل ، وأن ينشئوا نقابات مهنية .

حزب يهودى لا يعترف باسرائيل



• **والصراع** السياسى فى (اسرائيل) لا يدور بين أنصار اليمين وأنصار اليسار ، وانما هو يدور بين حزبين يساريين كبيرين ، هما : «ماباى» ــ أى حزب العمال اليهودى ــ و « مابام » ، أى حزب العمال المتحدين ، وهو يسارى متطرف . واذا كان قيام أى حزب فى أوربا يستند الى « برنامج » ، **فان الاحزاب فى (اسرائيل) لاتضع لانفسها برامجا آلا تحت ضغط المعارضة .. أى أن الاحزاب هناك لا تتباين فى المبادىء، وانما تتباين فى الاشخاص فحسب !**

واليهود بطبيعتهم ذوو خيال فردى جامح ، ومن ثم تراهم يزعمون لانفسهم عقائد سياسية عجيبة .. فأنت تجد فريقا يسمون أنفسهم شيوعيين ، ولكنهم لا يعتنقون تعاليم ستالين ولا تروتسكى ولا تيتو .. وتجد فريقا يتحمس للتحالف مع بريطانيا ، على أساس أن « بيفن » كان من غلاة أنصار الصهيونية ، وكان يعمل ــ فى الخفاء ــ مع « ترومان » و « موسى شاريت » .. وهناك اليمينيون المتطرفون ــ حزب « ناطوره كرترا » ــ الذين يستندون الى مبادىء دينية ، **فهم يأبون الاعتراف بالدولة اليهودية ، لان التوراة ذكرت أن الذى يؤسس هذه الدولة هو « المسيح »** .. فمن القحة أن يقحم آدميون أنفسهم على دور المسيح عدوانا ! .. ومم

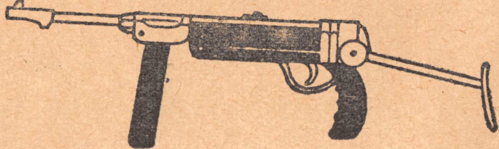
يعترضون على استخدام اللغة العبرية لانها لغة مقدسة .. وهم يلقون الاحجار على المركبات التى يرونها فى الشوارع فى أيام السبت ، لان « التوراة » حرمت الحركة يوم السبت ، حتى انهم يلقون بأنفسهم أمام السيارات التى تنقل الذخائر فى ذلك اليوم من أيام الاسبوع ، مهما تكن حاجة الحرب ووطأتها . فاذا حوكموا ، رفضوا الادلاء بأسمائهم ، أو الاجابة عن أى سؤال ، لانهم لايعترفون باسرائيل كدولة .. **وقد كانوا يدعون الى ضم الرقعة التى تشغلها اسرائيل ، الى الاراضى التى كان يحكمها الملك عبد الله ، الى أن يظهر « المسيح » ويقيم دولته ، كما ورد فى التوراة !**

وهذا الصدام بين أنصار العمل ودعاة احترام يوم السبت ، يعلبع كل نواحى الحياة فى (اسرائيل) .

غيوم النزاع بين الدين والدولة

• **ومع** ذلك فان كل الاحزاب تنشد ود حزب غلاة المتدينين ، لان تحالفه معها يرجح كفة الاغلبية فى « الكنيست » ، مما أكسب هذا الحزب سلطانا ارهابيا فى البلاد . فضلا عن أن أى اصطدام بينه وبين الحكومة ، كفيل بأن يرسلها صيحة مدوية فى (أمريكا) أن اليهود يلقون اضطهادا فى (اسرائيل) ، وأن « بن غوريون » يقوم باجراءات عدوانية ضد الجنس السامى ، **فيؤدى الى تضاؤل الدولارات التى تمس الحاجة اليها . ومن ثم يبدو أن غيوم النزاع بين الدين والدولة تتجمع فى أفق (اسرائيل) .**

ووفاء منى لما عاهدت به نفسى — فى بداية هذا الكتاب — أرانى مضطرا الى أن أترك للتاريخ الجواب عن هذا السؤال : هل كان الارهابيون قطاع طريق أو محررين ، قتلة او ابطالا؟ .. على اننى أوقن من ناحية واحدة من نواحى هذه المسألة ،



هى أن فى وسع المرء أن يقول ـ على أساس المنطق ـ **أن قضية الارهابيين (وهى انشاء دولة يهودية مستقلة) لم تكن ذات مبرر مقبول ، بل كانت خاطئة من الناحية الخلقية والادبية . أو .. مهما تكن القضية عادلة ، فقد كان من الممكن تحقيقها بدون ارهاب ، ومن ثم فالارهاب لم يقم على أى مبرر ..** ويزعم الارهابيون لانفسهم كل الفضل فى « تحرير بلادهم ! » ، ولكنهم لم يلقوا أى عرفان .. لا سيما وانهم ـ فى الحرب بين اليهود والعرب ـ أثبتوا أنهم جنود غير صالحين ، وان كانوا ارهابيين بارعين ! .. وهم فى «الكنيست» يلقون خطبا طويلة ، ولكنهم يذعرون حقا اذا نبههم رئيس المجلس الى أنهم قد خرجوا عن اللائحة .

ولقد تحدثت الى أحد زعماء الارهابيين ، فاذا به يحن الى الايام التى كانت انباؤه تتصدر خلالها الصفحات الاولى من الصحف .. واذا هو يفكر فى الهجرة الى بلاد أجنبية تكون الثورات فيها محتدمة .. انه أشبه بصانع ماهر بدون عمل !

المهاجرون الجدد الى « أرض الميعاد » !

• **ولقد** زرت معسكر (بارديس حناه) للمهاجرين الجدد ، فوجدت فى مديره أبرع من يجيد الدعاية فيمن قابلتهم . فقد نبهنى ـ فى البداية ـ الى أن بعض النزلاء قد يريدون أن يبثونى شكاواهم ، فلما سألته عما قد يكون لديهم من أسباب الشكوى ، قال : « ستجد أن واحدا يطالب بغذاء أفضل ، وآخر يطالب بغذاء خاص « رجيم » ، وثالث يريد أن ينتقل

من خيمة الى دار ، ورابع قد يشكو من أن زوجته هجرته وانتقلت الى خيمة أخرى ! »

والواقع أن الامور فى المعسكر من أشنع مايمكن .. ففى المعسكر ٤٥٠٠ شخص ، ثلثهم تقريبا من (بلغاريا) ، وثلث آخر من عدة معسكرات فى ألمانيا ، والثلث الباقى من شمال أفريقيا وتركيا . **ويقيم حوالى نصف النزلاء فى دور ، بواقع عشرة أفراد فى الحجرة ــ تحت أقسى ظروف الازدحام ــ بينما يقيم الباقون فى خيام .. ومعظمهم معدمون ، مفلسون .** وليس بوسع أكثر من ١٠ فى المائة منهم أن يحصلوا على عمل خارج المعسكر . أما الباقون فيقضون أوقاتهم فى المعسكر ، او يذهبون الى (تل أبيب) و (حيفا) ، أو يتسكعون حول مكاتب العمل . ويسود جو المكان شعور بخيبة الآمال . فقد جاءوا مترعين بالآمال الوردية ، فاذا بهم يصدمون .

واذا شاء أحد نزلاء المعسكرات أن يقضى عمره كله فيها ، فلن يجد معارضة ، ولكن قليلا منهم من يبغون ذلك . على أن المرء لايكاد يترك المعسكر حتى يسقط كل حق له على الدولة فى أن تعينه .. أما الاطفال ــ وهم حوالى ثلث نزلاء (بارديس حناه) ــ فعلى النقيض من الكبار ، اذ أنهم يلقون عناية كبيرة ، ويقيمون فى بيوت حديثة ، ذات أثاث مريح ، حيث يرعاهم حشد من المربيات والمدرسين والمدرسات والاطباء . **ولقد كنت واسع الحكمة طبعا (!) فقلت لنفسى : « انهم يبثون فى عقولهم أفكارا زائفة !! » ، ولكنى تجاهلت الامر !**

ويبلغ عدد النزلاء فى المعسكرات جميعا ــ وهى (بارديس حناه) وأربعة معسكرات ملحقة به ــ ١٦٫٠٠٠ نسمة ، وهناك معسكرات أخرى .. على أن عدد من نزلوا بهذه المعسكرات فى مجموعهم ٧٠٫٠٠٠ ، ومعنى هذا أن الباقين وجدوا لانفسهم أماكن فى المجتمع . ولا يزال يتدفق على هذه

الدويلة الضئيلة الحجم عدد هائل من الناس .. ولن يتعذر على أحد أن يتبين شظف عيشهم ، ومدى مايعانون من آلام ومتاعب .

جنـــون انجليزى .. ؟ !

• **وقدر** لى أن أزور مستعمرة كان أغلب اعضائها من المهاجرين الانجليز الاصل ، ومعهم عدد من الالمان ، واثنا عشر من الفرنسيين ، وتسعة عشر من الاستراليين . **ولم تكن المستعمرة مجرد منشأة لمقام هؤلاء المهاجرين ، بل كانت ـ كذلك ـ مركزا دفاعيا ، أقيم على مقربة من الحدود السورية .**

وكان معظم الرجال الانجليز من انجلترا ذاتها ، وقد كانوا فى الجيش البريطانى ـ فى الشرق الاوسط ـ خلال الحرب العالمية الثانية . فلما وضعت الحرب أوزارها ، عادوا الى انجلترا ، فسرح كثير منهم من الخدمة ، واذا بهم يرحلون الى (اسرائيل) .

وتولى ارشادى ـ أثناء طوافى بالمستعمرة ـ اثنان من أعضائها : احدهما ابن سائق « تاكسى » فى لندن ، والآخر شاب من (مانشيستر) .. **وقد اشتغلا فى تكسير الاحجار والصخور ، وقالا أنهما سيضطران الى المضى فى تكسير الاحجار لسنوات عديدة ، قبل ان تصبح التربة صالحة للزراعة والانبات .**

ولم يكن للمستعمرة من دخل ـ الى أن يتم ذلك ـ سوى ما يكسبه بعض أعضائها من العمل فى خارجها .

وسألت أولهما ، ويدعى جيرشون : « أما كان فى وسعك أن تحصل على عمل أسهل ؟ » . فأجاب : « ربما .. » . وسرنا بضع خطوات دون أن نتكلم ، ثم عدت أسأله : « ألست نادما ؟ » . وحاول أن يتظاهر بأنه راضى الضمير ، فسألته : « ولكن ، لماذا جئت الى هنا ؟ » .. وهز كتفيه ، وابتسم

قائلا : « لاصلح حالى .. وحال الدنيا ! »

وكان يرافقنى صحفى ايطالى ، لم يكد يسمع الجواب، حتى همس فى أذنى : « انه مجنون ! » .. والحق اننى وجدتنى ــ فيما بعد ــ أفكر فى ذلك .. اننى قد ارتاب فى جنون الشخص الذى يقتل عددا من الناس ، ويخفى معالم عمله بمهارة رائعة ، ويحتال على الناس بصفقات زائفة .. ولكنى أوقن تماما من جنون الشخص الذى يقبل غلاية علي النار ويقول لها : « أواه يا حبيبتى ! » ، غير عابىء بالحروق التى تصيب فمه ! .. **واذا ما هجر شخص فرصا طيبة فى (لندن) ، وجاء الى فلسطين ليحطم الاحجار ، وهو يصر على أن تكسير الاحجار يلهمه مبادىء ومثلا عليا .. فماذا أملك للحكم عليه ؟ !**

لقد كان هذا الشخص ــ وزملاؤه ــ على قدر من الجنون .. على أية حال !

..(دوش) بارد للفتية الامريكيين !

• **وزرت** مستعمرة أخرى كلها أمريكيون ، جنوبى حدود لبنان .. كان ثمة ١١٠ أفراد من الشبان والشابات ، وقد أقاموا فى اطلال بيوت من الحجر ، بدلا من الاكواخ والخيام ، لحسن حظهم . على أن المستعمرة كانت قائمة على قمة جبل معرض لاعتى الرياح ، حتى أن الهواء يحمل المشاة فيها فى الايام العاصفة .

واستقبلنا فتى من (بروكلين) يدعى «دانى»، أرانا حجرة للادارة مزودة بأثاث مريح ، وآلات كاتبة ، وآلات حاسبة ، ورأديو جرام ، و « راديو » عادى ، وعدد من المدافىء الكهربائية .. وكان هذا هو الاثر الاول الذى أرادوا أن يطبعوه فى نفوسنا !

وعلمت من «داني» أن ثمة منظمة للآباء في الولايات المتحدة، تمدهم ببعض المساعدات المالية، وبالاجهزة والآلات. ولمست ان أفراد هذه المستعمرة - وتدعى (ساسا) - هم أكثر الوافدين حنينا الى وطنهم الاصلي.

ومضى «داني» يذكر لي مدى نشاطهم الزراعي والصناعي، حتى اذا بلغنا «ورشة» للنجارة، قال لي أنهم يصنعون كميات هائلة من السلالم الخشبية، تبتاعها منهم الوكالة اليهودية. فسألته: «وما حاجة الوكالة الى كل هذه الاعداد الهائلة من السلالم الخشبية؟»، فهز كتفيه وأجاب: «لست أدري .. ولكنها تشتريها!»

وفيما كنا منصرفين، توقفت سيدة أمريكية كانت تصحبنا - وكانت زوجة كاتب يراسل مجلة في (نيويورك) - وشرد ذهنها لحظة، ثم قالت: «لعمري .. أن هؤلاء الفتية في حاجة الى (دوش) بارد، يرد اليهم عقولهم!»

.. عائد من اسرائيل!

• **عندما** هبطت بي الطائرة في مطار (نورثولت) بانجلترا - عند عودتي - تأمل موظف الجمارك جواز سفري. **وما أن رأى أنني كنت قادما من (تل أبيب)، حتى فتح جميع حقائبي بعناية، وراح يفحص كل صغيرة وكبيرة فيها .. حتى الجوارب المتسخة.** فلما فرغ، قال لي: «أتسمح بأن تتبعني؟».

وقادني الى حجرة صغيرة، ثم أمرني بأن أخلع معطفي، وأن افرغ كل ما في جيوب سترتي وسروالي. وبعد أن فحصها جميعا، شكرني مبتسما. فأعدت كل شيء الى جيوبي، وارتديت معطفي. وفيما كنت أدس يدي في جيبه - جيب

المعطف لا المـوظف ! ـ عثرت على كرة صـغيرة من المطاط الاسود ، فدفعت بها الى الموظف . وسألنى : « ماهذا ؟ »

ـ قنبلة ذرية .. ولكنها ضئيلة الحجم !

فتناولها ، وتحسسها حتى اطمـأن الى أنهـا كرة عادية ، فقال : « أجديدة هي ، أم مستعملة ؟ »

ـ بل هى جديدة ، لم تستعمل .

فلفها بين أصابعه ، وقال : « انها مصنوعة فى بريطانيا ، فلا رسوم جمركية عليها ! »



تلخيص : فرج جبران

الحقيقة .. بعد مأساة رهيبة !

◆ .. كان الظلان واضحين أمام الزوج ، فلا سبيل الى أن يرتاب فى معناهما .. كانا يمثلان قبلة يطبعها أحد صاحبى الظلين ، على عنق صاحب الظل الآخر .. ولم يكن هناك سوى صديقه الحميم ، وزوجته !.. وهكذا عصف الشك والغيرة بعقله ، ولكن الأيام لم تلبث ان فاجأته بالحقيقة ، بعد مأساة مفجعة رهيبة !

انها ليست قصة فحسب ، هذه التى نلخصها لك عن الكاتب الفرنسى « هكتور مالو » ، وانما هى درس بليغ !

◆ أنت تعرف - يا صديقى - فى أى ظروف غادرت باريس .. كنت متعبا ، محطما ، يائسا من كل شىء ، ومن جميع الرجال والنساء .. النساء على وجه خاص !

لقد أنهكتنى حياة باريس ، بعد عشرين سنة كانت كلها اسرافا فى كل شىء ! .. اسرافا فى الشراب ، وفى الطعام ، وفى الانفاق .. وفى النساء !

كم من مرة دخلت فيها أحد المطاعم لاتناول العشاء ، فكنت لا أكاد أجلس الى المائدة ، وألقى نظرة على قائمة الطعام ، حتى أحس بالسأم يتسرب الى نفسى ، وأفقد شهيتى ، فأبادر الى مغادرة المطعم لا ألوى على شىء ! .. وكم من مرة ذهبت فيها الى حفلة العرض الاول لاحدى الروايات الجديدة ، فما أن أتخذ مكانى فى احد المقاعد المتقدمة ، حتى أشعر بالملل فأغادر مقعدى فى الحال ، وأهيم على وجهى دون أن أعرف ماذا أفعل !

وأخيرا استقر رأيى على أن أعود الى الحياة الطبيعية .. كانت ثروتى قد تأثرت ، كما تأثرت صحتى .. ولم يبق لى الا ضيعة (مادندول) ، فقررت أن أنسحب اليها .. ولم أكن قد زرتها منذ توفى والدى ، لعشرين عاما خلت ، ولكن القصر المشيد بها كان لايزال على حاله . وهناك ، أقمت ستة أشهر

متتابعة ، كنت أتنزه خلالهـا فى الغـابات ، فأحسست بأننى استعدت قواى ولم يعد يشغلنى الطعام ، اذ أصبحت أدرك مقدما اننى سآكل بشهية كل ما يقدم لى ، سواء فى الغـداء أو العشاء !

* * *

ولكن المريض اذا تحسنت صحتـه ، لايلبث أن يشعر بأنه يحتاج الى شيء آخر لـكي يستكمل سـعادته .. واذا كانت ضيعة (مادندول) قد أعادت الى صحتى ، فانها لم تقص عنى حزنى أو سأمى .. **فماذا أصنع ؟ اأتنزه ، أم اصطاد ، أم أطعم ، أم أنام ، أم .. أتزوج ؟ !**

لقد كان كل ما أعرفه عن زوجات أصدقائى ــ وأسرارهن الخاصة ــ يجعلنى اشفق على نفسى من ان اتزوج ! .. فضلا عن اننى لم اكن ارى أحدا ، وكنت لا أغادر الضيعة الا لاذهب الى (اكس) أو (مرسيليا) !

ولكن ، حدث بعد ظهر يوم من الايام وأنا أتنزه مع صديقى البارون « ... » ــ ولن أذكر اسمه هنا ، ولكنى أكتفى بأن أقول اننا كنا أصدقاء من عهد الطفولة ــ **أن رأيت فتاة تجلس مع أمها فى ظلال شجرة كبيرة ، فأثر فى نفسى مظهرها الملائكي أكثر مما أثر فى جمالها !.. وكانت قدماى تحملاننى الى مقربة منها ــ كلما بعدنا ــ فأزداد تأثرا بعينيها الجميلتين !**

وبعد ستة أيام ، عدت الى (اكس) ، وعمدت الى جميع الوسائل الممكنة للوصول الى معلومات عن هـذه الفتـاة .. واستطعت أن أعلم أنها ابنة أحد المستشـارين ، وقـد توفى والدها منذ ثلاثة أعوام ، دون أن يترك لها مالا .. كان لديها الجمال والخفة والرشاقة ، ولكنها كانت بلا مال ، فلم تتزوج !.. وكان من الممكن أن تظل دون زواج ، اذ أن كرامتها كانت تأبى عليها أن تقبل أى رجل يتقدم اليها !



وقال لى صديقى البارون :
« انهـا لتستحق أن تعثر على زوج مثـلك ! » . فضـحكت قائلا : « أنا أتزوج ؟ ! .. وفى هذه السن ؟ أى جنـون ! » . فأجاب البارون : **« أما أنا ، فلو قدر لى أن أمتلك مثل نروتك لما ترددت فى طلب يدها فان فارق السن ليس كبيرا ! »**

وأخذ صـديقى يبرهن لى بحرارة ــ وبجميع الوسائل ــ على أن هذا الزواج اجراء عاقل، وليس من الجنون فى شىء .. فتركته وأنا أضحك !

* * *

ويطول بى الحـديث لو قصصت عليك ــ يا صـديقى ــ كيف أثرت فى تفكيرى حجج البـارون ، حتى قلت لنفسى فى النهاية : « اذا لم يكن الحب جنونا ، فالزواج ليس جنونا ! »

وكلفت صديقى البارون بأن يتوسط فى أمر خطبتها لى ، فرحبت الام بذلك ، نظرا لمكانتى وثروتى .. ولـكن الفتـاة رفضت ! .. وقد زادنى هذا الرفض رغبـة فيها ، اذ دلنى على أنها تعتز بكبريائها وانفتها رغم فقرها ، وانها لم تكن تريد مجرد زوج ، وانما كانت تبغى زوجا أثيرا بحبها .. ولم تكن تعرفنى .. فكيف تحبنى ؟

اذن ، ساجعلها تحبنى !

وقد استغرق هذا مجهود ستة أشهر كلها تعب وسـعى ومخاوف ويأس .. وسعادة أيضا ! واستطعت أخيرا أن أظفر

بها زوجة ! .. واستمر الحب بيننا بعد الزواج ـ وان خمد قليلا ! ـ وكان من الممكن الا تتلبد السحب فى سمائه ، لولا أننى لاحظت على زوجتى لمحة من الحزن الغامض .

ترى هل كانت تأسف على زواجها منى ؟ ! .. هل وجدت فى رجلا غير الذى كانت تحلم به ؟ !

على اننى لم أفكر كثيرا فى هذين السؤالين .. ذلك أنها كانت تظهر لى حبا جما ، وان لم يكن جامحا .. حبا لم يكن يخفى الا على من فقد بصره ، ولا يستخف بقيمته الا من لا قلب له !

ومع ذلك فان علامة الاستفهام التى كانت تواجهنى فى كل مكان ، سببت لى عذابا كبيرا ، ولولاها لكنت أسعد الناس فى العالم ! .. فقد رد الى هذا الحب حياتى ، بل أكثر من حياتى ... لقد أعاد الى شبابى الضائع ، وأعاد مع الشباب الثقة والحماس ! .. لقد عدت الى سن العشرين ، وعرفت كيف أعود اليها .. **ومن ثم فاننى لم أحب زوجتى من أجل شخصها فقط ، بل لقد أحببتها من أجل هذه المعجزة التى حققتها . لقد كنت على استعداد لان أعبدها اعترافا بجميلها هذا !**

لقد غير الزواج كل شىء فى حياتى .. ودبت الحياة من جديد فى القصر القديم ، وعادت اليه الحركة بعد الركود الطويل . وأخذنا نستقبل كثيرا من الضيوف . وكان البارون ، طبعا ، ممن يترددون علينا ، فكنا نستبقيه معنا أياما فى بعض الاحيان .

* * *

وفى ذات يوم خرجنا نحن الثلاثة للنزهة فى عربة كنت أقودها بنفسى ، وقد جلست زوجتى الى جانبى . أما البارون فجلس خلفنا فى أحد المقاعد الجانبية ..

ورأيت أن أعرج على مسجل العقود لعمل خاص ، فلما وصلنا الى داره ، وجدته واقفا بالباب يستعد للانصراف . ودهشت عندما تردد فى دعوتى الى الدخول ، وهو الرجل المهذب .. وقال معللا تصرفه : « اننى آسف لعدم تمكنى من استقبالك ، فقد استدعيت للذهاب الى (فونتانى) لتسجيل وصية ، ويبدو أن المسألة تستدعى العجلة ! » . فقلت له : « حسنا ! .. ان فونتانى فى طريقنا ، وسأقلك اليها . فاصعد الى جانبى لنتحدث فى الطريق عن مسألتى ، فانها – هى الاخرى – تستدعى العجلة ! »

وقفزت زوجتى من جانبى ، ثم صعدت الى المقعد الخلفى فجلست بجوار البارون ، بينما صعد مسجل العقود الى جانبى .

وشغلنا – فى الطريق – بالحديث فى مسألتى . حتى اذا وصلنا الى (فونتانى) ، أوقفت العربة فنزل مسجل العقود على مقربة من منزل عميله .. وأرادت زوجتى أن تنزل هى أيضا لتعود الى مكانها الاول بجانبى ، ولكنى نصحتها بالبقاء حيث كانت ، لان المنطقة التى كنا نجتازها ، كانت مشهورة بالتربة اللينة ، فخشيت عليها .. وألحت هى فى طلب الانتقال الى جانبى ، ولكنى قلت لها : « ان الخير فى أن تبقى مكانك ، فان المسافة الباقية من الطريق لاتستحق عناء انتقالك ! »

وألهبت ظهور الخيل فانطلقت فى طريقها ..

* * *

وكانت الطريق من (فونتانى) الى القصر تلتوى فى ممرات ضيقة ، حتى ليجد السائر عن يمينه أحجارا صماء ، وعن يساره وديانا عميقة تحف بها بعض الصخور وتنتهى بعد مائة متر أو أكثر بمجرى نهر صغير .

وبعد أن سرنا فى الطريق – صعودا – نحو كيلو متر واحد تقريبا ، كان علينا أن نهبط دربا طويلا شديد الانحدار ..

وفى هذا الهبوط، كان لزاما على أن أكون شديد اليقظة والانتباه ، فقد كان الجوادان صغيرى السن ، مفعمين بالنشاط والقوة ، مما كان يتطلب أن أسيطر على قيادهما تماما . وكنت — فى الجزء الذى سرنا فيه صعودا فى الطريق — قد أهملت الجوادين وتركتهما يسيران على مهل ، وأدرت رأسى ، وأخذت أتحدث الى البارون . ولكننا لم نكد نشرف على الجزء الهابط من الطريق ، حتى أعتدلت وتركت البارون وشأنه ، وانتبهت للجوادين ..

وكان البارون وزوجتى يجلسان على مقعد واحد وقد أدارا ظهريهما للشمس التى كانت فى طريقها الى الغروب ، حتى لاتضايق أعينهما .

وفجأة ، فى هذا الجزء الخطر من الطريق ، رأيت أمامى على التل ظلال شخصين متقاربين كل الاقتراب .. كأنهما متعانقين فى قبلة !

وذهلت ، ولكن التل مالبث أن تباعد بسرعة ، فاختفت معه الظلال ، ولم أعد أرى شيئا !

ثم عاد التل من جديد ، فرأيت الظلين مرة أخرى . رأيتهما بوضوح تام كما لو كانا أمامى فى مرآة تعكس صورتيهما ! .. وكان أحدهما ظل زوجتى ، والآخر ظل البارون ! .. وكان البارون ينحنى على زوجتى .. فيقبلها فى عنقها !

أفكان هذا ممكنا ؟ .. أم تراه كان وهما ؟ !

ولكن الحقيقة كانت ماثلة أمامى ، على الصخر .. بل كانت تتبعنى ! .. لقد رأيت كل شىء ... بل اننى لا أزال أراه !

* * *

ولم أدر رأسى نحوهما ، بل ألهبت الجوادين بضربات غاضبة من سوطى ، وأنا لا أكاد أعى ما أفعل ! .. واندفع الجوادان بسرعة جنونية !



ولست أدرى ما حدث بعد ذلك ، ولكنى وجدت نفسى ملقى فوق الارض ، عند حافة التل، وقد اعترضتنى بعض الصخور فحالت دون سقوطى الى الهاوية .

وسمعت صوتا ضعيفاينادى باسمى .. وأردت أن أتقلب على جنبى الآخر، لاعرف مصدر الصوت، فلم أتمكن من ذلك الا بكل صعوبة ..

وكانت هى .. زوجتى ، وقد تعلقت بصخرة ، فتشبثت بها فى استماتة حتى لاتسقط ! .. وهتفت باسمى مرةأخرى!

.. وقلت بصوت واهن ، وأنا لاأقوى على الحركة : « لقد رأيت ! .. رأيت القبلة ! » . فهتفت بصرخة يائسة : «رباه!»

ثم لمحتها وقد أخذت أصابعها تنفرج عن الصخرة التى كانت تتشبث بها .. وما لبثت أن رأيتها تهوى فى الفضاء بسرعة ! **.. وكانت نظرتها الاخيرة ـ التى ألقتها على من الفضاء ـ مفعمة بالحب والعطف !**

وكان بعض عمال المحاجر قد أقبلوا على أثر انقلاب العربة، فوجدوا أن ساقى قد كسرت ، وأن عظام كتفى قد انتقلت من مكانها .. ومع اننى كنت عاجزا عن الحركة ، الا أننى ظللت أستطيع الكلام والسؤال . فما لبثت أن عرفت أن زوجتى ماتت .. هوت فى النهر فجرفها التيار ! .. وكذلك مات البارون !

* * *

واستطاع الطب أن ينقذنى .. وفيما كنت فى دور النقاهة ـ بعد أشهر ـ سعيت الى مخدع زوجتى ، فعثرت فيه على حزمة من الرسائل ، تبينت أنها كانت من .. البارون !

وهممت بأن ألقى بهـا غذاء لنار المدفأة ، لولا أن حملنى الفضول على أن أحاول تعرف ماكان بها .. وسرعان ماأدركت أن البارون كان قد وقع فى غرام زوجتى منذ سنوات ، ولكنه لم يشـأ أن يتزوجها لفقرها . فلما سنحت له الفرصـة ، زوجنى بها أملا منه فى أن يجعل منها عشيقة له ، ولكنها أبت أن تنقاد لرغبته ، فراح يطاردها ويهددها ..

وهنا فقط ، أدركت بشاعة غلطتى .. أدركت أن القبـلة التى وشى بها الظلان كانت مغتصبة .. لم تجد بها المسكينة عن طواعية واختيار !



رسالة فى :

الحب الأخوى

دراسة مشوقة فى الحب الذى يربط بين الأخوة

للحكيم الاغريقي الخالد : بلوتارك

صوت عبر القرون والاجيال !

◆ فى العدد (٧٨) من « كتابى » ، قدمنا اليك بحثا طريفا مشوقا للفيلسوف الاغريقى الخالد « بلوتارك » عن « الحب » .. واليوم ، نسمعك - مرة أخرى - صوت هذا الحكيم ، ينتقل الينا عبر القرون والأجيال ، ليحدثنا فى موضوع من أدق الموضوعات الاجتماعية فى كل أسرة ، وفى كل عصر .. انه حديث العلاقة بين الأخ وأخيه.. حديث الحب الأخوى ، وحديث الغيرة والتنافس والخلافات التى كثيرا ما تفرق بين الأخ وأخيه ، فتهدم أسرات ، وتفكك النواة الأصلية لكل مجتمع ..

وانا لنقرأ هذا البحث فنشعر كما لو كان « بلوتارك » يعيش فى عصرنا الحاضر ، ويفكر على هدى الأسس العلمية الحديثة ، ويعالج الموضوع على ضوء النظريات الاجتماعية والنفسية التى ينادى بها علماء الاجتماع والنفس اليوم .. فهذا البحث - الى جانب قيمته - دليل قاطع على ان لا جديد .. تحت شمس العلم !

الطبيعة تلقن الاخوة درسا ملموسا

◆ .. **أما** أنا ، فألاحظ أن الحب الاخوى اليوم فى ندرة البغضاء الاخوية فى الايام الغابرة . ويا لها من ظاهرة هذه التى تجعل الحياة تبدو وقد تطورت الى هذه المرحلة المحزنة . فان دهشة الناس اذا ما صادفوا أخوين صادقى الود فى أيامنا هذه ، لا تقل عن دهشتهم لرؤية توأمين ينمو جسداهما معا متلاصقين !

ومع ذلك فان الطبيعة ذاتها قدمت للبشر مثالا حيا على التزامل الاخوى ، ويا له من مثال بسيط !.. فقد تعمدت أن يكون معظم الاعضاء الضرورية - فى الجسم ذاته - أزواجا ، كل زوج كالاخوين ، بل كالتوأمين .. **فهناك يدان ، وقدمان ، وعينان ، مما يوضح بجلاء أن مثل هذا الازدواج انما أريد به السلامة المتبادلة والتعاون ، لا التنافر والتناحر.** ولقد شاءت

طبيعة اليدين ان تكون لهما أصابع عدة ، غير متساوية ، مما جعلهما أدق وأمهر الادوات للانسان . وهذا ما أغرى « أناكساجوارس » بأن يعزو الى اليدين انهما مصدر الحكمة والفهم الانسانيين .. وان كان الواقع والحقيقة نقيض ذلك ، فما الانسان بحكيم لانه أوتى يدين ، وانما هو أوتى هاتين الاداتين بفضل بعد نظر الطبيعة وحذقها !

كذلك من الواضح للجميع أن الطبيعة تنبت من الحبة الواحدة ، وتخرج من المصدر الواحد أخوين أو ثلاثة أو أكثر ، **لا للتفرقة والتنازع والتزاحم ، انما ليشعر كل واحد بأنه ضعيف فى حد ذاته ، فمن الخير أن تتعاون فيما بينها ! ..** على أن هذه الانواع من الاخوة تنمو معا ، متلاصقة فى جميع أجزائها ، فلا سبيل لها الى نشاط مستقل خارج الجسد الواحد الذي يضمها . أما الاخوة من البشر ، فمن الممكن أن يبقوا فى وطنهم ، أو يرحلوا عنه ، أو يعملوا فى الحياة العامة ، أو يشتغلوا بالزراعة ، بحيث يساعد كل منهم الآخرين .. **هذا ، اذا حرصوا على النية الحسنة وعلى الانسجام الذى آثرتهم به الطبيعة أصلا وجوهرا .** فاذا لم يفعلوا ، فانهم لن يكونوا مختلفين – فى رأيى – عن القدمين اللتين تدوس احداهما الاخرى ، أو عن الاصابع التى تعرقل بعضها حركات بعض .

حاجتنا الى الصداقة تدعيم لقيمة الاخوة

• **وبتعبير** أفضل : ان أعضاء الجسد الواحد تتقاسم فيما بينها الهواء والقوت ، كما أن العزم والغاية المشتركين يمزجان الرطوبة بالجفاف ، والبرد بالحر ، ويوزعانهما على الجسم فيتقاسمها البنيان كله ممثلة في درجة حرارة واحدة ، ومزاج واحد . ولو أن التزاحم والتناحر دبا بين أعضاء الجسد ، لتداعى المخلوق الحى وهلك .. **وكذلك نرى أن التوافق والانسجام بين الاخوة يؤديان الى سلامة بنيان الاسرة ، والى**

ازدهار البيت ، ويصبح الاصدقاء والخلان أشبه بفريق واحد، متحد فى القول والعمل والفكر .

أما فى غمرة الفرقة والشقاق ، فان الانذال يظفرون بالتكريم .. أمثال العبيد النمامين، والاغراب المتملقين، والحاسدين . ذلك لاننا نرى أن سوء النية والارتياب فى الاهل يغريان رفاق السوء والاشرار على أن يسعوا بالوقيعة . وعندما يشتجر الاخ مع أخيه ، ويسعى الى اكتساب صديق من الاغراب ، فانما يكون عمله كمن يقتطع جزءا من لحمه، ويضع محله لحما غريبا !

بل أن حاجتنا الى السعى لاكتساب الود والصداقة ، تعلمنا أن من واجبنا أن نمجد صلات القربى ونتعهدها ونصونها . ذلك لاننا غير مهيئين بطبيعتنا للعيش بمعزل ، ولسنا على ذلك بقادرين .. ومن ثم نصبو الى الاصدقاء والزملاء . **وما الصداقة والزمالة – فى الواقع – سوى صور لتقليد الرابطة البدائية التى أودعتها الطبيعة الابناء نحو آبائهم ، والاخوة نحو أخوتهم !** .. واذا كان الامر كذلك ، فأى انسان هذا الذى ينادى صديقه بيا « أخى » ، بينما يعزف عن أن يسير فى طريق يسير فيها أخوه الحقيقى ؟ .. أن من الجنون أن تشغف بصورة الاخ – أى الصديق – بينما أنت تضرب الاخ الحقيقى أو تغبنه !

حب الاخ اسعاد للوالدين

• **أذكر** أننى تكفلت – حين كنت فى روما – بالفصل بين أخوين . وكان أحدهما قد اشتهر بأنه فيلسوف ، ولكنه لم يكن أهلا للقب « الفيلسوف » ، كما لم يكن جديرا بلقب « الاخ » . وعندما دعوته الى أن يتصرف تصرف الفيلسوف نحو الاخ والانسان العادى ، قال : « مثل هذا النصح خليق بعامة الناس . أما أنا فلست أعلق أية قيمة خاصة على مولدنا من رحم واحد » .. ولكن البشر أجمعين يرددون أن الآباء

يلون الآلهة فى الظفر بأعظم آيات التمجيد والتكريم . **وليس فيما يفعله البشر ما هو أدعى لرضاء الآلهة من ارضاء الآباء ، وادخال الهناء على قلوبهم .. وأى عمل أدعى لسعادة الاب والام من أن يبدى الاخ لاخيه حسن النية والمحبة ؟**

ان أبناء الاسرة الواحدة اذا سبوا عبدا ولد ونشأ بين أحضان الاسرة ، تسببوا فى أسى الوالدين .. وان اهمال كلب أو جواد كان الوالدان يعطفان عليه ويرعيانه ، خليق بأن يثقل قلبيهما فى كبرهما . فهل تراهما — بعد ذلك — قادرين على أن يحتملا أن يكون أبناؤهما على شقاق وتباغض ، وان يكون الاخ معارضا لاخيه فى كل مشروع وكل صفقة ، فيقضى كل منهما على الآخر بالضياع ؟ .. **أما حين يكون الاخوة متعاطفين ، متحابين ، تنم مشاعرهم عن الترابط الوثيق الذى هيأتهما الطبيعة له ، فان حبهم الاخوى يضفى على الوالدين فى شيخوختهما مسرة وهناء .** وما من أب يشغف بشىء — سواء كان هذا الشىء مجدا أو مالا — قدر ما يشغف بأبنائه ، ومن ثم فهو لا يفرح اذا رأى أبناءه مبرزين ، أو أغنياء ، أو ذوى سلطان ، قدر ما يفرح حين يراهم متحابين .. ولقد مات « الزركسيس » حزنا وكمدا ، حين علم أن ابنه « أوخوس » كان يتآمر على أخوته . وقال يوريبيديس : « ما أمر الحرب بين الاخوة ! » ، وهى أكثر مرارة على نفوس الآباء .

كراهية الاخ أسوأ ميراث تتركه للابن

• **والابناء** الطيبون الصالحون لا يتحابون من أجل آبائهم فحسب ، بل انهم يزدادون حبا لآبائهم ، نتيجة ما بينهم من ود . فهم لا ينفكون يعتقدون — ويعلنون — أنهم مدينون بالفضل لآبائهم ، لامور كثيرة ، أعزها وأعظمها أنهم أنجبوهم أخوة . فهذه أحلى وأغلى نعمة يظفر بها أبناء من والديهم .

وعلى هذا ، نرى أن حب الاخ لاخيه دليل مباشر على حبه

لابيه وأمه ، كما أنه درس لامثيل له لابناء الاخ ، ومثال يحتذونه فى حب بعضهم بعضا . ذلك لان الابناء على استعداد دائما لان ينهجوا منهج الآباء . فاذا وجدوا أباهم يحب أخاه ، أحبوا هذا الاخ ، وأحب بعضهم بعضا . والرجل الذى يعيش عمره فى نزاع وشقاق مع اخوته ، انما يخدع نفسه حين ينصح أبناءه بأن يتحابوا فيما بينهم . **فالكراهية بين الاخوة زميل سوء فى الكبر ، وهى أسوأ غذاء للابناء ، ومن ثم فلا بد من محوها وتطهير النفوس منها .** كما أنها كفيلة بأن تثير هواجس المواطنين وشكوكهم . اذ أنهم لا يصدقون أن العداء والبغضاء يدبان بين أخوين ـ بعد أن ترعرعا معا فى مودة وثيقة وألفة سابغة ـ مالم يكن كل منهما قد تعرض لكثير من أفعال السوء من أخيه . فيفقدون ثقتهم فى الاثنين معا .

الاخ قبل الولد .. !

• **والاشياء** التى تلحم معا ، يمكن أن يعاد لحامها اذا هى انفصلت بعضها عن بعض ، ولكن من العسير ـ بل المتعذر ـ اعادة ربط وحدة الجسم الواحد اذا ما تفككت .. وكذلك الصداقة القائمة على الغرض ، يسهل أن يعاد توثيقها . **أما الاخوان اللذان يفصمان عرى الرابطة الطبيعية التى خلقا عليها ، فمن العسير أن يتمكنا من أن يعيدا تلك الرابطة الى ماكانت عليه . ذلك لان أتفه الامور قد تنكأ الجراح القديمة بعد أى وفاق .**

والواقع أن العداء اذا وجه نحو الاخ الذى يشاطرك الاصل والاجداد ، والذى لابد من أن يشاطرك المثوى الاخير ، يخلق فى النفس آلاما لا تنفك تضج وتصرخ متوجعة ، فتعيد الى ذهنك ما كان بينكما من سخائم . **والمرء قد ينشىء صداقات وجيرات جديدة ، اذا هو استغنى عن القديمة ، أما الاخ فلا سبيل الى تعويضه ..** وما أصدق ماروا. « هيرودوت » عن

تلك المرأة الفارسية التى وضعتها الاقدار أمام أمرين لا ثالث لهما : اما أن تنقذ أخاها ، أو تنقذ ابناءها . فلم تتردد فى انقاذ أخيها ، اذ قدرت أن بوسعها أن تنجب ابناء آخرين ، ولكنها — وقد مات والدها — لاتستطيع أن تحظى بأخ آخر .

ما من نفس خلت من شوائب

• **وقد** يقال : « ماذا يفعل المرء اذن، اذا كان له أخ سيء ؟ »

ان أول مايجب تذكره — فى هذا الصدد — هو أن السوء يتسرب عادة الى كل علاقة . وكما قال سوفوكليس : « لو تغلغلت فى نفوس أغلب البشر ، لوجدت حطة » ! . **فما من رابطة عائلية ، أو ودية ، خالية من كل الشوائب اطلاقا . على أن الاخ خليق بأن يتحمل السوء من أخيه ، بدلا من أن يقابله بمثله أو يروى سوءه للغريب** . ذلك لان ما يعيب أخاه يعيبه هو ، اذ أنهما يشتركان فى الدم ، وفى النشأة ، وفى الام والاب ، ومن أجل ذلك يجب التغاضى عن الهفوات .. وماذا يقال فى أولئك الذين يتسامحون ازاء غلطات الاغراب ثم يبدون الغضب نحو أخيهم ؟ .. أو فى أولئك الذين يدللون الكلاب أو الخيل الشرسة — بل والقطط والقردة — ثم يأبون أن يطيقوا غضب أخوتهم أو جهلهم أو غرورهم ؟ .. أو فى أولئك الذين يهبون البيوت والحقول لعشيقاتهم وللعاهرات ، ثم يصرون على مخاصمة اخوتهم من أجل شبر من الارض ؟ .. ثم ينطلقون يتهمون اخوتهم بالخبث والشر !

اذا غضب الاب على واحد من ابنائه

• **ومن** حق أى ابن أن يبدى لابويه صنوف الرعاية والاكرام، ليكتسب ودهما ورضاءهما ، ولكن .. كم من امرىء اتخذ هذه الوسيلة ليستأثر دون اخوته بالمكانة لدى الابوين ، عن طمع غادر ! .. **ان الذين على هذه الشاكلة يحرمون اخوتهم من أعظم وأسمى نعمة يهبها الابوان أبناءهما ، وهى نعمة :**



الرضى . انهم يتسللون كالنمل ليقتنصوا الفرص التى تمكنهم من أن يسطوا على ما لاحوتهم من أنصبة فى قلبى ابويهم ..

وجدير بالاخ أن يعمل نقيض ذلك .. فاذا غضب الاب على ابن ، وجب على الاخ أن يقف الى جانب أخيه ، وأن يشاركه عبء غضب الاب بأن يحاول أن يخفف من وطأته ، وأن يسعى الى الاب بما يغريه بالصفح .. انه بذلك يصلح ما بين الاب وابنه ، ويضاعف من مكانته هو لدى الاب ، ولدى أخيه .

وليس تخفيفا لوطأة غضب الاب على الاخ ، أن يتملقه أخوه ويهون من سبب النقمة ، بل يجب أن يتحرى الذنب ويلوم أخاه صراحة على أنه ارتكبه ، ويبصره بموطن الزلل . فمن حق الذى يواجه سخط الاب ليخفف من غضبه على أخيه .. من حقه على هذا الاخ أن يلوم ويؤنب . **أما اذا كان الاخ بريئا ، فمن واجب أخيه أن يدافع عنه وأن يبصر أباهما بخطئه ، وان غضب الاب .** فان هذا لن يلبث ـ بعد سورة الغضب ـ أن يدرك الحقيقة ، فيزداد تقديرا لكل من الاخوين ، ويزداد اغتباطا بهما .

اذا مات الاب ، وقسمت التركة ..

• **وخليق** بالاخوة أن يزدادوا ترابطا وتعاطفا عندما يموت الاب ، فتكون الدموع والاحزان المشتركة معززة لحبهم . ويجب أن ينفروا من الساعين بالوقيعة والوشاية ، وأن

بصدوهم فى قسوة تزجرهم وتردعهم . **فاذا آن لهم أن يقتسموا التركة ، فليجتنبوا التنابذ والتناحر ما استطاعوا ، فان الصياح يوقظ الحرب .. يجب ان يقدموا الحب والتفاهم والانسجام على العداء والخلاف والفرقة** . ومن الخير أن يدبروا القسمة وحدهم ، أو أن يستعينوا بصديق للجميع ، وأن يأخذوا ويعطوا على أسس من الود والتعاطف .

أما أولئك الذين يساومون ويماطلون ويطيلون اللجاج ، لينتزع الواحد منهم ما تصبو اليه نفسه ، فانهم قد يفوزون بخير ما فى القسمة من أنصبة ، ولكنهم يفقدون أعز وأغلى ما فى التركة .. يفقدون ثقة الاخ ووده . ومن الاخوة من يفعل ذلك لا عن جشع أو طمع ، وانما عن منافسة وتمسك بما يرونه حقا . **وقد عرفنا – من هذا الفريق – اخوين ذهبا فى القسمة الى حد ان كسرا كاسا فضية الى نصفين !!**

يقابل هذا قصة «اثينودوروس» وأخيه الاكبر «اكسينون» . فقد كان الاخير وصيا على نصيب الاول من تركة والدهما ، فبدد جزءا كبيرا منها . ثم قدر له أن يسجن لانه سطا على عرض امرأة ، وأمر قيصر بمصادرة جميع أملاكه . وما لبث قيصر ان منح « اثينودوروس » قسما من الثروة المصادرة عوضا عن نصيبه من تركة أبيه ، فما كان من الفتى – الذى لم تكن لحيته قد نبتت بعد – الا أنه جعل ما ناله مشاعا بينه وبين أخيه الذى سبق أن اغتال حقوقه !

منشا الاحقاد بين الاخوة

• وفى هذا الصدد نذكر ما قاله الحكيم سولون عن أن المساواة لا يمكن أن تؤدى الى ثورة ، وما قاله أفلاطون من أن عدم المساواة يولد المتاعب ، فى حين أن المساواة تعزز الهدوء والطمأنينة . وعلى هذا فالتفرقة فى المعاملة بين أى أخوين تؤدى الى فرقة بينهما .

وتحقيق المساواة الكاملة التامة بين الاخوين ، أمر مستحيل ، اذ أن الطبيعة لاتمنح كلا منهما عين ما تمنح الآخر منذ البداية ، وبالتالى فإن حظيهما فى الحياة قد يتباينان . وقد تؤدى مثل هذه الفوارق الى الحسد والتنابذ .. وهما أبشع نقيصتين لاتخربان البيوت فحسب ، بل انهما تخربان المدائن . لذلك يجب اتخاذ الحيطة دونهما ، والمبادرة الى علاجهما اذا ماظهرا. فالاخ الذى أوتى مواهب أكثر من أخيه ، خليق بأن يجد من التوجيه مايجعله يسبغ على أخيه من أنعم مواهبه ، وينأى عن التفاخر والازدهاء بها على ذلك الاخ . فبالتواضع يستطيع أن يخفف من وطأة تفوقه ، وأن يقضى على كل حسد ، وأن يعوض أخاه عن عدم المساواة . **وما أسعد حظك لو استطعت بمواهبك أن ترفع أخاك الى مستواك حتى يشاطرك النعمة والشهرة والسعد !** .. وقد ضرب « أفلاطون » لنا المثل ، حين خلد ذكر اخوته فى مؤلفاته .

واذا كانت كل هذه النصائح موجهة الى الاخ المحظوظ ، فلا بد من توجيه نصائح الى الاخ الذى غبنته الطبيعة كذلك . يجب تذكيره بأن أخاه ليس الانسان الوحيد الذى يفوقه موهبة أو مكانة أو حظا ، وان له أن يسر ويفخر بتفوق أخيه على من عداه . **فاذا أصر على أن يحسده وأن يحقد عليه ، فهو – ولا شك – أشقى مخلوق فى الدنيا !** .. ان المرء ليفخر بتفوق أصدقائه ، ويعتز بما كان لابيه أو جده من مكانة ، فما أحراه أن يتيه بما لاخيه من نبوغ وتألق !

النساء .. أسوأ ميدان يتنافس فيه الاخوان

• **وليس** من الواجب أن يكون الاخوان أشبه بكفتى الميزان ، تنخفض احداهما اذا ارتفعت الاخرى ، بل يجب أن يكونا أشبه برقمين فى عملية ضرب حسابية : يضاعف صغيرهما الاكبر ، بعين القيمة التى يضاعف بها كبيرهما الاصغر .

وليست الاصبع التى لم تعدها الطبيعة للكتابة بأسوأ من الاصبع التى هيئت للكتابة ، **اذ ليس فى وسع هذه أن تؤدى مهمتها مالم تساعدها الاصابع الاخرى .. ولعلها ما خلقت متفاوتة فى الطول والمكان ، الا لكى يوازن بعضها بعضا !**

ولما كان البشر قد خلقوا بفطرتهم طموحين ، ناقدين لكل من يتفوق عليهم فى الشهرة والمكانة ، لذلك كان من أنفع الامور للاخوة أن يروضوا أنفسهم على أن لا يسعوا الى الشهرة والنفوذ فى ميدان واحد ، بل يسعى كل منهم فى غير ميدان الآخر .. على أن التنافس بين أى أخوين لا يبلغ من السوء فى أى ميدان ، قدر مبلغه اذا كان موضوع المنافسة فتاة ، يحاول كل منهما أن يكون الاثير بها .

لاتستمع الى أقاويل الغير عن أخيك

• **والى** جانب كل هذا ، يجب على المرء أن يأخذ حذره من أحاديث السوء اذا اتصلت بأقاربه . وقد تصدر هذه الاحاديث عن زوجة المرء نفسها ، فى بعض الاحيان . كأن تقول الزوجة لزوجها : ((**ان أخاك يتولى كل الشؤون ، والكل يؤثرونه بالاعجاب ويلتفون حوله . أما أنت ، فلا يسعى اليك أحد أو يحفل بك**)) . ومن واجب الرجل الحكيم أن يجيب ــ فى مثل هذه الحال ــ بقوله : ((حقا أن لى أخا حصيفا ، ماهرا ، محبوبا من الجميع .. ولى أن أفخر بمواهبه هذه !)) . فالاخ



العاقل هو الذى يفخر بما يظفر به أخوه بدلا من أن يغار منه .

والاخ الاكبر يزعم ـ بطبيعته ـ الحق فى أن يكون صاحب سلطان على الاصغر .. ولكن هذا لا يلبث أن يضيق ويشعر من سلطان أخيه بما يحط من قدره هو . ومن هنا تنشأ السخيمة والحقد . وهذه حال تخلق مشكلة من أعقد المشكلات . **وخليق بمن يظفر بالسلطان أن يشرك الآخر معه فى الرأى ، وأن يتواضع فى معاملته اياه** .. ليقنع بالاستدراج بدلا من الامر ، وليعود نفسه أن يبدى الاعجاب بما يأتيه أخوه الاصغر من صواب ، وأن يتلطف حين يبصره بالخطأ ! .. أما الاخ الاصغر ، فليذكر أن لفارق السن حقوقا ، اذ أن الاكبر ـ بحكم سنه ـ أكثر تجربة وخبرة بالحياة .. **ثم هو أسبق ترتيبا الى الوجود فى وسط الاسرة .. وان تحمله المسئوليات عبء يحتاج الى معاونة ، لا الى حسد وتنافس .** ثم ليذكر أنه بما يبدى من طاعة للاكبر ، يضرب المثل لمن يكون أصغر منه ، حتى يبدى له ـ بدوره ـ من الطاعة ما يرضى نفسه .

أسرع للصلح قبل مغرب الشمس !

• **على** أن الاخوين قد يكونان متقاربين فى السن ، وهذه مشكلة أخرى ، تترتب عليها متاعب من نوع آخر .. متاعب تبدأ منذ صغرهما حين يختلفان فى اللعب .. ثم فى صباهما حين يتنافسان فى الدراسة والرياضة .. **ثم يعجزان عن أن يضبطا نفسيهما فيما هو أهم واخطر ، عندما ينطلقان فى ميدان الحياة العامة ، ويجمح بهما الطموح .**

لذلك فمن الواجب بذل كل جهد مستطاع للحيلولة دون اندفاع الاخوة فى التنافس ، مهما يكن مجال تنافسهما تافها ..

والحياة من شأنها أن تنطوى على ظروف تستثير الشحناء بين المرء وأخيه ، لذلك يحسن بالاخوين الحكيمين أن يناقشا موضوع الخلاف فى هوادة ولين وهدوء ، دون أن يسمحا

للغضب بأن يتسلط عليهما . **وليأخذ كل منهما حجة أخيه بروية وادراك ، وليزنها بما يحب أن توزن به حجته هو ، فلا يلبثان أن يتبينا مبعث النزاع ، فيعالجاه معا . وبذلك يطهر عقلاهما من كل شك ، وقلباهما من كل غل .**

ولنأخذ هنا بما كان يتبعه تلاميذ « فيثاغورس » ، وان لم يكونوا أخوة ، أللهم الا فى الرأى .. كانوا اذا غضب اثنان أو اختلفا ، حرصا على أن يتفاهما قبل أن تغرب شمس اليوم ذاته ، فيتعانقا ويقبل كل منهما الآخر .. فان بقاء السخيمة فى النفس يوما بعد يوم ، كفيل بأن يجعلها تمكن لجذورها ، فترسخ .

مثال باق فى تاريخ الاخوة

• **يروى** عن « يوكليدس » أنه اختلف مع أخيه يوما ، فاذا أخوه يصيح فى وجهه بصوت يفيض سخطا وحنقا : « فليواتنى الموت اذا أنا لم أثأر لنفسى منك ! » . فما كان من يوكليدس الا أن أجابه متلطفا : « وليواتنى الموت اذا أنا لم أقنعك بالتخلى عن غضبك ، وبأن تحبنى كما اعتدت أن تحبنى من قبل ! » ..

على أن الملك « يومينس » ضرب مثلا أقوى فى اللطف الذى لا يغلب .. فلقد حدث أن زين الخصام لبيرسيوس ــ ملك المقدونيين ــ أن يستأجر قتلة ليغتالوا « يومينس » ، فأقاموا له كمينا على مقربة من (دلفى) ، عندما علموا أنه فى طريقه اليها .. وأسقطوا على مركبه صخرة أطاحت به فاقد الرشد ، فظن الكل أنه مات ، وانتشر النبأ ، وأعلن تنصيب أخيه الاكبر « أتالوس » ملكا بدلا منه . وكان « اتالوس » رقيقا ، محبا لاخيه ، فحزن عليه ، ولكنه لبس تاجه ، وتزوج من أرملته .. ثم ذاع أن « يومينس » كان على قيد الحياة ، وانه فى طريقه الى مملكته فى (بيرجاموم) . **فسرعان ما ألقى « أتالوس » بتاجه وصولجانه ، وأسرع فى ركب عظيم لاستقباله .. واذا**

« يومينس » يتلقى أخاه بود ، ويهنىء الملكة باحترام ، ولا يلقى أى لوم أو ريب على أخيه أو زوجته !

فكيف تصرف أتالوس ؟ .. انه لم يشأ أن يربى أبناءه – رغم أن زوجته أنجبت له عددا منهم ، بعد موت يومينس – وانما احتضن ابن أخيه فعلمه ورباه ، حتى اذا كبر ، أجلسه بنفسه على العرش ، وألبسه التاج ، ونادى به ملكا !

فيا له من وفاء رائع ، ومن نبل سام !

ان هذه القصة تذكرنا بناحية أخرى .. تلك هى واجب المرء نحو أبناء أخيه .. فجدير بالاخ أن يبدى نحو أبناء أخيه من الحب عين مايبدى نحو الاخ نفسه ، ان لم يكن أكثر .. وجدير به أن يهنأ بما يظفرون به من رقى وأمجاد، وأن يشجعهم على السعى الى أعلى المراتب .. واذا كان من حق المرء أن يتغنى بمديح أبنائه ، فان تغنيه بمديح أبناء أخيه أجمل وأروع ، اذ أنه ينم لا عن حب للذات ، وانما عن حب للكمال .. وهو من أقدس ألوان الحب .


THE LOST WORLD BY SIR ARTHUR CONAN DOYLE
العالم المفقود
لنابغة القصة : سير آرثر كونان دويل

ملخص ما نشر في الأعداد السابقة

◆ كان لابد من أن أخوض المخاطر ، لأرضى الفتاة التي أحببتها • ولهذا جازفت ، فقابلت الاستاذ « تشالينجر » الذى كان الصحفيون والعلماء يرهبونه ، لخشونته وفظاظته •• كان قد عاد من رحلة في أمريكا الجنوبية ، فأذاع ان على ضفاف (الامازون) منطقة مجهولة ، تعتبر بحق «العالم المفقود» • اذ تعيش فيها مخلوقات العصور السابقة للتاريخ ، دون أى تطور مما ألم بالاحياء • ولكن أحداثا صادفته فاضاعت أو اتلفت الأدلة التي كان قد عاد بها ، ومن ثم لم يستطع أن يقدم قرينة واحدة تدعم قوله ، مما جعله موضع سخرية الاوساط العلمية • فما كان منه الا ان تحدى الجميع ، وترتب على ذلك ان تالفت بعثة لتحرى صحة قوله ، من الاستاذ سمرلى ــ وهو من العلماء ــ واللورد جون روكستون الرحالة الشهير ، وأنا •• « ا• د• مالون » الصحفى • وانضم الينا الاستاذ تشالينجر حين بلغنا نقطة البدء في رحلتنا ، فانطلقنا حتى انتهى بنا الى ادغال كان الهنود يتحاشون الاقتراب منها ، اعتقادا منهم بأن « الكوروبورى » ــ روح الغابات ــ تسكنها ، وتلحق الأذى بمن يقتحمها •

وبلغنا مرتفعات صخرية حمراء ، تؤلف الهضبة التي قال تشالينجر انها «العالم المفقود» • ولم يكن ثمة مكان في سفوحها ، يتسنى عنده تسلقها • على ان صخرة ذات شكل هرمى كانت تقوم بجوارها وتحاذيها ارتفاعا ، وان فصلت بينهما هوة سحيقة • وكانت عليها شجرة بالغة الارتفاع ، فاستطعنا ان نمدها فوق الهوة ، ونعبر الفراغ عليها •• واذا بأحد أتباعنا ــ من الهنود الحمر ــ يزحزحها فتقع في قاع الهوة • وبذلك انقطعت كل صلة لنا بالعالم الخارجي ، اللهم الا عن طريق تابع وفى من أتباعنا ، ظل يصعد الى قمة الصخرة الهرمية ليتلقى رسائلنا •

وصادفنا في « العالم المفقود » وحوشا من عهود ما قبل التاريخ •• صادفنا طيور « البيترودكتايل » الوحشية الهائلة ، و « الدينوصاور » الضخم آكل اللحوم ، و « الايجوانودون » •• كلها هائلة الحجم ، رهيبة المنظر •• وتعرضنا لهجمات من « البيترودكتايل » و « الدينوصاور » ، ولكننا نجونا منها • وفى ذات ليلة ، تسللت من المعسكر وحيدا ، لأستطلع معالم الهضبة ــ وكنت قد ألممت بها عن بعد ، من قمة شجرة فارعة الطول ــ فاستطعت ان أصل الى بحيرة تتوسطها • ومن هناك ، تبينت على الهضبة المقابلة بقاعا حمراء ، أدركت انها كهوف بداخلها نار ، فكان هذا دليلا على وجود آدميين •

وفى عودتى ، طاردنى حيوان « الستيجوساورس » المتوحش • وفيما كنت أنشد الفرار منه ، وقعت في حفرة تبينت انها مصيدة للحيوانات ، فكانت دليلا آخر على وجود الانسان • واستطعت أخيرا أن أنجو ، وأن أنطلق نحو

المعسكر .. وفي هدوء الفجر ، سمعت طلقا ناريا واحدا ، أعقبه سكون شامل !.. وأسرعت الى المعسكر ، فاذا الفوضى تنتشر فى أرجائه ، مما دل على قيام معركة رهيبة ، ولم أجد أثرا لزملائي .. ورحت أنقب في الغابة المجاورة ، دون جدوى . ولم أجد بدا - حين هبط الليل - من أن أنام وحيدا .. ولكنني استيقظت فى الفجر على يد تهزني . واذا باللورد روكستون ، شعث الهيأة ، ممزق الثياب . وعلمت منه ان الآدميين القردة هاجموا المعسكر - فى غيابي - وأسروا زملائي الثلاثة . ولكن تشالينجر كان سعيد الحظ ، لأنه كان يشبه زعيمهم . وقال اللورد انهم تبينوا ان فى الجانب الآخر من الهضبة - حيث الكهوف التى رأيتها - بشرا شبيهين بالهنود الحمر ، وان الآدميين القردة يتصيدونهم ويعدمونهم بالقائهم من فوق الهضبة .

وأسرعنا لنجدة زميلينا ، بعد ان تسلحنا بالبنادق ، وانقذنا معهما عددا من الهنود الحمر ، كان بينهم ابن زعيمهم . ثم ساعدنا القوم على محاربة الآدميين القردة حتى تغلبوا عليهم واستعبدوهم . وحاولنا بعد ذلك ان نغرى الهنود بارشادنا الى طريق لمبارحة الهضبة ، فأبوا الا أن يستبقونا معهم . ولكن ابن الزعيم أتاني بلوحة حدد عليها عدد الكهوف ، ورسم علامة أمام واحد منها ، أدركنا انه قد يقودنا الى الخلاص .. فقال سمرلي : « وما قولكم فى الهنود الذين فى هذا الكهف ؟ »

والآن .. تابع قراءة هذه القصة الممتعة

الحلقة السادسة والاخيرة

بقية الفصل الخامس عشر

فقلت : « ليس فى الكهوف التى فوقنا هنود ما ، فهى جميعا تستخدم كمخازن . لماذا لا نصعد الآن لفورنا ، ونرى بأنفسنا ؟ » . وتناول كل منا قطعة من الخشب ، وصعدنا الى الكهف الذى كان مميزا بالصليب . فلما بلغناه دخلناه ، وأوقدنا قطع الخشب . فاذا هو ممر جميل ، ذو جدران ناعمة سمراء ، مغطاة برسوم محلية . **وأسرعنا خلاله فى لهفة ، حتى تبينا - ونحن نصرخ أسفا - انه مسدود . ولم يكن لنا منفذ هناك ! ..** فقال تشالينجر : « لا بأس ، يا أصدقائى ،

لا أزال أعدكم بمنطاد ! » . وقلت متعللا : « هل من الممكن أن نكون قد اخطأنا الكهف ؟ » . فقال روكستون : « لا جدوى أيها الزميل الشاب .. سبعة عشر الى اليمين ، وهو الثانى من اليسار . من المؤكد أن هـذا هو الكهف ! » . ونظـرت الى العلامة التى كان اصبعه يشير اليها ، ثم أطلقت فجأة صيحة ابتهاج ، وقلت : « أعتقد أننى اكتشفت الامر ! .. اتبعونى ! اتبعونى ! » . وهرعت عائدا فى نفس الطريق التى جئنا منها . ثم قلت مشيرا الى أعواد ثقاب على الارض : « هنا المكان الذى أوقدنا فيه مشاعلنا » . فقال تشالينجر : « تماما ! » .

ـ حسنا ، لقد رسم الكهف متشعبا ، وقد مررنا ـ فى الظلام ـ بنقطة التشعب ، قبل ان نشعل الخشب . فالى اليمين ـ ونحن خارجون ـ سنجد ولابد الشعبة الاكثر طولا !

وكان الامر كما قلت . فلم نمض ثلاثين ياردة قبل أن تبدو فى الجدار فتحة كبيرة سوداء . وتحولنا اليها لنجد أنفسنا فى ممر أوسع من الذى كنا فيه . ومضينا قدما ، الى أن رأينا على البعد ضوءا فضيا أحال الرمال الى لآلىء مسحوقة منثورة . فصاح اللورد جون : « القمر ! بحق القديس جورج ! لقد نفذنا يا أولاد ! لقد نفذنا ! » .. **وكان البدر هو الذى أضاء فعلا خلال فتحة فى المرتفعات الصخرية ، لم تكن اوسع من نافذة عادية ، ولكنها كانت كافية لاغراضنا** . ومنينا أنفسنا بأن نستطيع بفضل حبلنا أن نجد طريقة للهبوط . ثم عدنا مغتبطين الى معسكرنا ، لنتخذ استعداداتنا للمساء التالى . وكنا مضطرين الى أن نفعل ما فعلنا بسرعة وسرية ، اذ كان من المحتمل أن يعوقنا الهنود ، فى هذه الساعة الاخيرة . وكان علينا أن نترك مختزناتنا عدا بنادقنا ورصاصاتنا فقط . غير أنه كانت لدى تشالينجر صناديق أصر على ان نأخذها معنا ، لا سيما طرد منها ليس لى أن أتحدث عنه ، وقد كبدنا من المتاعب أكثر من سواه !

ومر النهار بطيئا ، ولكن ما أن هبط الظلام حتى كنا على استعداد لرحلتنا . ونقلنا أمتعتنا الى أعلى السلم بكثير من الجهد . وبعد أن تزودنا بنظرة أخيرة من أرض مغامراتنا الغريبة ، دخلنا الكهف الذى أفضى بنا الى عالمنا . **فان هى الا ساعتان ، حتى كنا ـ بطرودنا وكل ما كنا نملك ـ عند أسفل الهضبة .. وتركناها حيث هبطنا ، وأسرعنا لتونا الى معسكر ((زامبو)) . وفى باكورة الصباح ، دنونا منه ، ولكن لنجد ـ لدهشتنا ـ أنه لم تكن ثمة نار واحدة فى السهل ، بل أكثر من عشر . فلقد وصلت النجدة !** .. كان ثمة عشرون هنديا من النهر ، وحبال ، وكل ما يمكن أن يكون نافعا لصنع معبر .. لن نعانى الآن صعوبة ما فى نقل أمتعتنا ـ على الاقل ـ حين نتخذ سبيلنا غدا الى (الامازون) .. وهكذا أختتم تقريرى . لقد رأت عيوننا عجائب عظيمة ، وقد تطهرت نفوسنا بما عانيناه . لقد غدا كل منا أفضل وأعمق ، فى ناحيته . ومن المحتمل ـ اذا ما بلغنا (بارا) أن نمكث فترة لنبتاع حاجياتنا . فاذا فعلنا ، فسيسلم هذا الخطاب الى البريد ليسبقنا . واذا لم نفعل ، فسوف يصل الى (لندن) فى عين اليوم الذى أبلغها فيه . وفى الحالين ـ يا عزيزى مكاردل ـ آمل أن أصافحك فى القريب العاجل !

(١٦) ـ ((موكب ! » .. موكب !))

• لم نستبن مدى عظم اهتمام الراى العام ـ لا العالم العلمى فقط ـ الا حين أصبحت باخرتنا على خمسمائة ميل من (ساوثهامبتن) ، واقبلت البرقيات اللاسلكية من صحيفة اثر صحيفة ، تعرض أسعارا هائلة فى مقابل رسالة عن نتائجنا الواقعية . على أنه كان من المتفق عليه بيننا أن لايتاح للصحافة أى تصريح محدد ، قبل ان نلتقى بأعضاء معهد علم الحيوان ، اذ كان واجبنا الجلى ـ كمندوبين له ـ أن نقدم أول تقرير

لنا الى الهيئة التى تلقينا منها الامر بالبدء فى رحلتنا . وهكذا رفضنا رفضا تاما أن ندلى بأية معلومات ، بالرغم من أننا وجدنا (ساوثهامبتن) مليئة برجال الصــحافة . **وكانت النتيجة الطبيعيــة لذلك ، أن اتجه اهتمــام الرأى العام الى الاجتماع الذى أعلن أنه سيعقد فى مساء ٧ نوفمبر ، فى قاعة الملكة فى (ريجنت ستريت) . وكان هو المكان الوحيد الذى يتســع للحشد الكبير الذى كان من المرتقب أن يفد .**

وكان الموعد المحدد للاجتماع الكبير ، هو المساء الثانى بعد وصولنا . فقد كان لكل منا ـ بلا شك ـ شؤونه الخاصة التى يجب أن يسويها فى المساء الاول . أما شؤونى ، فليس بوسعى بعد أن أتحدث عنها .. والآن ، أنتقل الى آخر وأعظم لحظة فى مغامرتنا ، واعنى الاجتماع الذى عقد فى قاعة الملكة . وفيما كنت أفكر جاهدا فى خير وصف له ، وقعت عيناى على العدد الذى صدر من صحيفتى فى صباح الثامن من نوفمبر . وهذا ما جاء فيه :

((العالم الجديد)) : اجتماع عظيم فى قاعة الملكة ..
حادث غير عادى ، عظيم الدوى .. ما هو ؟
(تقرير خاص للصحيفة)

« عقد ليلة أمس ، بقاعة الملكة الكبرى ، اجتماع معهد علم الحيوان ، الذى كثر الحديث عنه ، والذى وجهت الدعوة اليه لسماع تقرير الأعضــاء الذين أوفدوا الى أمريكا الجنوبية فى العام الماضى ، لفحص البيانات التى أدلى بهــا الاستاذ تشالينجر بصدد استمرار وجود أحياء من عهود ماقبل التاريخ ، فى تلك القارة . ومن الممكن القول ان من المحتمل أن يكون هذا الاجتماع مناسبة تكتب بحروف حمراء ، فى تاريخ العلم ، فقد كان جد رائع ، بحيث لا يحتمل أن ينساه أحد من الحضور . ولقد حجزت البطاقات للأعضاء ولأصــدقائهم فقط ، ولكن كلمة « أصدقاء » تعبير مطاط ، فان جميع أرجاء القاعة الكبيرة كانت مزدحمة بالناس ، قبل الساعة الثامنة ـ الموعد المحدد لبدء الاجتماع ـ بوقت كبير . على أن الرأى العام ، وقد أغضبه أن يحرم من الاجتماع ، اقتحم الأبواب قبل الثامنة بربع ساعة ، بعد صراع مع البوليس أصيب فيــه كثير

من الناس . وكنتيجة لذلك ، كان في انتظار وصول الرحالين حشد مؤلف من خمسة آلاف شخص . فلما ظهروا ، اقتيدوا الى أماكنهم في مقدمة المنصة التى كانت قد ضمت كبار العلماء ، لا فى هذه البلاد وحدها ، بل في فرنسا وألمانيا أيضا . وكان دخول أبطال المناسبة الأربعة اشارة البدء فى استقبال رائع ، اذ نهض الحضور عن بكرة أبيهم ، وظلوا يهتفون لبضع دقائق . على أن أى مراقب واع ، كان بوسعه أن يلاحظ بعض أمارات عدم الموافقة وسط الهتاف ، وأن يستنتج أن الاجتماع كان خليقا بأن يصبح أكثر ضجيجا مماكان مرتقبا . فما كان بوسع أحد أن يتنبأ بالتحول غير العادى الذى قدر له أن يقع فعلا .

« ولسنا بحاجة الى التحدث عن مظهر الرحالين الأربعة ، اذ أن صورهم تظهر في الصحف منذ وقت . فهم يحملون آثارا طفيفة للمشاق التى قيل انهم تعرضوا لها .. وعندما استتب الهدوء ثانية ، وجلس النظارة بعد الهتاف والتحية التى أولوها الرحالين ، خاطب الرئيس - دوق ديرهام - الحضور قائلا : انه لا يود أن يحول بين الحشد الكبير والموضوع المطروح عليهم ، لاكثر من لحظة واحدة . فما كان له أن يقول شيئا عما يعتزم الاستاذ سمرلى - الذى كان خطيب الاجتماع - أن يقوله لهم ، ولكن من المعروف أن حملتهم قدتوجت بنجاح غير عادى (تصفيق) .. وكل ما يبغى أن يضيفه - قبل أن يجلس - هو انه كان مسرورا ، كجميع الحضور - بعودة هؤلاء السادة سالمين أصحاء ، من مهمتهم الشاقة الخطرة . فليس من الممكن انكار أن أية نكبة لمثل هذه البعثة كانت خليقة بأن تكون خسارة فادحة تحيق بعلم الحيوان . (تصفيق عظيم ، لوحظ أن الاستاذ تشالينجر اشترك فيه) .

« وكان نهوض الاستاذ سمرلى اشارة فيض جديد من الحماس الفذ ، الذى تكرر مرارا خلال خطابه . وأدلى بالطريق الذى سلكوه فعلا في رحلتهم ، من النهر الاصلى ، الى الوقت الذى وصلوا فيه فعلا الى أسفل المرتفعات الصخرية . وأذهل سامعيه ببيانه عن الصعاب التى صادفتها الحملة فى محاولتها لتسلق هذه المرتفعات ، ثم وصف أخيرا توفيقهم فى ذلك . وأنبأهم - بعد ذلك - بفظائع ومغريات تلك البلاد الفذة . وذكر الوحوش والطيور والحشرات العجيبة التى صادفوها فى الهضبة . على انه كان من الطبيعى أن يتركز اهتمام الرأى العام على الحيوانات الكبرى التى كان من المفترض أن تكون قد انقرضت . وقد استطاع أن يدلى ببيانات وافية عن هذه ، ولكنه كان واثقا من أن هذه القائمة ستزداد عندما يفحص المكان على نطاق واسع . ولقد رأى وزملاؤه اثنى عشر نوعا من المخلوقات على الاقل - معظمها عن بعد - لا يلوح أن العلم يعلم شيئا عنها فى الوقت الحاضر . وسوف تفحص هذه وتعين

أنواعها فيما بعد . وأضاف أن الهضبة كانت جد غنية بأشكال ما قبل التاريخ ، التى يرجع عهدها - فى بعض الحالات - الى أوائل العصر اليوراسي. وذكر بين هذه « الستيجوساورس » الهائل ، الذى رآه السيد مالون مرة فى مكان يرده الحيوان للاستقاء منه ، على ضفة البحيرة ، والذىوجد مرسوما فى كراسة « ميبل هوايت » الذى كان أول من دخل العالم المجهول . كذلك وصف « الايجوانودون » و « البتيرودكتايل » ، وهما من أول العجائب التى صادفوها . ثم أدهش الحضور بما رواه عن الدينوصاورات الرهيبة ، آكلة اللحوم ، التى طاردت أعضاء البعثة ، فى أكثر من مناسبة ، والتى كانت أقوى المخلوقات التى قابلوها جميعا . ثم أدلى بوصف كامل لحيوانات البحيرة الوسطى ، وللهنود الذين يعيشون فى الكهوف .وذكر - بعد ذلك - الآدميين القردة ، الذين يمكن اعتبارهم أرقى من الانسان القرد - الذى اكتشف فى (جاوه) - ومن ثم فهم أقرب من أى نوع معروف الى « الحلقة المفقودة » . ثم ختم حديثه بالادلاء ببيان عن الاساليب التى وجدت البعثة بها طريقا للعودة الى المدنية ، فى النهاية .

« وكان يهم بالعودة الى مجلسه ، حين صاحت أصوات بين الجمع ، تطالب بالأدلة . وحاول أنصار سمرلى أن يسكتوها ، فأدى هذا الى قدر من الشغب. على أن الهدوء ساد فجأة ، تبعه صمت ، ثم سكون تام . وكان الاستاذ تشالينجر قد نهض ، فاذا مظهره ومسلكه غريبان ، يستأثران بالانتباه . واذ رفع يديه مطالبا بالنظام ، استقر الحضور جميعا ، وأنصتوا . فقال الاستاذ : « يذكر كثير من الحضور تلك الحركات الحمقاء التى اتسم بها الاجتماع الاخير الذى قدر لى أن أخاطبكم فيه . على اننى سأحاول أن أقضى على أى شك معقول يمكن ان يكون موجودا فى ذهن أى منكم . واذ كانت التجربة السابقة قد أنذرتنى - كما قلت - فاننى لم آت بدون أدلة ، كما يجب أن يتوقع أى عاقل . ولقد دمر الآدميون القردة عدسات التصوير ، عندما هاجموا معسكرنا ، وأتلفت معظم « أفلامنا » . وبالرغم من الدمار الذى لحق بكثير من « الافلام » القيمة ، فلا يزال باقيا فى مجموعتنا عدد كبير من الصور التىتبين ظروف الحياة فوق الهضبة . وقد يتهمنا بعضكم بتزييف هذه الصور ، ولكننا على استعداد لعرضها للفحص بوساطة خبراء . كذلك لدينا مجموعة الاستاذ سمرلى من الفراش والحشرات ، وهى تضم كثيرا من الانواع الجديدة . ثم ان لدينا - فوق كل شىء - دليلا سيقنعكم جميعا » . وهنا رفع الاستاذ تشالينجر يده عاليا ، كاشارة ، فاذا بصديقنا السيد « ا. د. مالون » ، يشاهد وهو ينهض ويشق طريقه الى مؤخرة المنصة . وبعد لحظة ، ظهر مصطحبا زنجيا

ضخم الجسم ، وقد حملا فيما بينهما صندوقا مربعا كبيرا · وكان من الواضح انه ثقيل جدا ، فقد حملاه ببطء الى المقدمة ، ثم وضعاه أمام مقعد الاستاذ · وتوقف كل صوت بين النظارة ·

« واتجهت أنظار كل امرىء الى المنظر الذى كان أمامه · وجذب الاستاذ تشالينجر قمة الصندوق ، التى كانت بمثابة غطاء منزلق · وبعد لحظة ، ظهر مخلوق من أفظع وأقبح المخلوقات ، ووقف على جانب الصندوق ، فى جلبة عالية · وكان وجه المخلوق يشبه أبشع الصور التى يقدر لخيال رسام مجنون أن يصورها · كان مخيفا ، ذا عينين صغيرتين حمراوين ، نفاذتين ، كطرفى جمرة متقدة · وكان فمه الوحشى الطويل ـ الذى كان نصف مفتوح ـ مليئا بصفين من الاسنان · أما كتفاه فكانتا مقوستين الى أسفل ، وقد بدا حولهما شىء أشبه بشال أسمر خابى اللون ·· كان « العفريت » الذى اعتدنا أن نخافه فى طفولتنا ، مجسدا · وساد الاضطراب النظارة ·· وصرخ شخص ما ، وأغمى على سيدتين فى الصف الأول ، وكان ثمة هرج عام فوق المنصة ، اذ تبع الجميع رئيسهم الى المقاعد التى فى القاعة · وكانت اللحظة تنذر بذعر عام ·

« ورفع الاستاذ تشالينجر يديه ليوقف الحضور ، ولكن الحركة أفزعت المخلوق الذى كان الى جواره · فانفتح الشال الغريب فجأة الى جناحين جلديين ، وطار عن المنصة ، وأخذ يحوم ببطء فى القاعة ، باسطا جناحيه اللذين كان طولهما عشر أقدام ، بينما انبعثت فى القاعة رائحة كريهة تثير التقزز · وذهبت صرخات الجالسين فى أعلى القاعة ـ والذين كانوا فى خوف من اقتراب تلكما العينين المتأججتين ـ بعقل المخلوق ، فأخذ طيرانه يزداد سرعة ، وهو يرتطم بالجدران والمصابيح · وصاح الاستاذ من فوق المنصة فى زئير ، محركا يديه كالمجنون : « النافذة !·· أغلقوا النافذة بحق السماء ! » · ولكن هذا التنبيه جاء متأخرا ، للأسف !·· فان هى الا لحظة ، حتى وصل المخلوق ـ الذى كان يضرب ويدق الجدران ـ الى النافذة ، فمر خلالها بعناء ، وانطلق الى الخارج · وتهالك الاستاذ تشالينجر فى مقعده ، دافنا وجهه فى راحتيه ، بينما زفر الحضور فى ارتياح ، وقد تأكدوا من أن الحيوان قد اختفى ، وأن الخطر قد زال !

« ثم ·· آه ! كيف لى أن أصف ما حدث اذ ذاك ·· عندما اتحد الحضور جميعا فى كتلة واحدة ، ليؤلفوا موجة حماس هائلة ، انحدرت من مؤخر القاعة ، وأخذت تزداد كبرا كلما تقدمت ، ثم اجتاحت المنصة ، وحملت الابطال الأربعة فوق الرؤوس · كان كل امرىء يقف على قدميه ·· وكان

كل امرىء يتحرك ، ويهتف ، ويصيح . وأحاط بالرحالين الأربعة حشد كثيف من الهاتفين . وصاحت مئات الأصوات : « ليحيوا ! ليحيوا ! » . وفي لحظة ، ارتفع الأربعة فوق الحشد . وعبثا حاولوا النجاة ، فقد استبقوا في أماكن التكريم الرفيعة . بل لقد كان من العسير انزالهم ، لو أريد هذا ، لفرط كثافة الحشد حولهم . ترددت الاصوات : « الى ريجنت ستريت ! الى ريجنت ستريت ! » . وكانت ثمة حركة في الحشد ، اذ تقدم الناس في بطء نحو الباب ، حاملين الأربعة على أكتافهم . وفي الشارع ، كان المنظر عجيبا . اذ كان في الانتظار زحام لم يضم أقل من مائة ألف شخص . وحيث المغامرين الأربعة ـ عند ظهورهم على رؤوس القوم ، تحت المصابيح الكهربائية، خارج القاعة ـ عاصفة من الهتافات .

« وكانت الصيحة : « موكب ! موكب ! » .. وتقدم الجمع ، سادين الطرقات من جانب الى آخر . وتوقفت حركة المرور في وسط لندن بأسره . وأخيرا ، لم يطلق الرحالون الأربعة الا بعد انتصاف الليل ، عند مدخل مسكن اللورد روكستون ، بعد أن غنى الحشد : « انهم رفاق أمجاد » ، ثم اختتموا غناءهم بالنشيد القومي . وهكذا انتهت أمسية من أعجب الأمسيات التي رأتها لندن منذ وقت طويل »

* * *

وجلاديز ؟ ! .. أواه ، حبيبتي جلاديز ! .. جلاديز صاحبة البحيرة العجيبة ، التي أطلق عليها ـ فيما بعد ـ اسم البحيرة الوسطى ، فلن يقدر لاسمها أن يشتهر قط عن طريقي .. اذ أنني لم أتسلم رسالة أو برقية منها حين وصلت الى (ساوثهامبتن) . ومن ثم يممت مباشرة الى دارها في (لندن) ، فكنت هناك حوالي الساعة العاشرة من ذلك المساء ، وأنا في حمى من القلق . أتراها كانت ميتة أو على قيد الحياة ؟ .. أين كانت كل أحلام ليالي .. أحلام الذراعين المفتوحتين ، والوجه الباسم ، وكلمات الاطراء ارجلها الذي جازف بحياته لارضائها ؟ .. وهكذا كنت قد هبطت من السحب العليا ، واقفا على الارض . ومع ذلك ، فقد كان ثمة أمل في أن تبدي بعض أسباب قوية ترفعني ثانية الى السحب . واندفعت الى

ممر الحديقة ، ورحت أطرق الباب . وسمعت صوت جلاديز في الداخل ، واندفعت متجاوزا الخادم المحملقة ، وسرت الى قاعة الجلوس . فاذا بها تجلس فى مقعد منخفض تحت مصباح ظليل بجوار « البيانو » . وفى ثلاث خطوات ، كنت قد اجتزت الغرفة ، وأمسكت بيديها بين يدى . وصحت : « جلاديز ! جلاديز ! »

ونظلعت والدهشة فى أساريرها .. كانت قد تغيرت بشكل ما . كان تعبير عينيها ، وانطباق شفتيها ، جديدين على . وسحبت يديها ، وتساءلت : «ماذا تعنى ؟ ». فصحت : « جلاديز ! .. ماذا جرى ؟ .. انك جلاديزى ، ألست كذلك .. جلاديز هنجرتن الصغيرة ؟ » . فقالت : « لا ، أنا جلاديز بوتس . دعنى أقدمك لزوجى ! » . ألا ما أسخف الحياة وأتفهها !.. لقد وجدتنى أنحنى وأصافح رجلا ضئيل الجسم ، تكوم فى المقعد الوثير الذى كان يوما مكرسا لاستخدامى . ونظر كل منا الى الآخر وابتسم . وقالت جلاديز : « لقد سمح لنا أبى بالاقامة هنا ، ريثما يتم اعداد منزلنا » . فقلت : « آه ، حقا ! » .

ـ اذن ، فأنت لم تتسلم خطابى فى (بارا) ؟

ـ لا ، لم اتسلم خطابا ما

ـ أواه ، يا للأسف ! .. كان كفيلا بأن يوضح كل شىء !

قلت : « هذا واضح جدا » . فقالت : « لقد حدثت وليم عنك ، فليست بيننا أسرار . اننى آسفة لما حدث ، ولكن .. ما كان من المحتمل أن تكون علاقتنا جد عميقة ، اذا كنت قد استطعت أن تذهب الى آخر العالم وتتركنى وحيدة هنا . أليس كذلك ؟ .. ما أحسبك غاضبا ؟ » . فقلت : « لا ، لا .. أبدا ! أرى ان أنصرف » . وقال الرجل الضئيل الجسم : « تفضل بعض المرطبات ! .. هكذا الحياة دائما ، أليست كذلك ؟ » . وضحك كالابله ، بينما كنت أتجه الى الباب ..

وكنت قد توسطته ، حين خطرت لى فكرة ، فعدت الى مزاحمى الموفق ، الذى تطلع بانفعال الى الجرس الكهربائى وسألته : « هل لك أن تجيب عن سؤال ؟ » . فقال : « أجل ، مادام معقولا ! »

— كيف ظفرت بها ؟ .. هل بحثت عن كنز مخبأ ، او اكتشفت قارة ، أو عبرت قناة ، او ماذا ؟ .. اين جمال الخيال الشاعرى ؟ .. كيف وفقت ؟

فحملق فى ، وعلى وجهه حيرة بادية ، وقال : « الا ترى أن كل هذه مسائل شخصية الى حد كبير ؟ » . فصحت : « حسنا ، سؤال واحد فقط .. من تكون ؟ .. ما مهنتك ؟ » . فقال : « اننى كاتب محام ! » . قلت : « عم مســاء ! » ، واختفيت فى الظلام ، وفى أعماقى حزن ، وغضب ، وضحك ، امتزجت بعضها ببعض !

بقى منظر آخر قصير : ففى الليلة الماضية ، تناولنا جميعا العشاء فى مسكن اللورد روكستون . واذ جلسنا معا — بعد ذلك — رحنا ندخن فى مودة طيبة ، ونستعيد ذكر مغامراتنا .. وكان لدى اللورد روكستون ما أراد أن يقوله لنا ، فى حجرته الخاصة ، بعد العشاء .. فمن صوان لديه ، أحضر صندوقا قديما من صناديق السيجار ، ووضعه على المنضدة ، قائلا : « هناك شىء لعلى كنت خليقا بأن أتحدث عنه قبل ذلك ، ولكننى اردت أن أعرف بمزيد من الجلاء حقيقة موقفى ، فلا جدوى هناك من ايقاظ الآمال ثم التخلى عنها ثانية . ولكن **التى أمامنا الآن هى الحقائق ، وليست الامانى . فلعلكم تذكرون ذلك اليوم الذى عثرنا فيه على مستنقع البتيرودكتايل .. هل تذكرونه ؟ .. حسنا ، لقد استلفت بصرى شىء فى تكوين الارض ، ولعله فاتكم ، ولذلك فسأنبئكم به . انه فوهة**

بركانية مليئة بطمى أزرق ! » . وهز الاستاذان رأسيهما ، بينما واصل اللورد الحديث : « حسنا .. اننى لم أصادف فى الدنيا بأسرها سوى مكان واحد كان فوهة بركانية بها طمى أزرق . وكان ذلك هو منجم الماس الكبير فى (كيمبرلى) .. هل سمعتم به ؟ ومن ثم ترون أن الماس شغل بالى ، فأعددت سلة لأصد بها تلك الطيور المتوحشة القذرة ، وقضيت هناك يوما سعيدا ، مصطحبا فأسا . وهذا ما حصلت عليه ! »

وفتح صندوق السيجار فقلبه ، مفرغا على المنضدة حوالى عشرين او ثلاثين حجرا غفلا ، تباينت أحجامها من حجم الفول الى حجم الكستناء (القسطل ، أو أبو فروة) . وقال : « ربما ترون انه كان جديرا بى أن أنبئكم اذ ذاك . وهذا ما كان ينبغى حقا ، لولا اننى أعرف أن الاحجار الكريمة قد تكون قليلة القيمة ، مهما يكن حجمها . لذلك أحضرتها معى . وفى أول يوم لنا فى الوطن ، أخذت حجرا مستديرا منها الى متجر الجواهرى المشهور «ذى سفينكس» ، وسألته أن يقطعه و يقدر قيمته » . وتناول من جيبه علبة صغيرة ، فأخرج منها ماسة جميلة براقة ، من أبدع الماسات التى رأيتها . وقال : « ها هى ذى النتيجة .. وهو يقدر الاحجار جميعا سعرا هو مائتا ألف جنيه . ومن الانصاف طبعا أن نتقاسمه فيما بيننا ، وان انصت الى أى رأى آخر . والآن يا تشالينجر ، ما الذى ستفعله بالخمسين ألفا التى هى نصيبك ؟ » . فقال الاستاذ : « اذا أصررت على سخائك ، فانى سأنشىء متحفا خاصا كان حلمى الاوحد منذ أمد طويل » .

وتحول اللورد قائلا : « وأنت يا سمرلى ؟ » . فأجاب هذا : « سأعتزل التدريس ، وبذلك أجد وقتا للدرس والبحث ! » . فقال اللورد جون روكستون : « لسوف أستخدم نصيبى فى

اعداد حملة جيدة التركيب ، والقاء نظرة أخرى على الهضبة العزيزة . أما أنت أيها الزميل الشاب الصغير ، فسوف تنفق نصيبك فى الزواج طبعا ! » . **فقلت بابتسامة حزينة : « ليس الآن .. أظننى أوثر الذهاب معك ، اذا قبلتنى » .. ولم يقل اللورد جون شيئا ، ولكن بدا سمراء امتدت الى عبر المنضدة !**

« تمت »